



آيات الخوف في القرآن الكريم

دراسة فنية

رسالة تقدمت بها الطالبة

تغريد عبد الأمير مرهون الخفاجي

إلى

مجلس كلية التربية في جامعة بابل

وهي جزء من متطلبات نيل درجة الماجستير

في اللغة العربية وآدابها
- فرع الأدب -

بإشراف

الأستاذ الدكتور

عباس محمد رضا



2008

1429





Horror Verses in holly Koran



Technician study

A dissertation presented by the student

**Taghreed Abdil Ameer Marhun
Al- Khafajy**

To
Council College of Education at the University of
Babylon

It is a part of qualifying a masters degree requirement

**In Arabic language and its Arts
- Branch of Art-**

Supervised by
Dr. Abbas Mohammad Rudha

2008 CHR

1429 Im

In the Name of God the Most Compassionate And Merciful

Thanks for Allah of high appealing gratitude of his majesty and to thank him for his Tavares blessings and bestows.

To admit that no god except him that mercy good and call cover the existence.

Blessing and peace be up on the mercysender for the creation the faithful Mohammed Al Ameen and up on all his followers the unmistakable guider what's up :

I thank God and I thank him for that blesses the great and Vgueni because, edit what I hope for you, to write on the subject in his book examines the subject Karim was marked b (Horror Verses In Holly Quran- technician study) .

This is the great of the great of the granter to me . I should expose the favor of Dr. Abbas Mohammed Rudha to suggest the title and the supervision steps writing.

This research stems from a modest attempt to study the Koran verses, which stated the term or terms that the horror expressed explicitly, as well as verses that contained the words and structures particularly express horror implicitly, taking into account the context in which it came, and the search for selective analytical method shows in the horror verses of the features and aesthetic meanings rhetoric and employ predominantly technician study that evoke aesthetic tastes and ending to the provisions of art.

The research was divided on three chapters of studying in the first admonishing words, in chapter II sign installation, and in Chapter III image-how.

This has already three chapters pave it outlined the horror in the Koran types and methods expressed explicitly or implicitly . The words held in the Federated horror verses Chapter I, which examined the bell wordy, and appropriate expression of Manahowalsyak contained therein, as well as Koranic commas, and then brown Exchange addressed in the second quarter sign installation examining the news, and construction Tlbi, and delay the introduction, chapter and connectivity, and the brevity and verbose. The third chapter devoted to the study of functional image of the most important elements to set formed by rhetoric, studied analogy and metaphor, and metaphor, euphemism, tobacco, and the presence of tobacco here with being a science-Badi, because he shared with the previous statement in Science portrayals Art suggestive .

The search ended Expatiated conclusion Makharj included most of the research results from the mismatch:

1 - that horror of God is the work, I mean to leave sin and the selection acts of worship, and was not the excitement as is the concept of horror from the psychological point, but one of horror and giving myself engine is compiled by ...

2 - tend to be the horror of God among the types of horror in the Koran, due to the horror of the effects of a good left to the human personality and behavior, it is - the horror - sends Memknath to pursue all of the thought and feeling and work for the pleasure of God and the collection of Neil righteousness and sincerity slavery him.

3 - expression of horror in the Koran came either expressly by words the sense of horror, in some of the horror and clear in others is fraught with many senses confused sense of horror in which Kalrjae meaning Batma hope and expectation and horror maximize Amah, care and compassion tinged with horror , apprehension and horror and terror and awe and reverence all express horror, but to varying highlight clear when entering the installation and connection .. It would be the expression of fear implicitly, as in words and combinations that portray horror or raised in the same recipient This research apace with examples of all of that.

4 - Most horror verses Makeya Paljrs style was characterized by violent and severe impacts, threats and intimidation and portray the horrors of hell, and Resurrection and Kroppea and Paradise Hussain.

5 - between research that the words and combinations and images in verses characterized by horror and detracts high aesthetic helped to highlight the meaning of horror.

Praise be to God, Lord of the Worlds

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ
الْعُلَمَاءُ ﴾

صدق الله العلي العظيم
سورة فاطر 28



إلى من غاب عن عيني ولكنه عن قلبي لا يغيب .

إلى الذي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً .

إلى صاحب يوم الفتح وناشر راية الهدى .

إلى باب الله الذي منه يؤتى.

إلى وجه الله الذي إليه يتوجه الأولياء .

إلى السبب المتصل بين الأرض و السماء .

إلى فارس الحجاز الإمام المهدي (عجل الله فرجه).

أهدي هذا الجهد المتواضع قائلة: ﴿ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَ

أَهْلَنَا الضُّرُّ وَ جِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَ

تَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴾ سورة يوسف الآية 88

الباحثة

شكر و تقدير

اللهم لك الشكر على كل نعمة كانت أو هي كائنة ، ما بنا من نعمة فمنك لا اله إلا أنت ، فمن نعمك العظيمة أن رزقتني لأبحث في كتابك الكريم ، و وفقتني لإكماله فأتتم نعمك عليّ بأن ترضاه مني خالصاً لوجهك .

بارك الله في الجهود والمساعي التي مكنتني في إتمام البحث ، ولا يسعني وأنا مغمورة في هذا العطاء الدافق أن أشكر كل من ساعدني في هذا البحث .

فالشكر والتقدير للدكتور علي ناصر غالب لرعايته الأبوية والعلمية لي في أثناء مدة البحث.

والشكر الجزيل لأستاذي المشرف الدكتور عباس محمد رضا لمعاملته الطيبة لي ومتابعته العلمية وجهوده في إخراج الرسالة على هذا الوجه فجزاه الله تعالى خير الجزاء.

وأقدم بوافر الشكر والتقدير للأساتذة في قسم اللغة العربية في جامعة بابل وأخص منهم الدكتور عامر الخفاجي و الدكتور قيس الخفاجي والدكتورة أمل الشرع والأخ حسن المعموري وكذلك الأساتذة في جامعة كربلاء وهم الدكتور عبود جودي الحلي والدكتور مكي الكلابي، والست رجاء عجيل إبراهيم ،لإرشاداتهم وملاحظاتهم القيمة والتي أغنت الرسالة فلهم مني الشكر والدعاء بالتوفيق لما يحبه الله ويرضاه .

والأخ ماهر خضير لمساعدتي في بعض المصادر المهمة في الرسالة .

وعظيم الشكر والامتنان إلى عائلتي الكريمة وخاصةً والدي الحاج عبد الأمير مرهون الخفاجي لما قدّمه لي من مساعدةٍ وتشجيعٍ مادي ومعنوي والأخير كان أكثر ، فقد كان يشجعني دوماً على أن أواصل مسيرتي العلمية فجزاه الله عني خير الجزاء ، وأبقاه الله لي ذخراً وسنداً .

وكذلك أشكر والدتي وجدتي لدعائهما لي دوماً بالسلامة والتوفيق .

وشكرٌ يتلوه شكر إلى الطيبين والطيبات ، إخوتي وأخواتي وأزواجهم لما أبدوه من تعاون كبير معي ولا سيما أخي المهندس حيدر عبد الأمير مرهون الخفاجي لجهوده المتواصلة وسعيه الحثيث في سبيل إتمام البحث فشكر الله سعيهم وجزاهم خير الجزاء.

ولا أنسى أن اشكر زميلاتي الطبيبات المؤمنات لمساعدتي في بعض المصادر التي قامت عليها الرسالة فضلاً عن سؤالهن ودعائهن.

ومن الواجب أن أقدم الشكر الجزيل إلى العاملات في مكتبة الروضة الحسينية المقدسة ومكتبة الروضة العباسية المقدسة ، والعاملين في المكتبة المركزية في محافظة كربلاء المقدسة ومكتبة جامعة كربلاء ، والعاملين في المكتبة المركزية ومكتبة كلية التربية ومكتبة كلية الآداب في جامعة بابل، أشكرهم لطيب معاملتهم ودوام مساعدتهم .

وإذ أنسى فلا أنسى أن اشكر السيد ضياء أبا المعالي لجهوده المباركة في طبع الرسالة وإخراجها على الوجه الحسن فجزاه الله خير الجزاء .
وأخيراً شكرٌ ودعاء لكل من تفضلَ عليَّ بسؤاله الكريم .

الباحثة

المحتويات

[illegible]

ملخص الرسالة باللغة الانكليزية

A - C

الخوف في القرآن الكريم أنواعه وطرائق التعبير عنه

التمهيد

الخوف هو ((انفعال على صلة بالعقل والإدراك والجسد، فالإنسان لا ينتابه الخوف إلا إذا أدرك وجود خطر يهدد حياته، والذي لا يدرك وجود الخطر، إما عن جهل أو عن سهو... لا يخاف))⁽¹⁾ وهذا الخوف يبعث الإنسان على أن يتخذ موقفاً معيناً يحميه من الأخطار. فالخوف هو انفعال طبيعي يقوم بدور حيوي ومهم في صميم الحياة النفسية للموجود البشري؛ لأنه يحميه من الأخطار وكل ما من شأنه أن يهدد سلامته⁽²⁾.

ولأهمية الخوف بوصفه باعثاً ومحركاً نفسياً قادراً على التأثير في الشخصية والسلوك، اهتم به الإسلام ليستثمره قوة دافعة ومؤثرة في حركة النفس واتجاهها وأساساً لتنظيم العلاقة بين الإنسان وخالقه ولم يجعل اتجاهه ضائعاً متخبطاً.

فالإسلام نَمَى من تأثير الخوف في النفس الإنسانية لإثراء السلوك الخارجي وزيادة عطاء الخير الإنساني، وبذلك يكون الخوف قوة نفسية نشيطة تربي في النفس يقظة الضمير والإحساس بالألم عند المعصية فينمو الإحساس بالمسؤولية والتدبّر على فعل الشر والجريمة، فيتقيد ضمير الإنسان ويدفعه حب نفسه والخوف عليها من العقاب إلى تصحيح مسار سلوكه وتنمية أهدافه على وفق الأهداف الخيرة التي تُرضي خالقه⁽³⁾.

فالخوف من الله تعالى في القرآن الكريم يعني الالتزام بما أمر به وترك ما نهى عنه، إذ إنه يبعث الإنسان على السعي المتواصل من أجل تحصيل مرضاة الله، جاء في روح المعاني: ((والخوف من الله تعالى ... إنّما يُراد به الكف عن المعاصي وتحريّ الطاعات ولذلك قيل: لا يُعدّ خائفاً من لم يكن للذنوب تاركا))⁽⁴⁾.

فمن لم يترك المعاصي ويكسب الطاعات فليس على شيء من الخوف لذا قيل: ليس الخائف من يبكي ويمسح عينيه بل من ترك ما يخاف أن يُعاقب عليه، وقال بعض الحكماء: ((من خاف شيئاً هرب منه، ومن خاف الله هرب إليه))⁽¹⁾. والخوف من الله إمّا أن يكون من عظمتهم وكبريائهم وأفعاله وصفاته أو من جناية العبد باقترافه المعاصي وذلك بحسب المعرفة، فكلما ازدادت معرفة العبد بجلال الله وعظمتهم وتعاليتهم وبعيوب نفسه وجنابيتها ازداد خوفه⁽²⁾. فالمعرفة تسبق الخوف ومن كان بالله أعرف كان منه أخوف، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾⁽³⁾.

(1) تغلب على الخوف، د. مصطفى غالب، دار ومكتبة الهلال، بيروت، 2000م : 7.

(2) ينظر: م. ن 13.

(3) ينظر: الخوف والرجاء، مؤسسة البلاغ: 16.

(4) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، السيد محمود الألوسي البغدادي، دار الكتب العلمية، بيروت، 1422هـ - 2000م: 178/15.

(1) ينظر: جامع السعادات، الشيخ محمد مهدي النراقي، دار التفسير، قم، إيران، ط1، 1417 هـ. ق - 1376 هـ.ش:

174/1

(2) ينظر: م. ن 173/1.

(3) سورة فاطر: 28.

ومن ثم فلا بد أن يكون الخوف من الله تعالى لا من غيره ؛ لأنه خالق كل شيء ومالك كل شيء لذلك أمر الله سبحانه وتعالى عباده بالخوف منه وغير المبالاة بتخويف غيره قال تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (4).

فهو - أي الخوف - من لوازم الإيمان ومن المقامات العلية ، إذا سكن قلب الإنسان أحرق الشهوات فيه وطرد بهرج الدنيا عنه، فيحجز الإنسان عن ارتكاب المحرمات. فالخوف من الله هو الذي منع ابن آدم من أن يقتل أخاه عندما همّ بقتله كما في قوله تعالى: ﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ (5).

إذن الخوف من الله شجرة طيبة إذا نبت أصلها في القلب امتدت فروعها إلى الجوارح فأنت أكلها بإذن ربها وأثمرت عملاً صالحاً وقولاً حسناً وسلوكاً قوياً. وهو سمة المؤمنين وآية المتقين وديدن العارفين وسبب للسعادة في الدارين فالخوف من الله ((من أفضل الفضائل النفسانية، إذ فضيلة الشيء بقدر إعانتة على السعادة، ولا سعادة كسعادة لقاء الله والقرب منه والوصول إليه، ولا يتم ذلك إلا بتحصيل محبته والأنس به، ولا يحصل ذلك إلا بالمعرفة، ولا تحصل المعرفة إلا بدوام الفكر ولا يحصل الأنس إلا بالمحبة ودوام الذكر، ولا تتيسر المواظبة على الفكر والذكر إلا بانقلاع حب الدنيا من القلب، ولا ينقلع ذلك إلا بقمع لذاتها وشهواتها، وأقوى ما تنقمع به الشهوة، هو نار الخوف، فالخوف هو النار المحرقة للشهوات فإذا فضيلته بقدر ما يحرق من الشهوات ويبعد عن المعاصي ويحث على الطاعات)) (1).

فإن الخوف من الله تعالى له ثمرات عظيمة في الدنيا والآخرة فمن ثمراته في الدنيا: أن الخوف سبب من أسباب التمكين في الأرض قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ* وَلَنُسْكِنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدٌ﴾ (2) فالخوف من الله يؤدي إلى التمكين في الأرض والانتصار على الأعداء وإهلاكهم وميراث المؤمنين أرضهم وديارهم (3). والخوف من الله يبعث على العمل الصالح والإخلاص لله فيه وعدم طلب المقابل من البشر قال تعالى: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَ لَا شُكُوراً* إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ (4).

وأما في الآخرة ، فيثمر أمناً وبشراً وسروراً وذلك يتجسد في قوله تعالى بعد ذلك: ﴿فَوْقَاهُمْ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ (5). ويكون سبباً في الحصول على الجنة والجنات الكثيرة قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَ نَهَى النَّفْسَ عَنِ

(4) سورة آل عمران: 175 .

(5) سورة المائدة: 28 .

(1) جامع السعادات : 178/1 .

(2) سورة إبراهيم: 13 - 14 .

(3) ينظر: مجمع البيان في تفسير القرآن، الشيخ أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي، تصحيح وتعليق: السيد هاشم الرسولي المحلاتي، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ط1، 1412هـ-1992م: 398/ 6 .

(4) سورة الإنسان : 9 - 10 .

(5) سورة الإنسان : 11 .

الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴿٦﴾ .
 وقوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ﴾ (٧) . وقوله تعالى: ﴿جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ مَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ (٨) . وقد جمع الله للخائفين الهدى والرحمة والعلم والرضوان وهي مجامع مقامات أهل الجنان كما في قوله تعالى: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ (٩)
 وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ (١) .
 وقوله تعالى: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ (٢) .
 فلما في الخوف من الله من آثار إيجابية وثمرات طيبة يريد الله عز وجل من عباده أن يخشوه ويخافوه وذلك إما عن طريق الأمر مباشرة كما في قوله تعالى: ﴿وَأَخَافُونَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٣) .
 وقوله تعالى: ﴿فَإِيَّايَ فَارْهَبُونَ﴾ (٤) .
 وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ﴾ (٥) .
 أو عن طريق غير مباشر وذلك في الآيات التي تصف لنا شدة عذاب الله وقوة بطشه وسرعة أخذه وأليم عقابه وما أعد من العذاب والتكال للكفار وكذلك الآيات التي تصف لنا النار وأحوالها وما فيها من الزقوم والضريع والحميم والسلاسل والأغلال وهذا ما يخوف ويرفع العباد فيدفعهم للارتداع عن المعاصي والسير في طريق الهدى فلا يضلوا عنه .
 وهناك خوف من الله تعالى في القرآن الكريم ليس من البشر فحسب ، وإنما من الطبيعة أيضاً كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ الْجِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ (٦) .
 وقوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْنَاهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (٧) .
 وهناك خوف الملائكة من الله وذلك في قوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ (٨) .
 فخوفهم ليس خوف مؤاخذه وعذاب وإنما ((هو خوف مهابة وإجلال بمعنى تأثر الضعيف من القوي وانكسار الصغير الحقيقير قبالة العظيم الكبير الظاهر عليه بعظمته وكبريائه)) (١) .

(٦) سورة النازعات : 40 - 41 .

(٧) سورة الرحمن : 46 .

(٨) سورة البينة : 8 .

(٩) سورة الأعراف : 154 .

(١) سورة فاطر : 28 .

(٢) سورة البينة : 8 .

(٣) سورة آل عمران : 175 .

(٤) سورة البقرة : 40 .

(٥) سورة المائدة : 3 .

(٦) سورة البقرة : 74 .

(٧) سورة الحشر : 21 .

(٨) سورة النحل : 49 - 50 .

(١) الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ط2، 1393هـ - 1973م : 12 / 268 .

فمخافتهم مما يشاهدون ويعرفون من مقام ربهم فهو الكبير المتعالى العزيز القوي العظيم وما عبده إلا الصغير الذليل الذي لا حول له ولا قوة.

أما الشيطان فهو يعرف الله تعالى ، ولكنه استكبر ولم يمتثل لما أمره الله تعالى بالسجود لأدم وعصاه، وبقي يعصى الله تعالى في إغوائه للبشر والانحراف بهم عن طريق الحق إلى يوم يبعثون، فادعأؤه الخوف من الله إنما هو كذب لا حقيقة ؛ لأنه لا يُعد خائفاً من يعصى الله دائماً ويُصر على الذنوب.

وخوف الشيطان هذا ورد في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ (2)

وهذا مثل للمنافقين في دعوتهم بني النضير إلى مخالفة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ووعدهم النصر ثم الغدر بهم وخلف الوعد كمثل هذا الشيطان في دعوة الإنسان إلى الكفر بمواعيده الكاذبة⁽³⁾، ثم تبرأه منه بعد الكفر قائلاً: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ وخوفه هذا كذب لا حقيقة وهو نوع من الاستهزاء⁽⁴⁾.

وقد يكون خوف الشيطان في قوله تعالى: ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ خوفاً جدياً على تأويل أن المراد من هذا المثل مثل استغواؤه قريشاً يوم بدر⁽⁵⁾ ، وقوله لهم: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَ إِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ وَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَ اللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (6)

وعلى هذا فخوفه حقيقي ؛ لأنه كان يخاف تعذيب الملائكة النازلين لنصرة المؤمنين في بدر⁽¹⁾.

فهو يعرف (أن الله شديد العقاب) ، فالخوف منه تعالى يأتي من المعرفة به سبحانه، والإنسان إذا عرف أن الأمر كله بيد الله وليس لغيره من الأمر في شيء، ولا يقوى غيره تعالى على عمل خير أو شر أو نفع أو ضرر إلا بحول منه تعالى وقوة ، فلا ينبغي أن يخاف إلا من الله عز وجل.

والمنافقون بسبب جهلهم وعدم فهمهم ومعرفتهم بالله يرهبون المسلمين أشد مما يرهبون الله وذلك في قوله تعالى: ﴿لَا تَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ﴾ (2).

وهذا تعبير عن جنبهم وخوفهم من المسلمين، فبسبب خوفهم ورهبتهم لا يقاومون المسلمين إذا قاتلوهم ولا يثبتون أمامهم وتعليل ذلك في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ (3) أي لا يعرفون أن الأمر كله بيد الله فلا ينبغي أن يخاف إلا منه تعالى.

وخوف المنافقين ورد في القرآن الكريم في عدة مواضع.

قال تعالى: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ (4).

(2) سورة الحشر : 16 .

(3) ينظر: مجمع البيان : 9 / 335 .

(4) ينظر: الميزان في تفسير القرآن : 214/19 .

(5) ينظر: الكشاف عن حقائق التنزيل وعلوم الأقاويل في وجوه التأويل، جار الله الزمخشري، تح: خليل

مأمون شبحا، دار المعرفة، بيروت، ط 1، 1423 هـ - 2002م : 1096 .

(6) سورة الأنفال : 45 .

(1) ينظر: الميزان في تفسير القرآن : 19 / 214 .

(2) سورة الحشر : 13 .

(3) سورة الحشر : 13 .

فقد وصفهم الله تعالى بالخور والهلع، أي يظنون كل صيحة يسمعونها كائنة عليهم والمعنى يحسبون أنها مهلكتهم وأنهم المقصودون بها جبناً ووجلاً وقيل : معناه إذا سمعوا صيحة ظنوا أنها آية مُنزلة في شأنهم تكشف عن حالهم (5)، فهم يخافون أن ينكشف أمرهم بين الناس فيزول ما خططوا له من مكاسب، وقد يفقدون حياتهم ، فالمنافقون شديداً الحرص على الحياة التي نافقوا من أجلها وينبغي أن نعرف أن الخوف الذي يطبع المنافقين ليس خوفاً عادياً بل هو خوف مركب: أحدهما الخوف الذي يطبع سائر المضطربين نفسياً والآخر هو الخوف الخاص الذي يطبع (النفعيين) الذين يقوم سلوكهم أساساً على جلب المنفعة لذواتهم ، فهم من أجل (المنفعة الشخصية) يختارون سلوك النفاق حيث يبتغون الكفر ويظهرون الإيمان حفاظاً عليها (1).

وهناك أنواع أخرى من الخوف في القرآن الكريم، منها الخوف لأسباب اقتصادية كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾ (2)

فالله تعالى نهى هؤلاء عن قتل أولادهم خوفاً من الفقر والحاجة، وهم في الحقيقة غير واقعين في الفقر وإنما يخشون الوقوع فيه ، لذلك وعدهم الله برزق أبنائهم ورزقهم ((نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ)). ثم أخبرهم تعالى عن قتل الأولاد ((إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا)).

ومن هذا الخوف ما جاء في قوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾ (3)

فالله عز وجل خاطب نبيه محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) أن يقول لهؤلاء الكفار الذين قالوا له لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً، لو ملكتم خزائن أرزاق الله ومقدوراته أي ما يقدر عليه ربي من النعم لأمسكتم عن الإنفاق خشية الفقر و الفعل أَمْسَكْتُمْ لا يُقَدَّرُ له مفعول ؛ لأن معناه بخلتم من قولك للبخیل ممسك (4). ((وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا)) أي بخیلاً

وظاهر هذا القول العموم، ونحن نعلم أن من الناس الجواد فالوجه فيه أحد أمرين: إما أن يكون الأغلب عليهم من ليس بجواد فجاز الإطلاق تغليياً للأكثر ، أو إن ما يعطيه الإنسان وإن عُدَّ جواداً بخلٌ في جنب ما يعطيه الله سبحانه وتعالى ؛ لأن الإنسان إنما يعطي ما يَفْضُلُ عن حاجته ويُمسِكُ بما يحتاج والله سبحانه لا تجوز عليه الحاجة فهو يفيض بالنعم على المطيع و العاصي إفاضة من لا يخاف الحاجة (1).

(4) سورة المنافقين : 4 .

(5) ينظر : مجمع البيان : 371/10.

(1) ينظر: دراسات فنية في صورة القرآن، د. محمود البستاني، مؤسسة الطبع التابعة للإستانة الرضوية المقدسة، مشهد، إيران، 1421 هـ: 520 .

(2) سورة الإسراء : 31 .

(3) سورة الإسراء : 100 .

(4) ينظر: الكشاف : 609 ، ومجمع البيان : 6 / 572.

(1) ينظر: مجمع البيان : 6 / 572 .

وقد يكون الخوف لأسباب اجتماعية كما في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (2).

وقوله تعالى: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَاِمْسَاكِ بِمَعْرِوْفٍ أَوْ تَسْرِيحٍ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَجِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْنَاهُمْ شَيْنًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (3).

وقوله تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِنَفْسِ اللَّهِ وَ اللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَ اهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَ اضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا﴾ (4).

وقوله تعالى: ﴿وَ إِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَ الصُّلْحُ خَيْرٌ وَ أَحْضَرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَ إِنْ تَحْسَبُوا وَ تَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ (5).

وقال تعالى: ﴿وَ إِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَ ثَلَاثَ وَ رُبَاعَ﴾ (6). وقوله تعالى: ﴿وَ إِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا﴾ (7).

والخوف هنا بمعنى العلم والظن واليقين.

ورد في الكشف في قوله تعالى: ((فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا)) فمن خاف أي فمن توقع وعلم وهذا في كلامهم شائع يقولون: أخاف أن ترسل السماء يريدون التوقع والظن الجاري مجرى العلم (8).

(2) سورة البقرة: 182 .

(3) سورة البقرة: 229 .

(4) سورة النساء: 34 .

(5) سورة النساء: 128 .

(6) سورة النساء: 3 .

(7) سورة النساء: 35 .

(8) ينظر : الكشف: 111 .

وفي مجمع البيان «فمن خاف» ((قيل : علم لأن في الخوف طرفاً من العلم ؛ وذلك أن القائل إذا قال : أخاف أن يقع أمر كذا فكأنه يقول : أعلم))⁽¹⁾. وفي الجامع لأحكام القرآن ((فمن خاف قيل : علم))⁽²⁾. أمّا في قوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ أي يعلمان أنّهما لا يقيمان حدود الله⁽³⁾. وقد يكون بمعنى الظن أي ((ظننتم أن لا يكون بينهما إصلاح في المقام))⁽⁴⁾. وفي قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُفْسِدُوا﴾ أي فإن علمتم أنّكم لا تعدلون⁽⁵⁾. وفي قوله تعالى: ﴿وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾ أي واللاتي تعلمون نشوزهن⁽⁶⁾. وفي قوله تعالى: ﴿وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا﴾ أي علمت وقيل : ظننت⁽⁷⁾. وقد يكون الخوف بمعنى اليقين وذلك عند أبي عبيدة في قوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ معناه ألا يوقنا وفي الآية نفسها «فإن خفتهم» يعني فإن أيقنتم⁽⁸⁾. وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُفْسِدُوا﴾ وقوله تعالى : ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا﴾ أي إن أيقنتم⁽⁹⁾.

وهذه الآيات - مورد البحث - تناولت موضوعاً اجتماعياً تترتب عليه أحكام شرعية مثل موضوع الوصية وأحكامها أو الطلاق وأحكامه أو الزواج بأكثر من واحدة وأحكامه من نشوز وإعراض، وهذه الموضوعات لا تقبل غير العلم واليقين وهنا تكمن لطافة المعنى، إذ إنّ حمل الخوف على العلم الغرض منه جمع معنيين في لفظ واحد إذ المقصود في ذلك الخوف بالعلم واليقين أو العلم المشوب بالخوف والحذر، وتلك سمة من سمات التعبير القرآني غرضها الاتساع في المعنى⁽¹⁾. ومن أنواع الخوف في القرآن الكريم، الخوف من التغيرات في الطبيعة وذلك في الآيات التي تحدثت عن الانقلاب الكوني الذي يحدث في نهاية هذا العالم وبدء البعث والنشور. قال تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا * وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا * وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا﴾⁽²⁾.

(1) مجمع البيان : 346/1 .

(2) الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي ، تح : عماد زكي البارودي وخيري سعيد ، المكتبة التوفيقية ، القاهرة : 239 / 2 .

(3) ينظر: تفسير غريب القرآن، عبد الله بن مسلم بن قتيبة ، تح: أحمد صقر، دار إحياء الكتب العربية، 1958م: 88.

(4) مجمع البيان : 426/2 .

(5) ينظر: تفسير غريب القرآن : 114 .

(6) ينظر: جامع البيان من تأويل آي القرآن، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 1421 هـ - 2001م : 75/5 ، و مجمع البيان : 3 / 58 .

(7) ينظر: مجمع البيان : 150/3 .

(8) ينظر: مجاز القرآن، أبو عبيدة معمر بن المثنى التميمي ، تح : أحمد فريد المزيدي : دار الكتب العلمية، بيروت ، ط1 ، 1427 هـ - 2006م : 41 .

(9) ينظر: م . ن : 55 - 59 .

(1) ينظر: الخوف في القرآن الكريم ألفاظه وسياقاته (دراسة لغوية)، أطروحة دكتوراه، أحمد جواد العتابي، كلية التربية، الجامعة المستنصرية، 1421 هـ - 2001م : 309 .

(2) سورة الزلزلة : 1-3 .

والزلازلة شدة الاضطراب ... أي إذا حُرِّكت الأرض تحريكاً شديداً لقيام الساعة ، وفي إضافته إلى الأرض يعني (زلزالها) الذي كُتِبَ عليها ، أو أنه يَعْمُ جميع الأرض بخلاف الزلازل المعهودة التي تختص ببعض الأرض ، فالأرض جميعها تهتز في ذلك اليوم فيكون قوله (زلزالها) تنبيهاً على شدة هذه الزلازلة⁽³⁾.

وقيل: إضافتها – أي الزلازلة – للأرض تفيد الاختصاص والمعنى إذا زلزلت الأرض زلزلتها الخاصة بها فتفيد التعظيم والتفخيم أي إنها منتهية في الشدة والهول⁽⁴⁾.

((وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا)) أي أخرجت الموتى المدفونين فيها أحياء للجزاء .

وقيل : معناه لَفُظَتْ ما فيها من كنوزٍ ومعادن فتُلْقِيها على ظهرها ليراها الناس فتبعث الحسرة في قلوب العصاة إذا نظروا إليها ؛ لأنهم عصوا الله فيها ثم تركوها لا تعني عنهم شيئاً⁽⁵⁾. ويحتمل أن يكون المقصود من ذلك إخراج المواد الثقيلة الذائبة في باطن الأرض وهو ما يحدث في أثناء البراكين والزلازل فإن الأرض في نهاية عمرها تدفع ما في أعماقها إلى الخارج على أثر ذلك الزلزال العظيم ويمكن الجمع بين ذلك⁽⁶⁾.

و في وسط هذه الأحوال المفزعة والتغير في الطبيعة يقف الإنسان في دهشة وعجب ويقول في ذعر ((وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا))

والظاهر أن الإنسان هنا له معنى عام يشمل كل أفراد البشر⁽¹⁾.

وهذه الآيات التي تُخبر عن أحوال القيامة ترهب وتخوف عباد الله فقد جاءت في سياق إذا ((وسياق إذا) يكون فيه معنى الخوف أشد وأعنف من سياق الظرف (اليوم))⁽²⁾.

فيقودهم هذا الخوف إلى طاعة الله.

وقد ورد هذا الخوف في مواضع أخرى في القرآن الكريم كما في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ * وَخَسَفَ الْقَمَرُ * وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ * يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ﴾⁽³⁾.

وقال تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ * وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ * وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ * وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾⁽⁴⁾.

أما الخوف من الموت فقد ورد في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾⁽⁵⁾.

(3) ينظر: مجمع البيان : 672/10 .

(4) ينظر: الميزان في تفسير القرآن : 342/20.

(5) ينظر: مجمع البيان : 672/10 .

(6) ينظر: الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل ، الشيخ ناصر مكارم شيرازي ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت، ط1، 2007م: 461/15 .

(1) ينظر : الأمثل : 461/15 .

(2) الخوف في القرآن الكريم ألفاظه وسياقاته: 402 .

(3) سورة القيامة : 7 – 10 .

(4) سورة الانفطار : 4 – 10 .

(5) سورة البقرة : 24 .

و(حذر الموت) أي من خوف الموت⁽⁶⁾. قيل : هم قوم فرّوا من طاعونٍ وقع بأرضهم أملاً في النجاة من مخالِب الموت، وإذا ما نجوا من هذا الوباء شعروا في أنفسهم بشيء من القدرة والاستقلالية وحسبوا أن نجاتهم نتيجة عوامل طبيعية غافلين عن إرادة الله ومشيتته فأماتهم الله في تلك الصحراء بالمرض نفسه.

وقيل : إنّ ملكاً من ملوك بني إسرائيل أمر قومه أن يخرجوا لقتال عدوهم فخرجوا فعسكروا ثم جبنوا وكرهوا الموت فاعتلوا وقالوا إنّ الأرض التي نأتيها بها الوباء فلا نأتيها حتى ينقطع منها الوباء فابتلاهم الله بما كانوا يخشونه ويفرون منه فانتشر بينهم مرض الطاعون، فهجروا بيوتهم وهربوا من المرض إلى خارج المدينة حيث أنشب المرض مخالِبهم فيهم وماتوا ومضى زمان على هذا حتى مرَّ يوماً حزقيل (عليه السلام) أحد أنبياء بني إسرائيل بذلك المكان ودعا الله أن يحييهم فاستجاب الله دعاءه وأحياهم⁽¹⁾. فالتهّرب من المسؤولية بالأعذار والحجج الواهية لا يجعل الإنسان في مأمن من الخطر فهو أعجز من أن يقف أمام قدرة الله تعالى ونفوذ أمره، هذه القدرة البالغة التي دلّ عليها قوله تعالى : ((فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ)) حيث جاء الفعل (موتوا) بالصيغة الأمرية. فالخوف من الموت لا ينفع في شيء، وما ذكّر من قصة هؤلاء القوم يشجّع الإنسان على طاعة الله ويبعده عن المعصية ويزيل خوف الموت من قلبه⁽²⁾.

وقد يأتي الخوف في القرآن الكريم ابتلاءً واختباراً للعباد وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾⁽³⁾ والخطاب لأصحاب النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) والبلاء الاختبار أي لنختبركم بشيء من الخوف وشيء من الجوع وشيء من نقص الأموال، وإنّما عرفّهم سبحانه ذلك ليوطنوا أنفسهم على المكاره التي تلحقهم في نصرة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لما لهم في ذلك من المصلحة، وأما سبب الخوف فكان قصد المشركين لهم بالعداوة⁽⁴⁾. (وبشر الصابرين) على تلك المشاق والمكاره بأنّ لهم الثواب الجزيل والعاقبة الحسنة . وقد يكون الخوف في القرآن الكريم نقمةً وعذاباً لمن يكفر بنعمه تعالى كما في قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾⁽⁵⁾ فالله جل وعلا أذاقهم لباس الجوع والخوف بعد الأمن والطمأنينة والرزق الوفير بسبب كفرانهم و جحودهم بنعم الله وهذا ما عبّر عنه قوله تعالى : ((بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)) فسنة المجازاة على الشكر والكفران قائمة فهم الذين قدّموا لأنفسهم هذه العاقبة. وليس الخوف عند الإنسان يحدث في هذه النشأة - أي في الدنيا - فحسب بل هناك خوف يكون في الآخرة بسبب الأهوال والشدائد التي تكون فيها.

⁽⁶⁾ ينظر : مجمع البيان : 447/2 .

⁽¹⁾ ينظر: مجمع البيان : 448/2 والأمثل : 2 / 51.

⁽²⁾ ينظر : التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، فخر الدين الرازي، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان ،

1423هـ - 2002م : 177/6 .

⁽³⁾ سورة البقرة : 155 .

⁽⁴⁾ ينظر: مجمع البيان : 305/1 .

⁽⁵⁾ سورة النحل : 112 .

ولا فرق في ذلك بين مؤمن وكافر إلا من شمله الله سبحانه بأمنه قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوُّهُ دَاخِرِينَ﴾ (1)

وقد استثنى الله جمعاً من عباده من حكم الفزع والخوف الشامل لمن في السماوات والأرض ، وهم الملائكة الذين يُنَبِّتُ الله قلوبهم وهم جبرائيل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل وقيل : يعني الشهداء بأنهم لا يفزعون في ذلك اليوم (2).

أو هم الذين على ولاية الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام)، قال تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ﴾ (3)

فقد فسرت الحسنة بالولاية التي هي عبادته تعالى من طريق المحبة الموجبة لفناء إرادة العبد في إرادته وتوليه تعالى نفسه أمر عبده وتصرفه فيه وهذا أحد معنيي ولاية علي (عليه السلام) فهو صاحب الولاية وأول فاتح لهذا الباب من الأمة من بعد الرسول (4).

فقد كان (عليه السلام) يعبد الله حباً له ؛ لأنه أهل للعبادة وتلك عبادة الكرام. ولكن كل من في السماوات والأرض حتى هؤلاء المستثنين من حكم لفزع يرجعون ويحضرون عنده تعالى (5) دلّ على ذلك قوله تعالى: ((وَكُلُّ أَتَوُّهُ دَاخِرِينَ)).

وللكافرين والظالمين والمنحرفين النصيب الأكبر من الخوف في الآخرة بسبب أهوال القيامة وشدائده ؛ لأنه يوم عسير عليهم.

قال تعالى: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ * فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ * عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ (1).

فهم لم يخافوا الله في الدنيا بالإيمان والعمل الصالح، بل سلكوا طرق الضلال المختلفة وانحرفوا عن طريق الحق والعدل فهم غير آمنين من عذاب الله يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ * مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُؤُسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ (2)

فـ (شخوص الأبصار) و (الإهطاع) و (إقناع الرؤوس) و (الأفئدة هواء) مشاهد يتلو بعضها بعضاً في الاستعراض تتم بها صورة شاخصة للخيال ، صورة فريدة للفزع والخجل والرغبة والاستسلام يُجلّلها ظلٌ كئيب ساهم بكمد الأنفاس ، فإذا قرأها القارئ أخذته رعدة الهول (3).

طرائق التعبير عن الخوف في القرآن الكريم

إنّ الخوف في القرآن الكريم إما أن يكون التعبير عنه صراحةً وذلك بالألفاظ الخاصة بهذا المعنى أو أن يكون ضمناً بالألفاظ وتراكيب تصوّر الخوف أو تثيره في نفس المتلقي من حدثٍ معين.

(1) سورة النمل : 87 .

(2) ينظر: مجمع البيان : 306/7 .

(3) سورة النمل : 89 .

(4) ينظر: الميزان في تفسير القرآن : 15 / 407 .

(5) ينظر: من 400/15 .

(1) سورة المدثر : 8 - 10 .

(2) سورة إبراهيم : 42 - 43 .

(3) ينظر: التصوير الفني في القرآن، سيد قطب، دار المعارف، مصر : 50.

فمن الألفاظ التي تعبر عن الخوف صراحة:

1- خاف

والخوف هو ((توقع مكروه من أماره مظنونة أو معلومة وضده الأمن))⁽⁴⁾ كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾⁽⁵⁾ والآية جاءت في سياق قرآني يبحث الخطوط الرئيسة لمناهج عباد الله الحقيقيين المخلصين والخوف من عقاب الله عز وجل يوم القيامة هو أحدها. فرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) هو عبدٌ من عباد الله وهو مكلف بعبادة الله بإخلاص وإطاعة الأوامر الإلهية، وإنه يخاف العذاب الإلهي إن عصى ربه. فلا أحد يُستثنى من القوانين الإلهية، فيجب على المسلم أن لا يأمن عذاب الله إن عصاه وأن يبقى على خوف دائم منه ليبقيه هذا الخوف في دائرة الطاعة ويبعده عن المعصية.

2- خشي

والخشية هي خوفٌ يشوبه تعظيم وأكثر ما يكون ذلك عن علم بما يخشى منه ؛ ولذلك خص العلماء بها⁽¹⁾.

كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾⁽²⁾ فالعلماء من بين جميع العباد قد نالوا هذا المقام الرفيع من الخشية وهو الخوف من المسؤولية والمتوافق مع إدراك لعظمة الله سبحانه، وقد تولدت هذه الخشية نتيجة سبر أغوار الآيات الأفاقية والأنفسية والتعرف على حقيقة علم الله وقدرته وغاية الخلق⁽³⁾. والمراد بالعلماء هم ((العلماء بالله وهم الذين يعرفون الله سبحانه بأسمائه وصفاته وأفعاله معرفة تامة فتطمئن بها قلوبهم وتزول وصمة الشك والقلق عن نفوسهم وتظهر آثارها في أعمالهم فيصدق قولهم فعلهم))⁽⁴⁾.

فالعلم بدون عمل دليل على عدم الخشية وهذه الحقيقة وردت في رواية عن الإمام زين العابدين علي بن الحسين (عليهما السلام) يقول فيها: ((وما العلم بالله والعمل إلا إلفان مؤتلفان فمن عرف الله خافه وحثه الخوف على العمل بطاعة الله وإن أرباب العلم وأتباعهم (هم) الذين عرفوا الله فعملوا له ورغبوا إليه وقد قال الله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾))⁽⁵⁾

ونهاية النص المبارك تفيد معنى التعليل، فلعزته تعالى وكونه قاهراً غير مقهور وغالباً غير مغلوب من كل جهة يخشاه العارفون، وكونه كثير المغفرة للآثام والخطايا يؤمنون به ويتقربون إليه ويشتاقون إلى لقائه⁽¹⁾.

(4) مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، تج: صفوان عدنان داوودي، نشر طليعة النور، قم، ط2،

1427 هـ : مادة خوف .

(5) سورة الزمر : 13 .

(1) ينظر: مفردات ألفاظ القرآن: مادة خشي .

(2) سورة فاطر : 28 .

(3) ينظر: الأمثل : 63/11 .

(4) الميزان : 43/17 .

(5) تحف العقول عن آل الرسول، الشيخ أبو محمد الحسن بن علي الحراني، مؤسسة الاعلمي للمطبوعات،

بيروت، ط 6، 1417 هـ - 1996 م : 181 .

(1) ينظر: الميزان في تفسير القرآن : 43/17 .

فعبادُ الله بهذين الأسمين المقدسين بين الخوف والرجاء ونحن نعلم بأنّه لا يمكن إدامة الحركة نحو التكامل بدون الاتصاف بهما – أي الخوف والرجاء – بشكل متكافئ.

وقول الله عز وجل في موضع آخر في القرآن الكريم يعبر عن هذا المعنى قال تعالى: ﴿وَأَزَلَّتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ * هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ * مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَ جَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾ (2)

والرَّحْمَنُ مفعول الفعل (خشي) وبذكره واقتترانه به أي بالفعل خشي تعليل لطيف ذكره الزمخشري ؛ ((للتناء البليغ على الخاشي وهو خشيته مع علمه أنّه واسع الرحمة كما أثنى عليه بأنّه خاشٍ مع أنّ المخشي منه غائب)) (3).

أما فخر الدين الرازي فيقول: ((وقوله (من خشي الرحمن) فيه لطيفة وهو أنّ الرحمة ثورت الاتكال والرجاء فقال مع أنّه رحمن رحيم فالعقل لا ينبغي أن يترك الخشية ... يعني ومع كونه ذا رحمة لا تأمنوه)) (4).

فالقرآن الكريم حرّص على إقرار مبدأ التوازن بين الأثر النفسي للخوف والرجاء في نفس الإنسان المؤمن لئلا يطغى أحدهما على الآخر ، فإذا طغى الخوف على شخصية الإنسان أدّى إلى اهتزاز الشخصية والشعور المستمر بالقلق والألم والانقباض فتتحول حياته إلى شقاء وعدم الثقة بكل فعل يُقدّم عليه.

وإذا ما طغى الرجاء على الإنسان ترى الكسل والوهم يستبدان به فيتوانى عن العمل والجدّ والعطاء. فالإنسان المؤمن إذا رجا الخير كلّ من ربه وخاف الخوف كلّ من خالقه نراه يرتبط بهذا الوعي ارتباطاً نفسياً وسلوكياً بالله سبحانه (5) ، قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ (1).

3- رَجَا

يُعدّ الرجاء في الاستعمال القرآني من ألفاظ الخوف، فعند الفراء لا يكون الرجاء بمعنى الخوف إلا إذا كان مسبقاً بالنفي ، إذ يقول : ((ولم نجد معنى الخوف يكون رجاءً إلا ومعه جدّ فإذا كان كذلك كان الخوف على جهة الرجاء والخوف ، وكان الرجاء كذلك)) (2)، فلا يجوز أن تقول رجوتك وأنت تريد: خِفْتُكَ ولا خِفْتُكَ وأنت تريد رَجَوْتُكَ وهذه لغة مجازية (3) .

أمّا عند أبي عبيدة فيكون – أي الرجاء – بمعنى الخوف مطلقاً إذ لا يشترط معه نفيّاً فقد عدّ الرجاء بمعنى الخوف في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ (4) وهو منفي (5) وكذلك في قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ﴾ (6) ولم يسبق بنفي (7).

(2) سورة ق : 32 – 33 .

(3) الكشاف : 1047 .

(4) التفسير الكبير : 47 / 26 .

(5) ينظر : الخوف والرجاء : 15-16 .

(1) سورة الإسراء : 57 .

(2) معاني القرآن، أبو زكريا الفراء، تح: أحمد يوسف نجاتي، ومحمد علي النجار، مطبعة دار الكتب والوثائق

القومية، القاهرة، ط3، 1422 هـ - 2002 م : 3 / 188 .

(3) ينظر: م. 286/1 .

(4) سورة يونس : 7 .

ومثله عند الطبري فالرجاء بمعنى الخوف مطلقاً سواء أسبق بنفي أم لم يسبق ففي قوله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ (8) يقول: ((فمن يخاف ربّه يوم القيامة)) (9). ولم يسبق الفعل (يرجو) بنفي، إلا أنّه ينبّه على أنّ صَرَفَ الرجاء بمعنى الخوف غير معروف في كلام العرب إلا مع نفي سابق له (10). وعند الطبرسي يأتي الرجاء بمعنى الاحتمال إذ يقول في تفسير قوله تعالى: ((وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ)) (11) ((والرجاء قد يستعمل بمعنى الخوف ... وإنّما استعمل على معنى الخوف ؛ لأنّ الرجاء أمل وقد يُخاف ألا يتم)) (1). وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ (2) يقول: ((ويحتمل أن يكون المعنى لا يخافون عقابنا كما يكون الرجاء بمعنى الخوف)) (3). وفي قوله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ أي فمن كان يطمع في لقاء ثواب ربّه و يأمله ويقرّ بالبعث إليه والوقوف بين يديه وقيل: معناه فمن كان يخشى لقاء عقاب ربّه وقيل: إنّ الرجاء يشتمل على كلا المعنيين الخوف والأمل وأنشد في ذلك قول الشاعر (4):
فلا كل ما ترجو من الخير كائن ولا كل ما ترجو من الشر واقع
أمّا عند اللغويين فيفهم من كلام الخليل أنّ الرجاء يفيد معنى الخوف ، إذ يقول في قوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً﴾ (5) أي لا تخافون (6). أمّا الأصفهاني فيعلل حمل الرجاء على معنى الخوف بقوله: ((ووجه ذلك أنّ الرجاء والخوف متلازمان)) (7). أمّا عند ابن منظور ((فقد يكون الرجاء بمعنى الخوف وعن ابن سيده والرجاء الخوف)) (8) وهو يذكر – أي ابن منظور – قول الفراء وشرط النفي ويذكر الآيات التي ورد فيها الرجاء بمعنى الخوف (9). ونفهم من ذلك أنّ الرجاء جاء بمعنى الخوف في الاستعمال القرآني واللغوي سواء أسبق بنفي أم لم يسبق ولا يتحقق ذلك خارج التركيب والسياق.

(5) ينظر: مجاز القرآن : 108 .

(6) سورة العنكبوت : 5 .

(7) ينظر: مجاز القرآن : 210 .

(8) سورة الكهف : 110 .

(9) جامع البيان : 48 / 16 .

(10) ينظر: جامع البيان : 264/5 .

(11) سورة النساء : 104 .

(1) مجمع البيان: 3 / 131 .

(2) سورة يونس: 7 .

(3) مجمع البيان: 119/5 .

(4) ينظر: مجمع البيان : 645/6 .

(5) سورة نوح: 13 .

(6) ينظر: كتاب العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي، تح: د. مهدي المخزومي و د. إبراهيم السامرائي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ط1، 1408 هـ - 1988م: مادة رجا .

(7) مفردات ألفاظ القرآن: مادة رجا.

(8) لسان العرب ، ابن منظور الأنصاري، تح: عامر أحمد، دار الكتب العلمية ، بيروت، ط1422، 1هـ-

2002م: مادة رجا .

(9) ينظر: لسان العرب: مادة رجا .

ففي قوله تعالى: ﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحاً﴾⁽¹⁾ لا يمكن حمل الرجاء على الخوف إذ السياق والتركيب يبييان ذلك ، ولذلك فهو بمعنى الطمع جاء في الكشف ((اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحاً﴾ أي لا يطمعن فيه))⁽²⁾.

4- وَجَلَّ

وَالْوَجَلُ هو استشعار الخوف يقال وَجَلَّ يُوجَلُّ وَجَلًّا⁽³⁾، ورد مسنداً إلى لفظة ((القلوب)) كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾⁽⁴⁾ أي خافت تعظيماً له ، وذلك إذا ذُكِرَ عندهم عقوبته وعدله ووعيده على المعاصي بالعقاب و اقتداره عليه... فالوجل الخوف مع شدة الحزن⁽⁵⁾. وقوله تعالى: ﴿وَنَبِّئُهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَاماً قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ * قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾⁽⁶⁾. والمراد بـ (ضيف إبراهيم) هم الملائكة المُكْرَمُونَ الذين أرسلهم الله سبحانه وتعالى لبشارة نبيه إبراهيم (عليه السلام) بالولد ولهلاك قوم لوط (عليه السلام)، وسموا ضيوفاً ؛ لأنهم جاؤوا على هيئة الضيوف⁽⁷⁾.

إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً قال إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ، أي خائفون، وإِنَّمَا قال نبي الله ذلك بعد ما قام بإكرامهم حيث هيا لهم طعاماً ووضعهم أمامهم إلا أنهم لم يدنوا إليه ولم يأكلوا منه فاستغرب من موقفهم وعبر عما جال في خاطره ، وكان مصدر خوف إبراهيم عليه السلام مما كان متعارفاً في مسألة رد الطعام أو عدم التقرب منه، فهو عندهم إشارة إلى وجود نية سوء أو علامة عداوة⁽⁸⁾ ، فقالت له الملائكة: ((لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ))

5- فَزَعَ

ترتبط دلالة هذا اللفظ بالحرف الذي يتعدى به، فإذا تعدى بـ (عن) كان بمعنى أَمِنَ يقول الطبري في قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾⁽¹⁾ أي حتى إذا جُلِيَ عن قلوبهم وكُشِفَ عنها الفزع وذهب⁽²⁾.

أما إذا تعدى بـ (من) كان بمعنى خاف، جاء في اللسان ((الفزع الفَرَق من الشيء وهو في الأصل مصدر فزع منه))⁽³⁾.

وهذه الدلالة هي مورد البحث ففيها يكون الفزع من الألفاظ التي يُعْبَرُ بها عن معنى الخوف.

قال تعالى: ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصِمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَ لَا تَشْطِطْ وَ اهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ﴾⁽⁴⁾

(1) سورة النور : 60 .

(2) الكشف: 736 ينظر: الخوف في القرآن الكريم ألفاظه وسياقاته : 328 .

(3) ينظر: مفردات ألفاظ القرآن : مادة وجل .

(4) سورة الأنفال : 8 .

(5) ينظر: مجمع البيان : 4 / 643 .

(6) سورة الحجر : 51 – 53 .

(7) ينظر: الميزان : 180/12 .

(8) ينظر: الأمثل : 6 / 632 .

(1) سورة سبأ : 23 .

(2) ينظر: جامع البيان : 22 / 89 .

(3) لسان العرب : مادة فزع .

(4) سورة ص : 22.

ففزع داود (عليه السلام) وخوفه كان بسبب دخول طرفا النزاع (الخصمان) من الطريق الغير العادي ﴿إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾⁽⁵⁾ وكذلك دخولهم عليه بغير إذن⁽⁶⁾. فظنَّ أنَّهما يَكْنَانُ له العدا، إلا أنَّهما عمدا إلى تطييب نفسه وإسكان روعه فوضَّحا هدف مجيئهما إليه ((قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ)) فاحكم بيننا بالحق وأرشدنا إلى الطريق الصحيح.

6- رَعِبَ

والرعب هو الانقطاع من امتلاء الخوف⁽⁷⁾. وهو من الألفاظ التي استعملها القرآن الكريم للتعبير عن معنى الخوف، والغالب في استعماله هذا مصاحبته للفظ (القلوب) قال تعالى: ﴿سَلِّقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾⁽¹⁾

أي ((سأرعب قلوب الذين كفروا ... وأملؤها فرقا حتى ينهزموا عنكم))⁽²⁾ وهذا الرعب الذي أصاب قلوب الأعداء فزلزل معنوياتهم كان نعمة عظيمة أنعمها الله تعالى على المجاهدين في أحد، فكان وسيلة إلهية لحفظ المؤمنين.

واستعمل الله عز وجل هذه الوسيلة أيضاً لحفظ أوليائه وهم (أصحاب الكهف) كما في قوله تعالى: ﴿وَتَحَسَّبُهُمْ أَنْفَاطًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعِيهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَ لَمَلَنْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾⁽³⁾

أي لو أشرفت عليهم ورأيتهم في كهفهم على حالتهم لفررت منهم وأعرضت عنهم هرباً ... ولمليء قلبك خوفاً وفزعاً، فالله عز وجل منعهم بالرعب لنلا يصل إليهم أحد وقيل: كانوا في مكان موحش من رآه فزع ولا يمتنع أن الكفار لما أتوا باب الكهف فزعوا من وحشة المكان فسدوا باب الكهف ليهلكوا فيه وجعل سبحانه ذلك لطفاً لنلا ينالهم مكروه من سبع وغيره وليكونوا محروسين من كل سوء⁽⁴⁾.

وقوله تعالى: ((وَلَمَلَنْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا)) هو في الحقيقة علّة لقوله تعالى: ((لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا)) ففرار الإنسان منهم بسبب الخوف الذي يملأ قلبه، فقد نفذ هذا الخوف إلى ذرات وجوده بحيث إن جميع وجود الإنسان يصاب بالوحشة والخوف⁽⁵⁾. فكان هذا الخوف وسيلة من وسائل الله سبحانه وتعالى لحفظ عباده المؤمنين.

7- رَهَبَ

وهو من الألفاظ التي تدل على معنى الخوف، والإرهاب إزعاج النفس بالخوف⁽⁶⁾. قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَ عَدُوَّكُمْ﴾⁽¹⁾

(5) سورة ص : 21 .

(6) ينظر: مجمع البيان : 8 / 606 .

(7) ينظر: مفردات ألفاظ القرآن : مادة رعب .

(1) سورة آل عمران : 151 .

(2) جامع البيان : 9 / 198 .

(3) سورة الكهف : 18 .

(4) ينظر : مجمع البيان : 6 / 590 .

(5) ينظر: الأمثل : 7 / 468 .

(6) ينظر: مجمع البيان : 4 / 686 .

أي تخوّفونهم بما أعددتهم لهم من الرجال والسلاح، فلا يفكرون بالتجاوز عليكم والعدوان. والرهبة مخافة مع تحرّز واضطراب⁽²⁾ كما في قوله تعالى: ﴿لَا تَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ﴾⁽³⁾

واستعمال الرهبة هنا مناسب لحال هؤلاء المنافقين، إذ يمكن إخفاؤها عن الآخرين وإظهار خلافها حتى يظن من يراهم أنهم ليسوا خائفين والجار والمجرور (في صدورهم) جاء ليؤكد ذلك بخلاف لو استعمل لفظ الرعب، إذ لا يمكن إخفاؤه عن الآخرين ولذلك جاء معه الجار والمجرور (في قلوبهم) فامتلاء القلوب بالرعب والخوف لا يمكن إخفاؤه بعكس الرهبة التي في الصدر⁽⁴⁾.

8- حَذَرٌ

وهو من الألفاظ التي تعبّر عن الخوف والتحرّز والتهيّؤ جاء في اللسان ((الحذر والحذر الخيفة ورجل حذر وحاذرة وحذريان متيقظ شديد الحذر والفرع متحرّز وحاذر ومتأهب))⁽⁵⁾.

وقد ورد في القرآن وهو يعبر عن هذه المعاني، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ﴾⁽⁶⁾ أي خوفاً من الموت. وفي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾⁽⁷⁾ يقول الزمخشري: ((والمعنى احذروا واحترزوا من العدو))⁽⁸⁾.

وذكر الطبرسي أنّ فيها – أي الآية – قولان (الأول) أنّ معناه احذروا عدوكم بأخذ السلاح كما يقال: للإنسان خذ حذرك أي أحذر.

و(الثاني) أنّ معناه خذوا أسلحتكم وسمّى الأسلحة حذراً؛ لأنّها الآلة التي يتقى بها الحذر... وأقول- والكلام للطبرسي – إنّ هذا القول أصح⁽¹⁾.

ولكن لفظة الحذر تدلّ على معنى واسع لا يقتصر على السلاح فقط بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أذىٌ مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ﴾⁽²⁾

أي لا بأس أن تضعوا أسلحتكم إذا ضعفتكم عن حملها، وإذا ما وضعتموها احترسوا منهم و((خذوا حذركم)) لئلا يميلوا عليكم وأنتم غافلون⁽³⁾.

(1) سورة الأنفال : 60 .

(2) ينظر: مفردات ألفاظ القرآن : مادة رهب .

(3) سورة الحشر : 13 .

(4) ينظر: الخوف في القرآن الكريم ألفاظه وسياقاته : 252 .

(5) لسان العرب : مادة حذر .

(6) سورة البقرة : 243 .

(7) سورة النساء : 71 .

(8) الكشاف : 246 .

(1) ينظر: مجمع البيان : 3 / 93 .

(2) سورة النساء : 102 .

(3) ينظر : مجمع البيان : 3 / 129 .

فأخذ الحذر لا يعني أخذ السلاح بالذات ولفظة الحذر تستوعب بمعانيها الواسعة كل أنواع الوسائل - المادية والمعنوية - الدفاعية التي يتحتم على المسلمين إتباعها لحماية أمن الأمة الإسلامية.

والأمر بالآية الكريمة أمر عام ومطلق لجميع المسلمين في كل العصور والأزمنة أن يكونوا على يقظة واستعداد دائمين لمواجهة أعداء الأمة⁽⁴⁾.

وقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنِّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوٌّ لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعَفَّوْا وَتَصَفَّحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾⁽⁵⁾.

فإن الله سبحانه وتعالى يجد في بعض الأزواج والأولاد عدواً للمؤمنين في إيمانهم، حيث يحملونهم على ترك الإيمان بالله أو ترك بعض الأعمال الصالحة أو اقتراف بعض الكبائر الموبقة وربما أطاعوهم في بعض ذلك شفقةً عليهم وحباً لهم فأمرهم الله تعالى بالحدَر منهم⁽⁶⁾، وليس كل الأولاد والأزواج كذلك لهذا جاءت من تبعية.

والإنسان في هذه الحال على مفترق طرق إما أن يسلك طريق الله أو أن يسير في غيره من الطرق، لذلك جاء الأمر الإلهي للمؤمنين بالحذر والتيقظ من أن يطيعوهم في الباطل، فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

9- أَشْفَقَ

والإشفاق هو عناية مختلطة بخوف، فإذا عُدِّي بـ (في) كان معنى العناية أظهر، وإذا عُدِّي بـ (من) كان معنى الخوف أظهر⁽¹⁾.

قال تعالى: ﴿ تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا ﴾⁽²⁾

ففي الآخرة نرى الظالمين (مشفقين) أي خائفين خوفاً شديداً أرق قلوبهم من جزاء ماكسبوا من المعاصي، وهذا الجزاء هو العقاب الذي يستحقوه وهو واقع بهم ولا بد لهم منه أشفقوا أو لم يشفقوا⁽³⁾. فهم لم يخافوا الله في الدنيا بالإيمان وعمل الصالحات بل اكتسبوا السيئات فأخافهم الله تعالى في الآخرة مما أعد لهم من عذاب أليم.

وهذا مشهد الخائفين في الآخرة أما مشهد الخائفين في الدنيا الآمنين في الآخرة جاء في قوله تعالى: ﴿ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴾⁽⁴⁾

لفظة (مشفقين) على ما ورد في الكشاف تعني ((أرقاء القلوب من خشية الله))⁽⁵⁾

وفي مجمع البيان أي خائفين في دار الدنيا من العذاب ﴿فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾⁽⁶⁾ أي جهنم والسموم اسم من أسمائها وقيل: إن المعنى يسأل بعضهم بعضاً عما فعلوه في الدنيا فاستحقوا به المصير إلى الثواب والكون في الجنان، فيقولون: إِنَّا كُنَّا فِي دَارِ التَّكْلِيفِ مُشْفِقِينَ أَي خَائِفِينَ رَقِيقِي الْقَلْبِ فَإِنَّ الْإِشْفَاقَ رَقَّةُ الْقَلْبِ عَمَّا

(4) ينظر: الأمثل : 3 / 200 .

(5) سورة التغابن : 14 .

(6) ينظر: الميزان في تفسير القرآن : 307/19 .

(1) ينظر : مفردات ألفاظ القرآن : مادة شفق .

(2) سورة الشورى : 22 .

(3) ينظر: الكشاف : 977 مجمع البيان : 37/ 9.

(4) سورة الطور : 62 .

(5) الكشاف : 1057 .

(6) سورة الطور : 63 .

يكون الخوف على الشيء والشفقة نقيض الغلظة⁽⁷⁾.
فأله لا يجمع خوفين للعبد، فمن خاف الله في الدنيا بالإيمان الصادق والعمل الصالح آمنه الله جل وعلا يوم القيامة، ومن لم يخف الله تعالى في الدنيا وحمل ما حمل من العقائد الفاسدة والأعمال السيئة أخافه الله يوم الهول الأكبر وعذبه عذاباً شديداً.
ورد في الحديث القدسي: ((وعزتي لا أجمع على عبدي خوفين ولا أجمع له أمنين، فإذا أمني في الدنيا أخفته يوم القيامة وإذا خافني في الدنيا أمنت يوم القيامة))⁽¹⁾.
ونلاحظ مما سبق أن الفعل (أشفق) عبّر عن معنى الخوف حتى وإن عُدي بـ (في) لذلك فالإشفاق في الاستعمال القرآني من الألفاظ التي تعبّر عن الخوف.

10- خَشَعَ

يُعَبِّرُ الخشوع في الاستعمال القرآني عن معانٍ ودلالات عديدة منها الخوف والتذلل والخضوع والتواضع.

قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾⁽²⁾ (خاشعين) تعني ((خاضعين لله بالطاعة مستكينين له بها متذللين... والخاشع: المتذلل لله الخائف))⁽³⁾، وقيل: في الخشوع إته الخوف اللازم للقلب من الله⁽⁴⁾.

والآية نزلت في مؤمني أهل الكتاب من اليهود والنصارى الذين تركوا العصبية العمياء والتحقوا بصفوف المسلمين وهذا التسليم لأمر الله والخضوع لإرادته و الخوف منه تعالى هو السبب الحقيقي لإيمانهم وهو الذي فرّق بينهم وبين العصبية والتعنّت والاستكبار تجاه منطق الحق⁽⁵⁾ ((أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ)) والخبر القرآني ((إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ)) يحمل معنيين في آن واحد معنى البشارة للمؤمنين وكذلك هو تحذير وتهديد للعاصين والمذنبين.

ويكون الخشوع بمعنى الخضوع والتواضع. قال تعالى: ﴿وَ الْخَاشِعِينَ وَ الْخَاشِعَاتِ﴾⁽¹⁾ أي المتواضعين الخاضعين⁽²⁾.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَ خَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾⁽³⁾ أي خضعت الأصوات بالسكون، وخضوعها وخشوعها هذا إمّا لهيمنة العظمة الإلهية على عَرَصَةِ المحشر حيث يخضع لها الجميع، أو خوفاً من الحساب نتيجة الأعمال أو كليهما⁽⁴⁾.

(7) ينظر: مجمع البيان : 212/9 .

(1) جامع السعادات : 1 / 179 .

(2) سورة آل عمران : 199 .

(3) جامع البيان : 4 / 272 .

(4) ينظر: مجمع البيان : 2 / 706 .

(5) ينظر: م. ب. 706 / 2 ، والأمثل : 2 / 556 .

(1) سورة الأحزاب : 35 .

(2) ينظر: مجمع البيان : 8 / 464 .

(3) سورة طه : 108 .

(4) ينظر: مجمع البيان : 7 / 44 ، والأمثل : 8 / 196 .

وقوله تعالى: ﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرَاهُمْ ذَلَّةً ذَلِكَ الْيَوْمَ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ (5) أي ذليلة خاضعة لا يستطيعون النظر من هول ذلك اليوم (6) (الذي كانوا يوعدون). وهكذا نجد أن لفظ (خشع) وتصريفاته يُعبّر عن الخوف و عن الذلّة والتذلل والخضوع والتواضع وكل ذلك داخل في دائرة الخوف ؛ لأنّ الذل والتذلل والخضوع والتواضع سببه الخوف والخشية والرهبة.

11- أَنْذَرَ

وهو من الألفاظ التي تدل على معنى الخوف والحذر والإعلام . جاء في اللسان ((أنذره بالأمر أعلمه، وأنذره أيضاً خوَّفه و حذَّره)) (7) قال تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاؤُهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ (8) أي ((يخوفونكم من مشاهدة هذا اليوم وعذابه)) (9) وقال تعالى: ﴿أَوْ عَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (10) ومعنى (لينذركم) ليحذركم عاقبة الكفر (1). وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ﴾ (2) والمُنْذِرُونَ أنبياء حذروهم العواقب (3). والمُنْذِر يعني المخوَّف أيضاً كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ مَّنْ يَخْشَاهَا﴾ (4) أي إنّما أنت مخوَّف من يخاف قيامها ، فإنذارك إنّما ينفع من يخافها وأمّا من لا يخشاها فكأنك لم تُنذره (5).

وذكر القرطبي في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ﴾ (6) أي ((مُعَلِّم)) (7). وجاء في اللسان ((والمُنْذِر المُعَلِّم الذي يُعرِّف القوم بما يكون قد دهمهم من عدو وهو المخوَّف أيضاً)) (8).

12- وَجَفَ

يأتي هذا اللفظ في الاستعمال القرآني للتعبير عن الاضطراب والخوف. قال تعالى: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾ (9) والواجفة المضطربة وهذا الاضطراب ناشئ من سرعة الخفقان وعنف الوجيب في رجّة القيامة (10).

(5) سورة المعارج: 44 .

(6) ينظر: مجمع البيان : 10 / 454 .

(7) لسان العرب : مادة نذر .

(8) سورة الزمر : 71 .

(9) مجمع البيان : 8 / 657 .

(10) سورة الأعراف : 63 .

(1) ينظر: الكشاف : 367 .

(2) سورة الصافات : 72 .

(3) ينظر: الكشاف : 907 .

(4) سورة النازعات : 45 .

(5) ينظر: مجمع البيان : 10 / 554 .

(6) سورة الرعد : 7 .

(7) الجامع لأحكام القرآن : 9 / 233 .

(8) لسان العرب : مادة أنذر .

وعن ابن عباس أنّ معنى الواجفة الخائفة، والمراد بذلك أصحاب تلك القلوب يعني أنّها قلقة غير هادئة ولا ساكنة لما عاينت من أهوال يوم القيامة⁽¹⁾.

13- رَاعٍ

والرَّوْعُ الإفزع يُقال : راعه يَرُوعه إذا أفرعه وارتاع ارتياحا إذا خاف⁽¹⁾.
قال تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾⁽²⁾
أي فلما ذهب الخوف والفرع عن إبراهيم من أولئك الرسل وجاءته البشري بالولد ﴿يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾

وقد يُعبّر عن الخوف بالأفاظ و تراكيب خاصة كما في قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِّخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوْ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾⁽³⁾
فلفظة (يَصْطَرِّخُونَ) يوحي إلينا جرسها الغليظ بغلظ الصراخ المختلط المتجاوب من كل مكان ، المنبعث من حناجر مكتظة بالأصوات الخشنة، كما تُلقِي إلينا ظلّ الإهمال لهذا الاضطراخ الذي لا يجد من يهتم به أو يلبيه ، ونلمح من وراء ذلك صورة العذاب الغليظ الذي هم فيه يصطرخون⁽⁴⁾.فهؤلاء في غمرة العذاب يصرخون من أعماق قلوبهم ويطلبون المحال وهو الخروج من النار والعودة إلى الدنيا للقيام بالأعمال الصالحة ((رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ)) وقد عبّر عن ((صالحاً)) بصيغة النكرة إشارة إلى أنهم لم يعملوا أقلّ القليل من العمل الصالح ، ولازم هذا المعنى أنّ كل هذا العذاب والألم إنّما هو لمن لم تكن لهم أيّة رابطة مع الله سبحانه وتعالى في حياتهم وكانوا غرقى في الذنوب والمعاصي .

وعلى هذا فإنّ القيام بقسم من الأعمال الصالحة أيضاً يمكن أن يكون سبباً في النجاة من النار والعذاب والفعل (نعمل) يؤيد هذا المعنى ، وهو تأكيد أيضاً على أنّهم كانوا مستغرقين في الأعمال الطالحة⁽⁵⁾ وجاء الرد القاطع منه سبحانه وتعالى: ((أَوْ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ))

وهذا استفهام خرج لمعنى التوبيخ أي ألم نعظكم من العمر مقدار ما يمكن أن يتفكّر ويعتبر وينظر في أمور دينه وعواقب حاله من يريد أن يتفكّر ويتذكّر، وأرسلنا إليكم المخوف من عذاب الله وهو الرسول محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)⁽¹⁾.

(9) سورة النازعات : 8 .

(10) ينظر: مفردات الألفاظ : مادة وجف ، والتفسير البياني للقرآن الكريم، د. عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ)، دار المعارف، مصر، ط2، 1966 : 1 / 106 .

(11) ينظر: مجمع البيان : 548/10 .

(1) ينظر: مجمع البيان : 229/5 .

(2) سورة هود : 74 .

(3) سورة فاطر : 36 – 37 .

(4) ينظر: التصوير الفني : 76 .

(5) ينظر: الأمثل : 79/11 .

(1) ينظر: الكشاف : 888 ، ومجمع البيان : 8 / 529.

فقد وفّرنا لكم سبل النجاة والفرص الكافية لكنكم لم تؤمنوا ولم تطيعوا ولم تعملوا الصالحات ((فَدُوفُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ))

فاللفظ (يضطرخون) والتركيب المتمثل بالاستفهام الذي خرج للتوبيخ ضمن سياق صوّر العقوبات المادية والمعنوية للكفار، وهذا مما يثير الخوف والرعب في نفوس كفار مكة وكل من يقرأ الآيات المباركات من هذه العاقبة السيئة والمؤلمة للكافرين بالله والجاحدين بنبوّة نبيه (صلى الله عليه وآله وسلم) فيبعث هذا الخوف على الإيمان بالله ورسوله وعمل الصالحات.

ومن التركيب الذي يصوّر الخوف ما جاء في قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَ زُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ (2)

والآية ضمن السياق الذي يصف شدة الأمر في يوم الخندق ، فالمؤمنون فيه اختبروا وامتحنوا فيه ؛ ليظهر حسن إيمانهم وصبرهم على ما أمرهم الله عز وجل من جهاد أعدائه فيتبين من كان ثابتاً قوياً في الإيمان ومن كان ضعيفاً فيه(3).

((زُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا)) وهذه العبارة تصوّر الخوف الذي أصابهم ، والمعنى حرّكوا بالخوف تحريكاً شديداً وأزعجوا إزعاجاً عظيماً ؛ ذلك أنّ الخائف يكون قلقاً مضطرباً لا يستقر على مكانه(4).

و على هذا فآيات الخوف هي الآيات التي تحمل الألفاظ التي تعبر عن الخوف صراحة، أو الألفاظ والتراكيب التي تصور خوفاً معيناً أو تثيره في نفوس المتلقين. والتعبير عن الخوف يتضح ويتبين أكثر من خلال ما تحمله آيات الخوف من ملامح فنية وعلوم بلاغية .

(2) سورة الأحزاب : 11 .

(3) ينظر: مجمع البيان : 8 / 450 .

(4) ينظر: الكشاف : 850 ، ومجمع البيان : 8 / 450 .

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله حمداً يليق بجلاله وأحمده على نعمه وآلائه وأفضاله وأشهد أن لا إله سواه وسع الوجود برّه ورحمته ونداه .
والصلاة والسلام على المبعوث رحمةً للعالمين محمد الأمين وعلى آله الهداة المعصومين ، أما بعد :

فإنّي أحمد الله وأشكره على نعمته العظيمة بأن وفقني لأن أحقق ما كنت أتمناه ، وهو أن اكتب في موضوع يبحث في كتابه الكريم فكان هذا الموضوع والموسم بـ (آيات الخوف في القرآن الكريم - دراسة فنية) مِنّة المنان عليّ ، وقد كان للأستاذ الدكتور عباس محمد رضا الفضل في اقتراح عنوانه وإشرافه على خطوات كتابته .
إنّ هذا البحث هو محاولة متواضعة تنطلق من القرآن الكريم لدراسة الآيات التي ورد فيها لفظ الخوف أو الألفاظ التي تعبر عنه صراحةً .

وكذلك الآيات التي وردت فيها ألفاظ وتراكيب خاصة تعبر عن الخوف ضمناً ، مع مراعاة السياق الذي جاءت فيه ، وقد قام البحث على منهج انتقائي يبيّن ما في آيات الخوف من ملامح فنية ومعانٍ بلاغية تغلب عليه الدراسة الفنية البلاغية التي تؤثر في النفوس وتنتهي إلى الأحكام الفنية .

وقد قسّمت البحث على ثلاثة فصول سبقها تمهيدٌ بيّنت فيه أنواع الخوف في القرآن الكريم وطرائق التعبير عنه صراحةً أو ضمناً .

وقد عقدت للألفاظ في آيات الخوف الفصل الأول وقد درست فيه جرس الألفاظ ، ومناسبة اللفظ لمعناه والسياق الذي ورد فيه وكذلك الفواصل القرآنية ، ومن ثمّ البنى الصرفية .

وتناولت في الفصل الثاني دلالة التركيب فدرست الخبر ، والإنشاء الطلبي ، والتقديم والتأخير ، والفصل والوصل ، والإيجاز والإطناب .

وخصّصت الفصل الثالث لدراسة الصورة الفنية مبينة أهم العناصر البلاغية التي كوّنتها ، فدرست التشبيه ، والمجاز والاستعارة ، والكناية ، والطباق ، ووجود الطباق هنا مع كونه من علوم البديع ؛ لأنّه يشترك مع من سبقه من علوم البيان في رسم صور فنية موحية .

وانتهى مطاف البحث بخاتمة تضمّنت أهم ما خرج به البحث من نتائج .

وقد تنوعت المصادر والمراجع التي أفدت منها في البحث إذ شملت كتب التفسير واللغة والنحو والصرف والبلاغة والنقد والأخلاق وعلوم القرآن وما تيسّر من كتب الدراسات القرآنية والبلاغية غير أنّ ما جاء في كتب التفسير كان عماد مادة البحث .

وتقتضي الأمانة العلمية أن أشير إلى أنّ هناك دراستين تناولت كلُّ منهما الخوف في القرآن الكريم .

الأولى بعنوان (الترغيب والترهيب في القرآن الكريم - دراسة بلاغية) رسالة ماجستير للباحث موسى سلوم الربيعي ، فالتخويف والترهيب كان جانباً من هذه الدراسة التي تناولته مع الترغيب في مستويات البلاغة الثلاثة .

والثانية درست (الخوف في القرآن الكريم ألفاظه وسياقاته - دراسة لغوية) أطروحة

دكتوراه للباحث أحمد جواد العتابي .
و في دراستي الفنية لآيات الخوف حاولت أن أقدم شيئاً فيما يخص هذا الموضوع،
فأرجو من الله تعالى أن يتقبل هذا الجهد الخالص لوجهه خدمة متواضعة للكتاب العزيز،
وأن يكون من ما ينفع الناس وينفعني ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَ لَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ
سَلِيمٍ﴾ ⁽¹⁾ . فإن وفقت إلى ما هدفت إليه فذلك بفضل من الله وحده وإن كانت الأخرى فلي
من سلامة القصد خير عذر، وحسبي إخلاص النية وأجر الساعين
وآخر دعواي أن الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على النبي الكريم محمد وعلى
آله الطيبين الطاهرين .

الباحثة
كربلاء المقدسة

⁽¹⁾ (سورة الشعراء : 88 - 89)

الفصل الأول

مباحث الألفاظ في آيات الخوف

المبحث الأول / جَرَسُ الألفاظ في آيات الخوف

المبحث الثاني / اتساق اللفظ مع المعنى

المبحث الثالث / الفاصلة القرآنية

المبحث الرابع / البنية الصرفية في آيات الخوف

مدخل

إنَّ اللفظ يشارك مشاركة فعّالة في تكوين النص الأدبي بدلالته الذاتية وصلته بالنفس الإنسانية ، لذلك يُعدُّ أساس الإبداع الأدبي . وقد استعمل القرآن الكريم الألفاظ وسيلة للتأثير في المتلقين ، فقد حوت كل الخصائص الفنية التي تُميّز قوة لفظ عن آخر ، فهي مناسبة لمعانيها فضلاً عن أنَّها تحمل الإيقاع والجرس والنغم الذي يُحرِّك الوجدان والخيال والعقل ويثير النفس فيوحي لها بصور حيّة متحركة .

ومن يتأمل ألفاظ القرآن الكريم يجد فيها الجمال والفن وصور الإبداع والحيوية والحركة والسيطرة على القلوب ؛ وذلك لأنَّها احتلت أماكنها في الآيات كأنَّها خلقت لذلك خلقاً مقصوداً فهي تمثل دقة المعنى ، كما تمتاز بالسلاسة والجزالة والرشاقة ، وهي تُسهِّم في أداء المعنى مصحوبة بقوة جرسها ، كما تمتاز بحسن التناسق فكأنَّها مبنية بعضها على بعض فلا ينبو منها لفظ عن آخر وهي تصوِّر المشاهد القرآنية وتقرِّبها إلى الأذهان (1) فكل لفظة من ألفاظ القرآن وقعها الخاص في أذن سامعها وتؤدي على أحسن وجه إذا ما تُليت مع صاحبته.

كذلك امتازت الألفاظ القرآنية بقوة البلاغة وحسن الفصاحة وهذا مما يجعل تأثيرها قوياً في القلوب والأسماع فالجاحظ يقول : ((إذا كان المعنى شريفاً واللفظ بليغاً ، وكان صحيح الطبع بعيداً عن الاستكراه ، ومنزهاً عن الاختلال مصوناً عن التكلف صنع في القلوب صنُّ الغيث في التربة الكريمة)) (2).

وآيات الخوف جزء من ذلك البيان المعجز فقد اعتنى القرآن عناية كبيرة باختيار الألفاظ فيها وببنيتها وجرسها ودلالاتها ليضعها في مكانها المناسب ، وما لذلك من أثر في بيان معنى الخوف .

المبحث الأول

جَرَسُ الألفاظ في آيات الخوف

الجَرَسُ بفتح الجيم وكسر ها يعني الصوت وجرس الحرف نغمته (3) وهو ما تعارف عليه البلاغيون والنقاد (4) .

قال الجاحظ : ((الصوت آلة اللفظ والجوهر الذي يقوم به التقطيع وبه يوجد التأليف ولن

(1) ينظر : البناء الفني في سورة مريم ، د. حامد عبد الهادي حسين ، مجلة قبس العربية ، ع 1 ، 2005م : 50.

(2) البيان والتبيين ، تح: حسن السندوبي ، المطبعة الرحمانية ، القاهرة ، مصر ، ط 2 ، 1932م : 83/1 .

(3) ينظر : لسان العرب : مادة (جرس) .

(4) ينظر : جرس الألفاظ ودلالاتها في البحث البلاغي والنقدي ، د. ماهر مهدي هلال ، دار الرشيد للنشر ، بغداد ، 1980 : 13.

تكون حركات اللسان لفظاً ولا كلاماً موزوناً إلا بظهور الصوت ((⁽¹⁾ وقال القاضي الجرجاني: ((إنما الكلام أصوات محلها من الأسماع محل النواظر من الأبصار))⁽²⁾ إذن الجرس هو الصوت والنغم ، وهو قيمة جوهريّة في الألفاظ وبنائها اللغوي ، وهو أداة التأثير الحسي بما يوحيه إلى السامع باتساق اللفظة وتوافقها مع غيرها من الألفاظ في التعبير⁽³⁾ .

ومن مصادر التناغم التلاؤم الصوتي بين الألفاظ ، وقد شعر به القدماء من خلال بحثهم تركيب الحروف فيما يتألف ويتنافر منها ، ووجدوا لهذا التناغم بين الألفاظ ((إيقاعاً يطرب الفهم لصوابه وما يرد به عليه في حسن تركيبه ، واعتدال أجزائه))⁽⁴⁾ فلا إيقاع الصوتي الذي تحدثه الحروف عند ائتلافها وتكوينها للألفاظ والجمال أثر في تصوير المعنى ، وفي حديث الرسول الكريم خير دليل على أهمية التلاؤم الصوتي سواء أكان على مستوى اللفظ أم على مستوى النظم فقد روي عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) أنه قال: ((فُتحت الأمصار بالسيوف وفُتحت المدينة بالقرآن)) ؛ لأنه (صلى الله عليه وآله وسلم) قرأ شيئاً من القرآن الكريم على نفرٍ من الأنصار في موسم الحج فأخذ بلبهم واستحوذ على مشاعرهم وعادوا إلى المدينة فأظهروا الدين به فلم يبق بيت من بيوت الأنصار إلا وفيه القرآن⁽⁵⁾ .

حدث ذلك بفضل اللغة القرآنية المعجزة التي تطرب لها الأذان وتخشع لها القلوب ، لما جمعت من لطف الجمال وهيبة الجلال ، فقد حذب البيان القرآني على تحقيق موسيقى اللفظ في جملة وتناغم الحروف في تركيبه ، وتعادل الوحدات الصوتية في مقاطعه ، فكانت مخارج الكلمات متوازنة النبرات وتراكيب البيان متلائمة الأصوات ، فاختار لكل حالة مرادة ألفاظها التي لا يمكن أن تستبدل بغيرها⁽⁶⁾ ، فهذا الجمال والتناسق الفني ، والإيقاع الموسيقي هو أول شيء أحسسته الأذن العربية يوم نزل القرآن وتلاه الرسول (عليه الصلاة والسلام وآله الكرام) ولم تكن من قبل عهدت مثله في منثور الكلام ومنظومه⁽⁷⁾ . وقد اعتمد القرآن الإيقاع الصوتي للحروف في تجسيد الحدث فيجعله ذا وقع مؤثر في النفوس ، ف ((إيقاع اللفظ المفرد وتناغم الكلمة الواحدة عبارة عن جرس موسيقي للصوت فيما يجلبه من وقع في الأذن أو أثر عند المتلقي يساعد على تنبيه الأحاسيس في النفس الإنسانية))⁽⁸⁾ .

(1) البيان والتبيين : 80/1 .

(2) الوساطة بين المتنبي وخصومه ، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي، دار إحياء الكتب العربية ، ط 2 ، 1951 : 421 .

(3) ينظر : جرس الألفاظ 19-20 .

(4) عيار الشعر، ابن طباطبا العلوي، تح: د. عبد العزيز بن ناصر المانع ، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2005 : 21.

(5) ينظر : بيان إعجاز القرآن للخطابي ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للخطابي والرماني والجرجاني ، تح: محمد خلف الله ومحمد زغلول ، دار المعارف ، مصر، 1968 : 65.

(6) الصوت اللغوي في القرآن، د. محمد حسين علي الصغير، دار المؤرخ العربي، بيروت، لبنان، ط 1، 1420هـ - 2000م : 163.

(7) ينظر : التعبير الفني في القرآن ، بكرى الشيخ أمين ، دار الشروق للطباعة ، القاهرة ، ط 1، 1973م : 184 .

(8) الصوت اللغوي في القرآن : 164 .

وفي آيات الخوف تمتاز الألفاظ بانتلاف حروفها وتناسقها وإيقاعها وجرسها المتميزين والمؤثرين في السامع أبلغ تأثير ، وبتصويرها للمعنى خير تصوير ، قال تعالى: ﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ (1)

لفظة (تتجافى) من التجافى أي تعاطي الارتفاع عن الشيء (2) فقد صوّرت هذه اللفظة حال المؤمنين المتقين الذين ترتفع جنوبهم عن مواضع اضطجاعهم لصلاة الليل وهم المتجهدون بالليل الذين يقومون عن فراشهم للصلاة ، يدعون ربهم خوفاً من عذابه ورجاءً لرحمته (3).

ولفظة (تتجافى) ذات جرس موح بالمعنى المراد منها ، يقول الدكتور أحمد بدوي: ((تبين ما تثيره في نفسك كلمة تتجافى ، من هذه الرغبة الملحة التي تملك على المتقين نفوسهم ، فيتألمون إذا مسّت جنوبهم المضاجع ، ولا يجدون فيها الراحة والطمأنينة ، وكأنما هذه المضاجع قد فُرشت بالشوك ، فلا تكاد جنوبهم تستقر عليها حتى تجفوها وتنبو عنها)) (4) . فتكرار صوت التاء الشديد في اللفظ وما فيه من الهمس (5) ومجيء المد في وسطها ونهايتها صوّرت هذه الرغبة الشديدة التي تتملك نفوسهم من الابتعاد عن فراشهم للقيام للصلاة في الليل ، وقد ارتسمت - هذه الرغبة - على سلوكهم فنجدهم قائمين ساجدين متضرعين للباري عز وجل .

فلا نجد لفظة أخرى تصوّر الحدث كما صورته لفظة (تتجافى) فهي توحى بالمعنى وحيّاً ، فنشعر به شعوراً عميقاً ، ونحس بجو الفكرة إحساساً قوياً .

ويزداد هذا الشعور وهذا الإحساس في اجتماع هذه اللفظة مع غيرها من الألفاظ ضمن العبارة القرآنية ، إذ شارك هذا الاجتماع في تعميق المعنى من خلال أصوات المد التي وردت في العبارة القرآنية ﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ﴾ فقد جاءت متوافقة ومنسجمة في سياق الآية ، فقد عبّرت عن تموّج نغمي من مد الألف إلى الأعلى ومد الواو إلى الأسفل قليلاً ومن ثم صوت الألف أخيراً في لفظة (المضاجع) وهذا يعبر عن حالة غير الاستقرار - والله العالم - ، فجنوبهم لا تكاد تستقر عليها حتى ترتفع وتنبو عنها مقابل النوم الذي يعبر عن الاستقرار ، فهؤلاء يجدون راحتهم وسعادتهم في الوقوف بيت يدي ربهم للصلاة والدعاء والتضرع والمناجاة ، تاركين طيب المضجع خوفاً من الله ورجاءً لما عنده لا يبتغون غير وجهه الكريم .

ومن الألفاظ ذات الجرس الموحى ما جاء في قوله تعالى: ﴿ كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴾ (6) لفظة (لنسفعاً) لفظة شديدة عنيفة أوحى عن معناها بجرسها .

والسفع في المفردات هو الأخذ بسفحة الفرس ، أي سواد ناصيته (7) وفي الكشف يعني: القبض على الشيء وجذبه بشدة (1) و ﴿ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴾ أي

(1) سورة السجدة : 16 .

(2) ينظر : مجمع البيان : 427/8 .

(3) ينظر : م.ن 428/8 .

(4) من بلاغة القرآن ، د.أحمد بدوي ، مطبعة نهضة مصر ، 1952م : 66 .

(5) الأصوات اللغوية ، د.إبراهيم أنيس ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ط5 ، 1975م : 61.

(6) سورة العلق : 15.

(7) ينظر : مفردات ألفاظ القرآن : مادة سفع .

لنأخذ بناصيته ولنسحب به إلى النار (2). فصوتا السين ذو النغم الصارم والعين الذي أضفى طابع العنف والشدة على الفعل (3) صوراً جسامة الحدث ، فكانا من العناصر المهمة في الصورة التي رسمتها لفظة (لنسفعاً) وهي ((صورة حسية للأخذ الشديد والسريع ومن أعلى مكان يرفعه الطاغية من مقدمة الرأس الشامخ)) (4) فالجرس العنيف والشديد لللفظة (لنسفعاً) والذي دلّ على معنى الأخذ الشديد لनावية الكافر وسحب به إلى النار ، يثير الخوف والرعب في نفوس الطغاة والمتكبرين على الحق لئلا يكون مصيرهم كمصير أبي جهل الذي نزل فيه هذا الوعيد القرآني ؛ لأنّه نهى عن عبادة الله تعالى ودعا لعبادة غيره .

ومنه ما جاء في قوله تعالى : ﴿ خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴾ (5) ولفظة (اعتلوه) من العَتَل وهو ((الأخذ بمجامع الشيء وجره بقهر)) (6) فوجود الضمة على اللام وصوت الواو الذي مخرجه من أقصى اللسان (7) واستدارة الشفتين للأمام كأنه تصويرٌ وتجسيم لحال الأثيم وهو يُساق للأمام نحو الجحيم ، ولكنّه ليس أخذاً وجرّاً عادياً وإنما بعنفٍ وغلظة صوّر ذلك صوت العين الذي أضفى طابع العنف والشدة على اللفظ ، فجرس اللفظة أوحى بمعناها وهو الجر بعنف وقهر إلى النار . وقد تعطي هذه اللفظة معنى الزعزعة والدفع بعنف ، جاء في مجمع البيان (((فاعتلوه) أي زعزعه وادفعوه بعنف)) (8) وأياً كان المعنى الجر أو الدفع فالعين شارك في رسم صورة عنيفة ، لهذا الفعل فأى خوفٍ وأى فزعٍ يثيره هذا المشهد حيث نرى الأثيم يُجر أو يُدفع بعنف وقوة إلى وسط النار .

ومن الألفاظ المستوحاة دلالتها من جنس صياغتها ما جاء في قوله تعالى : ﴿ .. فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ .. ﴾ (9)

والاستصراخ ((الإغاثة ، استصرخ الإنسان إذا أتاه صارخ وهذا الصوت يعلمه بأمر حادث ليستعين به)) (10) . وقد صورت لفظة (يستصرخه) بجرسها الصارخ طلب النجدة في فزع ، ومحاولة الإنقاذ في رهب والاستعانة على العدو للإيقاع به ، وما ذلك إلا نتيجة خوف نازل ، وفزع متواصل وتشبث بالخلاص (11) .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ .. ﴾ (12) فلفظة (كُبَّت) من مادة

(1) ينظر : الكشف : 1213.

(2) ينظر : م.ن 1213 .

(3) ينظر : الدلالة الصوتية في القرآن الكريم (رسالة ماجستير)، كريم مزعل اللامي، كلية التربية، الجامعة المستنصرية، 1997: 32

(4) التصوير الفني في القرآن : 19 .

(5) سورة الدخان : 47 .

(6) مفردات ألفاظ القرآن : مادة (عتل) .

(7) ينظر: الأصوات اللغوية : 43.

(8) مجمع البيان : 87/9 .

(9) سورة القصص : 18 .

(10) لسان العرب : مادة صرخ .

(11) ينظر : الصوت اللغوي في القرآن : 166 .

(12) سورة النمل : 90 .

كَبَّ وتعني إسقاط الشيء على وجهه⁽¹⁾ ، فلا إنقاذ ولا خلاص ولا إخراج ، والوجه أشرف مواضع الجسد ، وهو يهوي بشدة فكيف بباقي الجسد⁽²⁾ . وهذه الشدة واضحة من جرس اللفظ ، فصوت الكاف وهو صوت انفجاري شديد⁽³⁾ يأتي غالباً في النص القرآني للتعبير عن الشدة⁽⁴⁾ ، قد جاء مؤتلفاً مع صوت الباء المشدد وأيضاً هو صوت انفجاري شديد⁽⁵⁾ . فالجرس أوحى بالقوة والشدة التي يهوي بها الوجه في النار ومشهد مفزع مخيف ، حيث نراهم وهم يُكَبُّون في النار على وجوههم ويزيد عليهم التبكيت والتوبيخ ، فقد تنكبوا الهدى وأشاحوا عنه بوجوههم ، فهم يُجَزَّون به كَبّاً لهذه الوجوه في النار وقد أعرضت من قبل عن الحق⁽⁶⁾ .

وهناك ألفاظ في القرآن الكريم ذوات إيقاع مؤثر بالنفس حيث يثير فيها الخوف والترقب قال تعالى : ﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ * لَيْسَ لَوْقَعَتِهَا كَازِبَةٌ * خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ ﴾⁽⁷⁾ الواقعة هي ((القيامة وصفت بالوقوع ؛ لأنها تقع لا محالة))⁽⁸⁾ . وقيل : سميت بهذا الاسم ؛ ((لكثرة ما يقع من الشدة فيها ، أو لشدة وقعها))⁽⁹⁾ . فهذا المطلع الذي عرض لحدث القيامة الهائل ، قد رسم صورة مروعة ومفزعة عن ذلك اليوم .

والواقعة بمعناها وبجرس اللفظ نفسه بما فيه من مد ثم سكون ، تُلقِي في الحس كأنما هي ثقل ضخم ينقض من علٍ ثم يستقر لغير ما زحزحة بعد ذلك ولا زوال ، ثم إنَّ سقوط هذا الثقل ووقوعه كأنما يُتَوَقَّع له في الحس أرجحة ورجحة يحدثها حين يقع⁽¹⁰⁾ ، فضلاً عن الغُصَّة التي يحدثها صوت العين بعد القاف ، وكأن من يقرأها يغصُّ بالخوف والرعب⁽¹¹⁾ ، فإنَّ لهذين الصوتين طبيعة نغمية خاصة ؛ ((لأنهما أطلق الحروف وأضخمها جرساً))⁽¹²⁾ .

ويُلَبِّي السياق هذا التوقع فإذا الواقعة تكون خافضة رافعة إذ إنَّها تخفض أقداراً كانت رفيعة في الأرض ، وترفع أقداراً كانت خفيضة في دار الفناء ، وبذلك تختل الاعتبارات والقيم ثم تستقيم في ميزان الله⁽¹³⁾ تبارك وتعالى .

(1) ينظر : مفردات الألفاظ : مادة كَبَّ .

(2) ينظر : الصوت اللغوي في القرآن : 167 .

(3) ينظر : الأصوات اللغوية : 83 .

(4) ينظر : الدلالة الصوتية في القرآن الكريم : 38 .

(5) ينظر : الأصوات اللغوية : 45 .

(6) ينظر : في ظلال القرآن ، سيد قطب ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان ، ط5 ، 1967م : 311/6 .

(7) سورة الواقعة : 1-3 .

(8) الكشف : 1074 .

(9) مجمع البيان : 272/9 .

(10) ينظر : في ظلال القرآن : 132/7 .

(11) الترغيب والترهيب في القرآن الكريم ، دراسة بلاغية (رسالة ماجستير) ، موسى سلوم الربيعي ، كلية الآداب الجامعة المستنصرية ، 1998 : 10 .

(12) كتاب العين (المقدمة) : 53/1 .

(13) ينظر : في ظلال القرآن : 132/7 .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْأَرْزَقَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ .. ﴾ (1) وقوله تعالى : ﴿ أَرَأَيْتِ الْأَرْزَقَةَ ﴾ (2) والأرزفة من أرزف أي ((دنا وعجل والأرزفة القيامة)) (3) فالأرزفة هي القيامة وإن استبعد الناس مداها واللفظ يصورها كأنها مقتربة زاحفة وبذلك يثير الخوف والرعب لدى المتلقي ويبعثه إلى العمل الصالح والاعتقاد الحق وبهذا يفوز برضوان الله وينجو من الشدائد والأهوال .

وجرس اللفظة دلّ على معناها فرقة لفظ الأرزفة بانطلاق الألف الممدودة من الصدر وصفير الزاي من الأسنان ، وانحدار الفاء من أسفل الشفة ، والسكت على الهاء المنبعثة من الأعماق ، كالرقة في معناها في الدنو والاقتراب وحلول الوقت ومع هذه الرقة في الصوت والمعنى ، إلا أن المراد من هذا الصفير أزيهه ، ومن هذا التأفف هديره ورجيفه إنه دنو اليوم الموعود ، والهدير النازل إنه يوم القيامة في شدائده (4) فر (الواقعة والأرزفة) أعطت المعنى المناسب للصوت والدلالة المنتزعة من اللفظ وبذلك نصل إلى حقيقة نازلة واحدة .

وهناك مقاطع صوتية مغرقة في الطول والمد والتشديد وعلى الرغم من ندرة صيغة هذه المركبات الصوتية في اللغة العربية غير أننا نجد القرآن الكريم يستعمل أفخمها لفظاً وأعظمها وقعاً (5) . ومن تلك الألفاظ ما جاء في قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَةُ الْكُبْرَى ﴾ (6)

الطامة هي القيامة ؛ لأنها تطم كل داهية هائلة أي تعلو وتغلب والقيامة فوق كل طامة فهي الداهية العظمى (7) .

والطامة لفظة رهيبة ومنبئة بأهوال القيامة فهي من قولهم طم الشيء إذا عظم وطم الماء إذا كثر وهو طامٌ والطامة الداهية تغلب ما سواها (8) وأية داهية أعظم من القيامة وقد وصفت هنا بالكبرى .

والطامة في النص القرآني لها وقع رهيب ومؤثر في النفس أبلغ تأثير فقد صورت التخويف والإنذار من أهوال يوم القيامة ، إذ ليس في الطامة إنصات ولا إمهال بل تطم وتعم ، يقول سيد قطب : ((والطامة لفظة ذات دوي وطنين ، تخيل إليك أنها تطم وتعم كالطوفان يغمر كل شيء)) (9)

وجرس اللفظة شارك في تصوير هذا المعنى الرهيب إذ جاء فيها الطاء وهو صوت شديد (10) استعلائي (1) يوحى بالقوة وقد جاء مشدداً ليكون أشد في التخويف ، والمد بالألف

(1) سورة غافر : 18 .

(2) سورة النجم : 57 .

(3) أساس البلاغة ، جار الله الزمخشري ، دار صادر ، بيروت ، 1385هـ - 1965م : مادة أرزف .

(4) ينظر : الصوت اللغوي في القرآن : 174 .

(5) ينظر : م.ن 168 .

(6) سورة النازعات : 34 .

(7) مجمع البيان : 554/10 .

(8) ينظر : لسان العرب : مادة طمم .

(9) التصوير الفني في القرآن : 77 .

(10) ينظر : الأصوات اللغوية : 61 .

بالألف والذي يكون أقوى تفخيماً مع الطاء ، والميم المشددة ، ثم التاء القصيرة .
 فهي من الألفاظ التي تدل بصوتيتها على كنه معناها .
 وقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ ﴾ (2)
 والصاخة لفظ ذو جرس عنيف نافذ يكاد يخرق صماخ الأذن وهو يشق الهواء شقاً ، حتى يصل الأذن صاخاً مُلْحاً (3) .
 والصاخة هي صيحة القيامة سميت بذلك ؛ لأنها تصخ الأذان أي تبلغ في إسماعها حتى تكاد تصمها (4) ومما يساعد على تصوير حدث الصخ والإصاخة ما في صوتي (الخاء) و(الصاد) من وضوح سمعي وتفخيم وإطباق ، وكذلك مد الألف مداً لازماً بست حركات وتفخيمها ؛ لأنها امتداد لصوت الصاد المطبق المفخَّم (5) .
 فالصاخة لفظ ذو جرس عنيف والقرآن يمهد بهذا الجرس للمشهد الذي يليه وهو مشهد المرء الذي يَفِرُّ وينسلخ من ألصق الناس قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ (6) فالإنسان ينفصل عن الذين تربطهم به وشائج وروابط لا تنفصم ، بسبب هذه الصاخة التي تمزق هذه الروابط تمزيقاً وتقطع تلك الشوائج تقطيعاً ، فالهول في هذا المشهد هول نفسي بحيث يُفزع النفس ويفصلها عن محيطها ويستبد بها استبداداً ... (7)
 إذن لفظتا (الطامة والصاخة) تعتمدان قوة الجرس الذاتية في بنائهما اللفظي أداةً للتعبير والإيحاء (8) .
 وإذا تأملنا لفظ الحاقة في قوله تعالى : ﴿ الْحَاقَّةُ * مَا الْحَاقَّةُ ﴾ (9) فهو لفظ ذو جرس موحى بالمعنى فهي تلقي في الحس معنى الجدية والصرامة والحق ، فيثير بذلك الخوف في نفس المتلقي . والحاقة اسم من أسماء القيامة ؛ لأنها ذات الحواق من الأمور وهي الصادقة الواجبة الصدق ؛ لأن جميع أحكام القيامة واجبة الوقع صادقة الوجود (10) .
 إن إيقاع اللفظ بذاته أشبه شيء برفع الثقل طويلاً ثم يستقر استقراراً مكيناً رفعه في مده الحاء بالألف ، وجره في تشديد القاف بعدها واستقراره بالانتهاء بالتاء المربوطة التي تنطق هاء ساكنة (11) ، فنلاحظ من ذلك الربط بين جرس الأصوات ودلالاتها ، فالألفاظ (الحاقة ، الطامة ، الصاخة) تستدعي نسبة عالية من الضغط الصوتي والأداء الجهوري لسماع رنتها عما يتوافق نسبياً مع إرادتها في جلجلة الصوت وشدة الإيقاع ، كل ذلك مما

(1) معنى الاستعلاء: أن تصعد في الحنك الأعلى، ينظر: جرس الألفاظ 138

(2) سورة عبس : 33 .

(3) ينظر : في ظلال القرآن : 450/8 .

(4) ينظر : مجمع البيان : 561/10 .

(5) ينظر : الصورة السمعية ودلالاتها البلاغية في القرآن الكريم (أطروحة دكتوراه) ، عباس السامرائي ،

كلية الآداب ، جامعة بغداد ، 2001م : 55 .

(6) سورة عبس : 34-37 .

(7) ينظر : في ظلال القرآن : 472/8 .

(8) جرس الألفاظ : 169 .

(9) سورة الحاقة : 1-2 .

(10) ينظر : مجمع البيان : 434/10 .

(11) ينظر : في ظلال القرآن : 434/8 .

يوضح مجموعة العلاقات القائمة بين اللفظ ودلالته في مثل هذه العائلة الصوتية الواحدة ، وإذا أضفنا إلى ذلك معناها المحدد في كتاب الله ، وهو يوم القيامة ، انتهينا إلى مناسبة الشدة الصوتية للفظ مع الشدة الدلالية له (1) .

ونلاحظ أيضاً أنّ جرس اللفظ في آيات الخوف قد كوّن موسيقى تصوّر الحدث القرآني ، فيثير بذلك الخوف والرهبة في نفوس المتلقين .

ولم تكن الموسيقى في القرآن متأتية من جرس الألفاظ فحسب وإنما تأتت من اجتماع الألفاظ ضمن السياق الذي أعجز أمة العرب من الإتيان بمثله ، فقد نزل القرآن ((بلسان عربي مبين ، لسان موسيقي تستمتع الأسماع بلفظ كلماته وتخضع مقاطعه في تواليها لنظام خاص)) (2) . فكل آية تركيب موسيقي قائم بذاته يُطرب الأذان كلماته فضلاً عن وقعه المؤثر في النفس.

قال تعالى : ﴿ كَلَّا إِنَّهَا لَأُظَى * نَزَّاعَةً لِّلشَّوَى * تَدْعُو مِّنْ أَذْبَرَ وَتَوَلَّى ﴾ (3) .

فوصف النار بـ (لظى) أي ((نار صفتها الاشتعال لا تنعزل عن شأنها ولا تخمد)) (4) فهي تتلظى وتشتعل بغیظ وغضب (5) على المجرمين حتى لتبدو وكأنّها تتكلم بلسان من نار ((فألسنة اللهب هي ألسنة كلام ولكنها كلام من نار والفقرات التي تليها تؤكد هذا الاستحياء المرعب ، فإنّ فقرة (نزاعة للشوى) فقد تطابقت دلالتها وتجانس ذلك مع هول (لظى) ولفظة (نزاعة) مرعبة وكذلك لفظة (شوى) وإنّ كلاً من اللفظتين عبارة مصعقة مهولة مزمجرة ، توحى بغضب اللظى وباستعدادها بالفتك بالمجرمين)) (6) على نحو تنزع الجلود من الوجوه والرؤوس نزاعاً ، وهي غول مفرعة ذات نفس حية تشارك في الهول والعذاب عن إرادة وقصد (7) . فتثير بذلك الخوف والرعب في النفوس.

فنلاحظ أنّ الإيقاع الصوتي للحروف في اللفظ الواحد ، والإيقاع المترتب من اجتماع الألفاظ ضمن السياق ، قد شارك في تجسيد الحدث وتجسيمه وهو إيقاع يقرع القلوب بهوله ، وتهتز له النفوس وتضطرب وترتجف منه وتخاف ، لذا كان بمثابة موسيقى تصويرية للحدث الذي رسمه القرآن الكريم وهو وصفه لنار جهنم .

ومن عناصر الإيقاع في القرآن ، التجانس بين أصوات العبارة القرآنية ، قال تعالى : ﴿ سَأَصْلِيهِ سَقَر * وَمَا أَذْرَاكَ مَا سَقَر ﴾ (8) .

فمن سياق الوعيد والتهديد والتخويف ، جاء صوتا (السين والصاد) وقد مثلا تجانساً صوتياً بين الأصوات في العبارة القرآنية . وهما من حروف الصفير تبعاً لجرسها (9)

(1) ينظر : الصوت اللغوي في القرآن : 168-169 .

(2) موسيقى الشعر ، د. إبراهيم أنيس ، المطبعة الفنية الحديثة ، القاهرة ، ط4 ، 1972م : 328 .

(3) سورة المعارج : 15-17 .

(4) الميزان في تفسير القرآن : 10/20 .

(5) أوحى بذلك صوت الظاء الذي صور لنا النار وهي مغتظة وغاضبة ينظر: من بلاغة القرآن : 69 .

(6) أدب الشريعة الإسلامية، د.محمود البستاني، مؤسسة السبطين العالمية، قم، إيران، ط1، 1424هـ-ق.

1382 هـ ش : 98

(7) ينظر : في ظلال القرآن : 280/8 .

(8) سورة المدثر : 26-27 .

(9) ينظر : جرس الألفاظ : 13 .

وهي من ((الأصوات ذات الجرس الصارخ يلحظ لدى استعراضها أنها تؤدي مهمة الإعلان الصريح عن المراد في تأكيد الحقيقة ، وهي بذلك تعبير عن الشدة حيناً وعن العناية بالأمر حيناً آخر، مما يشكل نغماً صارماً في الصوت وأزيزاً مشدداً لدى السمع)) (1).

فعندما تعطي هذه الأصوات نغماً صارماً ودوياً شديداً للعبارة القرآنية ، يتناسب مع الوعيد الذي جاءت به هذه العبارة والله العالم .

إذن الجرس في آيات الخوف جرسٌ عنيف وقوي موح بالمعنى يثير الخوف والرعب في النفوس . ومن خلال ما أوردنا من شواهد نجد أن هناك ربطاً بين جرس الألفاظ ودلالاتها وقد أشار إلى هذا المعنى الكثير من علماء العربية وفي طليعتهم اللغوي ابن جني، حيث قال: ((إن كثيراً من هذه اللغة وجدته مضاهياً بأجرام حروفه أصوات الأفعال التي عبر عنها ألا تراهم قالوا قضم في اليابس وخضم في الرطب وذلك لقوة القاف وضعف الخاء فجعلوا الصوت الأقوى للفعل الأقوى والصوت الأضعف للفعل الأضعف)) (2).

فقد أرجع الكثير من خصائص الألفاظ في الاستعمال إلى أجرامها . ونلاحظ في آيات الخوف الإيقاع الموسيقي الرائع والمؤثر في النفس أبلغ تأثير ، والذي ينشأ من تلاؤم وتآلف أصوات الحروف في اللفظة الواحدة ، ومن تآلف الكلمات حين تنتظم في التركيب. ولما كان القرآن القمة في الجانب الصوتي ، فقد عدّ بعضهم هذه الموسيقى وجهاً من وجوه إعجازه (3) .

على أن هذا التناغم الصوتي بين الأصوات في اللفظ المفرد وبين الألفاظ في التركيب لا تتم جماليته الموسيقية إلا بالاتحاد المتناسق بين أصوات اللفظ ومدلوله في المعنى (4)، وهذا ما لحظناه من خلال الشواهد المتقدمة من آيات الخوف . وكذلك نلاحظ الإيقاع المتكوّن من تجانس الأصوات في العبارة القرآنية وهو إيقاع صوتي مؤثر في النفس ، قد شارك في تصوير الحدث القرآني وتجسيده .

(1) الصوت اللغوي في القرآن : 179 .

(2) الخصائص ، أبو الفتح عثمان بن جني ، تح : عبد الحميد الهنداوي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط2 ، 1424هـ-2002م : 65/1 .

(3) ينظر : إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي ، مطبعة الاستقامة ، القاهرة ، ط1، 1375هـ-1956م : 244 .

(4) ينظر : الفن والأدب ، د.ميشال عاصي ، المكتب التجاري للطباعة والنشر ، بيروت ، ط2، 1970م : 60 .

المبحث الثاني

اتساق اللفظ مع المعنى

لم يُعبّر القرآن الكريم بلفظ يمكن أن يحل لفظ آخر محله ، فهو يعتني باختيار ألفاظه ، لما بين الألفاظ من فروق دقيقة في دلالتها ، فيستعمل كلاً حيث يؤدي معناه في دقة فائقة حتى إننا نؤمن بأن اللفظة خلقت لهذا المكان بعينه⁽¹⁾.

وقد ذُكر أن أعرابياً مرهف الحس ، عندما سمع الآية من سورة التكاثر ﴿الْهَآكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾⁽²⁾ قال على فطرته الصحراوية وبوحي من بداوته الصافية: ((بُعث القوم للقيامة ورب الكعبة ، فإن الزائر منصرف لا مقيم))⁽³⁾.

فقد أدرك هذا الأعرابي بحسه البلاغي فلسفة تخيير هذا اللفظ وهو (زرتم) دون سواه. فالعرب اهتموا بألفاظهم ووضعوا لها شروطاً لتأدية المعاني كاملة قال ابن جني: ((إعلم أنه لما كانت الألفاظ للمعاني أزمة ، وعليها أدلة ، وإليها موصلة ، وعلى المراد منها محصلة غُنيت العرب بها))⁽⁴⁾ ومن خلال اهتمامهم بالألفاظ جاء اهتمامهم بالمعاني؛ لأنّ ((اللفظ جسمٌ روحه المعنى وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم تضعف بضعفه وتقوى بقوته))⁽⁵⁾ وقد ذكر هذا المعنى من قبل الجاحظ عندما قرن اللفظ بالمعنى فقال: ((لكل ضرب من الحديث ضرب من اللفظ ولكل نوع من المعاني نوع من الأسماء فالخفيف للخفيف والجزل للجزل والإفصاح في موضع الإفصاح))⁽⁶⁾ فكل لفظ موضوع بإزاء ما يناسبه من المعنى فـ ((للمعاني ألفاظٌ تُشاكلها فتُحسنُ فيها وتُقبُحُ في غيرها))⁽⁷⁾ فتلاؤم اللفظ مع معناه يُعد من مقاييس جودته ، وإذا ما فقد هذا التلاؤم وهذا الانسجام مع المعنى كان ذلك سبباً في رداءته .

وإذا ما جئنا إلى آيات الخوف في القرآن الكريم وجدنا ألفاظها قد عبّرت عن معانيها خير تعبير وعلى أحسن وجه وأتمه ، فلو رفعنا أية لفظة لما وجدنا أخرى تؤدي معناها ووقعها في النفس وموسيقاها الذي جاءت هي عليه .

فالآيات التي سيقّت في التهويل والوعيد وتصوير مشاهد العذاب جاءت كلماتها قوية رهيبة ، فالقرآن يهيب للمعاني ألفاظاً متناسقة الإيقاع ، ويرسم صورة حية لهذه المعاني ،

(1) من بلاغة القرآن : 57 .

(2) سورة التكاثر : 1-2 .

(3) البحر المحيط ، محمد بن يوسف أبو حيان الأندلسي ، تح الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد ~~ود مع~~ ^{وض} ،

دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط 1 ، 1422هـ-2001م : 55/8 .

(4) الخصائص : 317/1 .

(5) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني ، دار صادر ، بيروت ، ط 1

، 1424هـ-2003م : 111/1 .

(6) الحيوان ، تح : عبد السلام محمد هارون ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ، مصر ، ط 2 ، 1385هـ-

1965م : 39/3 .

(7) عيار الشعر : 11.

تكسبها جمالاً وقوة ذات هدف واتجاه معين لها في النفس أثرٌ كبير . فخصائص الألفاظ تنطبق على المعاني . ويزيد على ذلك النسق الذي يسمح لكل لفظ بأن تتسع شحنته من الإيقاع والصور والظلال (1) .

قال تعالى : ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَتَمَازِيَةٍ أَيَّامٍ حُسُوماً فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعِجَزُوا نُخْلٍ خَاوِيَةٍ * فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ﴾ (2) .

فنرى في هذه الآيات المباركات تصويراً لمواقف شديدة ورهيبة ، ومشاهد مخيفة ، مشهد العاصفة المزمجرة المدمرة التي أهلكت عاداً وجاءت الألفاظ لتلائم هذه المعاني في قوتها . فقد استعمل القرآن لفظة (ريح) ولم يأت بـ (رياح) ؛ لأنه في العقوبات غالباً ما يستعمل ريح وليس رياح ، وعلل الدكتور أحمد بدوي ذلك بقوله : ((إن ريح الشر ، تهب مدمرة عاصفة ، لا تهدأ ولا تدع الناس يهدءون ، فهي لاستمرارها ريح واحدة لا يشعر الناس فيها بتحول ولا تغير ، ولا يحسون بهدوء يلزم بها ، فهي متصلة في عصفها وشدة تحطيمها وذلك مصدر الرهبة منها والفرع)) (3) . وجاء بلفظة (صرصر) من مادة صرر وهي كما عبر عنها الراغب ((ترجع إلى الشدة لما في البرودة من التعقد)) (4) وتكرارها في لفظة صرصر ((قد أضفى صيغة الشدة ، وجسد صورة الرهبة ، فلا الدفاء بمستنزل ، ولا الوقاية متيسرة ، وذلك ما يهد كيان الإنسان عند التماسه الملجأ فلا يجده أو النجاة فلا يصل شاطئها)) (5) . ثم وصف هذه الرياح بالعاتية أي الشديدة ، والعنو أبلغ منه ؛ لأنّ العنو شدة فيها تمرد (6) ، فقد عنت على خزانها في شدة الهبوب (7) . وكذلك لتناسب عتو عاد وجبروتها المحكي في القرآن ، وقد كانوا يسكنون الأحقاف في جنوب الجزيرة العربية بين اليمن وحضرموت وكانوا أشداء بطاشين (8) ، وهذه الرياح الصرصر العاتية ﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَتَمَازِيَةٍ أَيَّامٍ حُسُوماً .. ﴾ أي متتابعة ليس لها فترة كأنه تتابع عليهم الشر حتى استأصلهم وقيل قاطعة قطعهم قطعاً حتى أهلكتهم (9) . فتركبهم صرعى مجذلين ﴿ كَأَنَّهُمْ أُعِجَزُوا نُخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾

أي أصول نخل خاوية فارغة جوفاء (10) ، وإنه لتشبيه مؤثر في النفس حين نرى تلك الأجسام الضخام وقد صارت بفعل العذاب جثثاً مبعثرة كبقايا جذوع النخل النخرة الخاوية

(1) ينظر : أساليب البيان في القرآن ، سيد جعفر الحسيني ، مؤسسة الطبع والنشر وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي ، طهران ، ط1 ، 1413 هـ ق : 173 .

(2) سورة الحاقة : 6-8 .

(3) من بلاغة القرآن : 139 .

(4) مفردات ألفاظ القرآن : مادة صرر .

(5) الصوت اللغوي في القرآن : 187 .

(6) ينظر : النكت في إعجاز القرآن للرماني ضمن ثلاث رسائل : 80 .

(7) وفيما يروى أنه ما يخرج من الرياح شيء إلا عليها خزان يعلمون قدرها وعددها وكيلاها حتى كانت التي أرسلت على عاد فاندفق منها فهم لا يعلمون قدر غضب الله فلذلك سميت بالعاتية ، ينظر : مجمع البيان 435/10 .

(8) ينظر : في ظلال القرآن : 251/8 .

(9) ينظر : مجمع البيان : 435/10 .

(10) ينظر : م. 435/10 .

الملقاة على الأرض ..

﴿ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ﴾

فلم يبق من قوم عاد أحد ولم يبق من مساكنهم شيء، فقد أفنت هذه الريح المدمرة الشديدة جميع معالم الحياة لهؤلاء القوم واستأصلتها⁽¹⁾.

فمشهد الريح الباردة المدمرة المستمرة ومشهد القوم صرعى ﴿ كَانَتْهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ من المشاهد التي تضمنت ألفاظاً تناسب تلك المعاني الرهيبة ، وهي من مشاهد الأخذ العنيف والشديد التي وردت في سورة الحاقة تلك السورة التي قل أن يتلقاها الحس إلا بهزة عنيفة⁽²⁾.

وقد عدّ العلماء استعمال القرآن لأفصح الألفاظ بأحسن المواقع متضمنة أسمى المعاني دلالة على الإعجاز القرآني حتى أوضح الخطابي هذا بقوله: ((اعلم أن القرآن إنما صار مُعْجَزاً ؛ لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف متضمناً أصح المعاني))⁽³⁾، وقد عدّ الخطابي اختيار اللفظ المناسب للموقع المناسب عمود البلاغة القرآنية⁽⁴⁾.

فاختيار القرآن للألفاظ جاء مناسباً للمعاني التي ساقها، فإذا كان المعنى وعيداً أو تخويفاً أو تهديداً أو زجراً و مسوقاً للتعبير عن العذاب يأتي بالألفاظ ذات الوقع الشديد والمعنى المهول ، وإذا كان المعنى وعداً وبشارة أتى بالألفاظ الرقيقة العذبة . قال تعالى : ﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَادْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾⁽⁵⁾.

فقد استعمل القرآن لفظ الجبل ولم يستعمل لفظ الطور مع أن لفظ الطور ورد في آيات كريمة أخرى ؛ لأن التهديد في سورة الأعراف أشد ، فجاء بلفظ الجبل دون الطور ، فالجبل اسم لما طال وعظم من أوتاد الأرض⁽⁶⁾ ، ولا يشترط في الطور ذلك ، فالجبل أعظم من الطور ، ولذلك استعمل (نتقنا) مع الجبل ولم يستعمل (رفعنا) لما في النتق من التخويف والتهديد ، ذلك أن معنى النتق هو الجذب والزعزعة والاقتلاع⁽⁷⁾ ، ومعناه أيضاً هو أن يقلع الشيء فيرفعه من مكانه ليرمي به ، ونتقنا الجبل أي قلعناه من أصله فرفعناه فوق بني إسرائيل⁽⁸⁾ ، كأنه ظلة وظنوا أنه سيسقط على رؤوسهم فانتابهم خوف واضطراب شديد وفزع .

فإن في نتق الجبل من القوة والإخافة والتهديد ما ليس في رفع الطور ، فإن يُرْعَزَ الجبل ويقلع من مكانه ويرفع ليرمي به عليهم لهو أمر مرعب ومخيف ، وفيه من القوة والشدة

(1) ينظر : الأمثل : 387/14 .

(2) ينظر : في ظلال القرآن : 251/8 .

(3) بيان إعجاز القرآن : 24 .

(4) ينظر : م. ن 26 .

(5) سورة الأعراف : 171 .

(6) ينظر : لسان العرب : مادة جبل .

(7) ينظر : م. ن : مادة نتق .

(8) ينظر : مجمع البيان : 614/2 .

ما ليس في رفعه (1). وقوله تعالى: ﴿كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ * نَارُ اللَّهِ الْمَوْقَدَةُ * الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْنَدَةِ﴾ (2).

في الآيات تهديداً ووعيداً شديداً، وجاءت الألفاظ لتلائم هذه المعاني في قوتها وشدة وقعها ، ف ﴿كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ﴾ ردع للإنسان عن حساباته الخلود بالمال والنبد هو القذف والطرح أي ليقذفن وليطرحن في الحُطَمَة ، وهي النار التي من شأنها أن تحطم كل ما يُلقى فيها (3).

وقوله تعالى: ﴿نَارُ اللَّهِ الْمَوْقَدَةُ﴾ فهي نارُ الله بعظمته وجلاله ، وشديد سطواته وعريض كبريائه ، ونسبتها إلى الله ؛ لأنه هو الذي أوقدها ، ولعلَّ إيقاد النار غير إشعالها بل إهابها وتشديدها ، قالوا : إنَّ الله عز اسمه قد أوقد عليها ألف عام ، وألف عام حتى اسودت انتظاراً لأعداء الله (4) . وهي نارٌ عظيمة ومؤججة ليست كسائر النيران وإضافتها إلى الله عز اسمه يوحي بأنَّها نار فذة غير معهودة فيخلع عليها رهبة مفزعة رعبية ، وهي تطلُّع على فؤاد الإنسان الذي ينبعث منه الهمز واللمز وتكمن فيه السخرية والكبرياء والغرور (5).

ففرى من ذلك التهديد الإلهي والوعيد للذين يهينون الناس بهمزهم ويسخرون منهم بلمزهم ، بأنَّهم سيُلْقَوْنَ نبذاً في نار جهنم التي تحطّمهم ، وتسيطر على أفئدتهم كما يحطّمون شخصية الإنسان ، ويلهبون النار في الضمائر والأفئدة (6). ﴿الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْنَدَةِ﴾ والأفئدة جمع فؤاد وهو القلب ، وإطلاع النار عليها هو أن تعلوها وتشتمل عليها (7).

ويرى العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي أنَّ المراد بـ (الفؤاد) في القرآن مبدأ الشعور والفكر من الإنسان وهو النفس الإنسانية (8). وخصص القرآن (الأفئدة) بالاحتراق ربما ؛ لأنَّها مركز النوايا ومجمع العواطف والشهوات ومحل العقائد (9)، وتقضي العدالة ألا يُعَذَّبَ المجرم إلا بمقدار ما انطوى عليه قلبه من الشر . فنارُ جهنم نارٌ شاعرة تعرف ماذا في قلوب المجرمين فتعذبهم بقدر ما فيها من كفر ونكد (10). وهذا تهديدٌ آخر في الآية يُبين أنَّ كتمان السرائر والأحقاد والعقائد

(1) ينظر : بلاغة الكلمة في التعبير القرآني ، د.فاضل السامرائي ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ط1، 2000م: 99 .

(2) سورة الهمة : 4-7 .

(3) ينظر : مجمع البيان : 688/10 .

(4) ينظر : من هدى القرآن العلامة السيد محمد تقى المدرسي ، مكتب العلامة المدرسي ، ط1، 1410هـ : 348/18 .

(5) ينظر : في ظلال القرآن : 663/8 .

(6) ينظر : إشراق من القرآن الكريم ، آية الله السيد محمود الطالقاني ، تر:د.عباس الترجمان ، مؤسسة الهدى للنشر والتوزيع ، طهران ، ط1 ، 1421هـ - 2000م : 269/4 .

(7) ينظر : البحر المحيط : 510/8 .

(8) ينظر : الميزان في تفسير القرآن : 360/20 .

(9) ينظر : الكشف : 12 .

(10) ينظر : من هدى القرآن : 348/18 .

الفاصلة في القلوب والصدور لا ينجي من عذاب جهنم ؛ لأن نارها ليست عشواء تلتهم كل ما يُلقى فيها كما تلتهم الهشيم وإنما تقدر - بمقدار دقيق - مدى استحقاق كل مجرم للعقاب (1). ويتبين من ذلك سيادة العدالة في جهنم فلا ينال أي مجرم أكثر من استحقاقه .
فالقرآن الكريم يعتني باختيار ألفاظه ، فقد تميزت من بين سائر الألفاظ العربية بجودة تركيبها وتعابيرها عن المعنى خير تعبير ، فيستعمل كل سياق ما يناسبه من ألفاظ .
قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ...﴾ (2) .

وكون الأرض خاشعة أنها غيراء دارسة متهشمة النبات أي كأن حالها حال الخاضع المتواضع ، وقيل : ميتة يابسة لا نبات فيها (3).
ذكر حال الأرض بأنها خاشعة ولم يذكر غير ذلك كأن تكون هامة أو يابسة وغيرها من الألفاظ التي تشبه هذا المعنى (4)، ذلك أن جو الآيات الكريمة هنا هو جو عبادة وخشوع وسجود يتسق معه تصوير الأرض بأنها خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ، ثم لا يزيد على الاهتزاز والإرباء هنا الإنبات والإخراج ؛ لأنه لا محل لهما في جو العبادة والسجود (5) .

ولنر سياق الآيات المباركة ، قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ * فَإِنْ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنْ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (6) .

فالجو العام لسياق الآيات هو جو العبادة والخشوع والسجود ، فناسب ذلك تصوير الأرض بأنها خاشعة ، ومجيء ((اهتزت وربت)) لتخليان حركة الأرض بعد خشوعها ، وهذه الحركة هي المقصودة هنا ؛ لأن كل ما في المشهد يتحرك حركة العبادة ، فلم يكن من المناسب أن تبقى الأرض وحدها خاشعة ساكنة ، فاهتزت لتشارك العابدين المتحركين في المشهد حركتهم ، ولكي لا يبقى جزء من أجزاء المشهد ساكناً وكلّ الأجزاء تتحرك من حوله ، وهذا لون من الدقة في تناسق الحركة المتخيّلة (7) .

وفي قوله تعالى: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ (8) .

(1) ينظر : خواطري عن القرآن ، السيد حسن الشيرازي، دار العلوم، بيروت، لبنان، ط1، 1414- 1994 : 435/3.

(2) سورة فصلت : 39 .

(3) ينظر : مجمع البيان : 21 / 9 .

(4) فقد وصفها القرآن بالهامة كما في سورة الحج : 5 .

(5) يُنظر : التصوير الفني في القرآن : 96 .

(6) سورة فصلت : 37-39 .

(7) ينظر : التصوير الفني في القرآن : 96-97 .

(8) سورة مريم : 45 .

نرى الحوار الهاديء في عبارة كلها رحمة أطلقها نبي الله إبراهيم عليه السلام لأبيه آزر (1). ليهديه إلى سبيل الله وينهاه عن معصيته ، فلم يقل : (عذاب من الله) وإنما قال : ((عذاب من الرحمن)) ، فكونه تعالى مصدراً لكل رحمة ونعمة ((لهو الموجب لقبح الإصرار على معصيته .. وهو الباعث على الخوف من عذابه الذي يلزم إمساك الرحمة وغشيان النعمة والشقوة)) (2) فعندما تنقطع الرحمة فلا يبقى لتولي أمر الإنسان إلا الشيطان فيكون له ولياً .

ولننظر إلى دقة التعبير في النص القرآني ، حيث حسن مواقع الألفاظ ضمن السياق وقد أخذ بعضها برقاب بعض وكذلك مناسبتها للمعاني في الآية وجو السورة العام ، فلنر كيف أنه لما ذكر المس ناسب ذلك ذكر الرحمة بخلاف قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمُونَ ﴾ (3) فجوّ السياق كله رحمة وهو جو سورة مريم العام أيضاً فقد ابتدأت بذكر الرحمة ، قال تعالى : ﴿ كهيعص * ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ﴾ (4) وانتهت بذكر الرحمة قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴾ (5) ، وكثُر فيها اسم الرحمن فلا تدانيها في ذلك سورة من السور (6).

وقوله تعالى : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهُ فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمُ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا * وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴾ (7) وهنا مشهد عذاب آخر مشهد هلاك ثمود بتكذيبهم نبي الله صالحاً عليه السلام وعقر الناقة والتي هي آية من آيات الله سبحانه ، وهو مشهد رسمه التعبير القرآني ببنية عالية ، فاختار الألفاظ والحروف جاء ليناسب هذا المشهد ، فالقرآن لم يذكر حرف العطف ثم ولو مرة واحدة في مواضع الفاء المتكررة أربع مرات في النص الكريم ؛ لأنّ الفاء تفيد الترتيب مع التعقيب وجاءت هنا لتصور مشهد شديد الحركة ، متلاحق الأحداث فلا ضرورة للتراخي الذي تفيدته ثم (8) .

ومن الألفاظ في النص لفظ (دمدم) الذي جاء ليصور المعنى خير تصوير فد (دمدم عليهم ربهم) أي دمر عليهم ربهم بسبب ذنبهم وقيل أطبق عليهم بالعذاب وأهلكهم (9). فقد شارك هذا اللفظ في رسم ذلك المشهد المروع المخيف وهو مشهد عذاب ثمود وهلاكهم ومحو آثارهم ، وكذلك يوحي هذا اللفظ بما وراءه حيث المشهد الكئيب الذي يرتسم بعد الدمار العنيف والشديد ، مشهد هلاك القوم وتسوية أرضهم ((بمعنى تسطيحها

(1) آزر ليس أبوه وإنما عمه وقد سماه القرآن أباً له ؛ لأنه تكفل بتربيته .

(2) الميزان في تفسير القرآن : 59/14 .

(3) سورة الأنعام : 47 .

(4) سورة مريم : 2-1 .

(5) سورة مريم : 96 .

(6) ينظر : التعبير القرآني ، د.فاضل السامرائي ، دار الكتب للطباعة والنشر ، جامعة الموصل ، العراق :

222-223 .

(7) سورة الشمس : 14-15 .

(8) ينظر : أساليب البيان في القرآن : 173 .

(9) ينظر : مجمع البيان : 636/10 .

وإعفاء ما فيها من ارتفاع وانخفاض)) (1) وهو مشهد يثير الخوف في النفوس من عاقبة الظالمين المكذبين الكافرين وبذكر خبرهم وعبرة وعظة .
وقوله تعالى: ﴿ وَبَلِّغْ لِلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾ (2)

ولفظ الويل ذكر في القرآن الكريم لأشخاص ملوثين بنوع من الانحراف الفكري والعقائدي والأخلاقي الذي مصدره الذنوب والفساد كالشرك والكفر والتكذيب والظلم والقسوة والافتراء ، وإذ يعرض القرآن أحد مصادر هذه الذنوب وجذورها في غصب الحقوق المالية والانحراف عن النظام وعلاقاته القانونية العادلة الفطرية ، فقد جاء بلفظ (الويل) للأفراد والطبقات الذين يأخذون حق الناس بصور مختلفة ويختطفون أموال الأشخاص العامة ويقومون بالاختلال بالعلاقات العادلة ومن هؤلاء المطففون (3)

، والتطفيف نقص المكيال والميزان ، وقد نهى الله تعالى عنه وسماه إفساداً في الأرض (4). و (ويل للمطففين) حرباً أعلنها الله عز وجل على المطففين وهو وعيد مدوي يثير الخوف في النفوس فيبعثهم على ترك هذا الانحراف في السلوك والرجوع إلى الصراط المستقيم ، ويجوز أن يكون (ويل للمطففين) هو دعاء على المطففين (5) ، فالويل هو الهلاك سواء أكان المراد تقرير أن هذا الأمر مقتضى أم أن هذا دعاء فهو في الحالتين واحد فالدعاء من الله قرار (6).

ثم بيّن تعالى حالهم وطريقة سلوكهم مع الناس مستعملاً حروفاً مناسبة لهذا الغرض .
قال تعالى ﴿ الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴾ (7) ، والاكتيال من الناس الأخذ منهم بالكيل وتعديته بـ (على) لإفادة معنى الضرر (8) . وهناك فرق من التعدية بـ (على) والتعدية بغيره كأن يكون (من) فـ ((اكْتَال منه لا تفيد ظلمه حقه وهضمه ماله بخلاف (اكْتَال عليه) فإن فيه معنى التسلب والاستعلاء وهذا في المطففين الذين كما بينهم القرآن إذا أخذوا من الناس أخذوا أكثر من حقهم وإذا أعطوهم أعطوهم أقل من حقهم ، ففيه إذن معنى التحكم والجور والظلم وهو أبلغ من (من) (((9).

ولننظر إلى التعبير اللطيف بعد هذا النص والذي يؤكد سلوكهم المنحرف قال تعالى: ﴿ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾ (10) والكيل إعطاؤهم بالمكيال قال: (كالوهم) و (وزنوهم) وهي لغة أهل الحجاز وعليه التنزيل ولم يقل: (كالوا لهم) أو (وزنوا لهم) وكلاهما جائز ((ولكن في حذف اللام معنى لا تؤديه إذا ذكرت قالوا وذلك

(1) الميزان في تفسير القرآن : 299/20 .

(2) سورة المطففين : 1-3 .

(3) ينظر : إشراق من القرآن الكريم : 246/3 .

(4) ينظر : الميزان في تفسير القرآن : 230/20 .

(5) ينظر : م.ن 230/20 .

(6) ينظر : في ظلال القرآن : 8 / 511 .

(7) سورة المطففين : 2 .

(8) ينظر : الميزان في تفسير القرآن : 230/20 .

(9) التعبير القرآني : 185 .

(10) سورة المطففين : 3 .

؛ لأنّ اللام تفيد الاستحقاق وهم لم يعطوهم حقهم فحذف اللام الدالة على الاستحقاق إشارة إلى أنّهم منعوهم حقوقهم ((⁽¹⁾ فنلاحظ من ذلك الاستعمال الفني الرائع للألفاظ والحروف جاء مناسباً مع المعنى المراد في الآيات المباركات .
هكذا نجد أنّ القرآن الكريم يختار الألفاظ التي عبّرت عن معانيها على أتم وجه وأحسنه فكل لفظة وضعت تؤدي نصيبها من المعنى ، ولذلك لا نجد في القرآن ترادفاً، بل فيه كل كلمة تحمل إلينا معنى جديداً⁽²⁾ . فالقرآن شديد الدقة فيما يختار من لفظ أو حرف يؤدي به المعنى ، ومن خلال تدبر آيات الخوف نجد أنّ ما من لفظ أو حرف منها يمكن أن يقوم مقام غيره ، فالألفاظ والحروف جاءت مناسبة للمعنى وجو السياق على أتم وجه بحيث لا يؤدي معناها غيرها .

المبحث الثالث

الفاصلة القرآنية

(1) معاني النحو ، د.فاضل السامرائي ، دار الفكر للطباعة والنشر ، عمان ، الأردن، ط2، 1423هـ-2003م:

45/3 .

(2) ينظر : من بلاغة القرآن : 57 .

عُرِّفت الفاصلة لغةً بأنها مأخوذة من مادة (فصل) ولها عدّة معانٍ منها ((البون بين شيئين ، والفصل القضاء بين الحق والباطل والفصل القطع والفاصلة الخرزة التي تفصل بين الخرزتين في النظام)) (1) .

أما في الاصطلاح فهي ((كلمة آخر الآية ، كفاية الشعر وقرينة السجع)) (2) ومناسبة تسميتها بالفاصلة ؛ لأنها ((ينفصل عندها الكلامان وذلك أن آخر الآية فصل ما بينها وما بعدها)) (3) .

ويتميز القرآن بالفاصلة من سائر الكلام ، وهي ليست سجعاً أو شبيهة به فالسجع هو الذي يُقصد في نفسه ثم يتبعه المعنى ، أمّا الفواصل فهي التي تتبع المعاني ولا تكون مقصودة في نفسها .

وقد عدّ الرماني فواصل القرآن بلاغة والأسجاع عيباً ؛ لأنّ الفواصل تابعة للمعاني ، وأمّا الأسجاع فالمعاني تابعة له (4) .

فمهمة الفاصلة القرآنية مهمة لفظية ومعنوية في وقت واحد ، وهي مهمة فنية خالصة ، فلا تفريط في الألفاظ على سبيل المعاني ، ولا اشتطاط بالمعاني من أجل الألفاظ ، بينما يكون للسجع في البيان التقليدي مهمة تنحصر بالألفاظ غالباً ، لذلك ارتفع مستوى الفاصلة في القرآن بلاغياً ودلالياً عن مستوى السجع فنياً وإن وافقه صوتياً (5) .

وللفاصلة أثرٌ في تحسين الكلام يقول الزركشي : ((وتقع الفاصلة عند الاستراحة في الخطاب ؛ لتحسين الكلام بها ، وهي الطريقة التي يبين بها القرآن سائر الكلام)) (6) فهي ليست مجرد انسجام ألفاظ وإنما معناها مرتبط بمعنى الآية ارتباطاً وثيقاً ، فوظيفة الفاصلة أنها تُلخص معنى الآية تلخيصاً يبرز به المعنى المراد منها ، بحيث تأتي مستقرة في مكانها ، متعلقةً بمعناها بمعنى الكلام كله تعلقاً تاماً ، بحيث لو طُرحت الفاصلة من الآية اختل المعنى واضطرب الفهم (7) ، لذا تُعدّ الفواصل في القرآن الكريم ركناً مهماً من أركان الآية لفظاً ومعنى ، ولها قيمتها في إتمام معنى الآية وتوضيح الصورة ، بالإضافة إلى ما تحمله من نغم إيقاعي وانسجام موسيقي فيما بينها فتكون ذات أهمية وتأثير كبيرين في نفوس سامعي القرآن الكريم والذين يتلونه . فالقرآن ((يختار الفاصلة مراعيّاً فيها المعنى والسياق والجرس وخواتم الآي وجوّ السورة ، ومراعيّاً الأمور التعبيرية والفنية الكثيرة التي يزر بها القرآن الكريم ، بحيث يُدرك من خلالها أنّه اختار هذه الفاصلة دون غيرها لسببٍ دعا إليها)) (8) .

وآيات الخوف جزء من ذلك البيان المعجز فالفاصلة ترد فيها وهي ((تحمل شحنتين ،

(1) لسان العرب : مادة فصل .

(2) البرهان في علوم القرآن ، الإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي ، تح : محمد أبو الفضل إبراهيم ، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه ، ط1 ، 1376 هـ - 1957 م : 53/1 .

(3) م.ن : 54/1 .

(4) ينظر النكت في إعجاز القرآن : 89 .

(5) ينظر : الصوت اللغوي في القرآن : 147 .

(6) البرهان في علوم القرآن : 53/1 .

(7) ينظر : م.ن 79/1 .

(8) التعبير القرآني : 211 .

شحنة من الوقع الموسيقي وشحنة من المعنى المتمم للآية ((⁽¹⁾). فمن شحنة النغم والإيقاع ختم أكثر الفواصل بحروف المد واللين وإلحاق النون والحكمة في ذلك كما يقول الزركشي : ((وجود التمكن من التطريب))⁽²⁾. و حكى سيبويه عن العرب أنهم ((إذا ترنموا فإنهم يلحقون الألف والياء والواو، ما ينون ، وما لا ينون ؛ لأنهم أرادوا مد الصوت))⁽³⁾. فورود النون بعد حروف المد متواكب في القرآن حتى صار ذلك سرّاً صوتياً متجلياً في جزء كبير من فواصل القرآن الكريم منه ما جاء في قوله تعالى : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ ﴾⁽⁴⁾.

فقد ورد الألف وهو حرف مد مقترناً بالنون وهما علامة للرفع ودلالة على التثنية لتتسجم الفاصلة مع السياق الموسيقي للفواصل في السورة المباركة فضلاً عن التكامل بالمعنى . أما الواو فقد وردت مقترنة بالنون في أجزاء عديدة ومتنوعة من فواصل طائفة كبيرة من السور القرآنية كما في قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمُونَ * وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾⁽⁵⁾ فالمد بالواو وغنة النون أحدث توافقاً موسيقياً رائعاً بين فواصل الآيات المباركات ، فضلاً عن المعنى المتمم لمعنى الآيات ، فهو عندما ذكر إتيان عذاب الله بغتة أو جهرة جاء بفاصلة (الظالمون) حيث إنها تناسب هذا الوعيد الشديد والظالمون هم من يستحق الهلاك ، أما عندما ذكر مس العذاب جاء بفاصلة (يفسقون) والظلم أشد من الفسق فناسب مجيء كل فاصلة في مكانها المناسب .

ووردت الياء مقترنة بالنون في أبعاد كثيرة من فواصل الآيات القرآنية قال تعالى: ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ * لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَنَّكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ * إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴾⁽⁶⁾.

فالياء والنون في الفاصلة أحدثا انسجاماً موسيقياً رائعاً بين الآيات . وختم الفواصل بحروف المد واللين وإلحاق النون شكّل ظاهرة بارزة في صيغ تعامل القرآن الكريم مع هذه الحروف ، فحروف المد والنون تحمل ألحاناً إيقاعية تختلف عن غيرها فتساعد وتساهم – والله العالم – في رسم الحدث القرآني ، وخاصة النون والذي تختتم أكثر الفواصل به ، فهو يثير في النفوس جواً من الوقار والجلال والشجن ؛ ذلك أنّ لصوته ((مزية صوتية ظاهرة في الغنة ، والتمكن في التطريب لتناسب قداسة القرآن وقوة

(1) التعبير الفني في القرآن : 20 .

(2) البرهان في علوم القرآن : 68 / 1 .

(3) الكتاب ، أبو بشر عثمان بن قنبر الملقب بـ سيبويه ، تح : عبد السلام محمد هارون ، نشر مكتبة الخانجي ، القاهرة ، مصر ، ط3 ، 1408 هـ - 1988 م : 204/4 .

(4) سورة الرحمن : 46 .

(5) سورة الأنعام : 47-49 .

(6) سورة المائدة : 27-29 .

تأثيره وعمقه وعظمته في النفوس ((⁽¹⁾). ومن مصادر الموسيقى في الفاصلة بناؤها على الوقف ، فقد ((شاع مقابلة المرفوع بالمجرور وبالعكس وكذا المفتوح والمنصوب غير المنون))⁽²⁾؛ لأن نظام الفواصل يتطلب الوقوف على الآيات بالسكون ، ولا تتم موسيقى الفواصل بغير ذلك عند اختلاف حركة روي الفاصلة⁽³⁾. منها ما جاء في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ * وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾⁽⁴⁾ والفواصل اختلفت في حركة الروي فقد قبل المنصوب (الثقال) بالمجرور (المحال) وقد بُنيت هاتان الفاصلتان على الوقف مراعاةً للانسجام الموسيقي .

والقرآن يُعنى بمسألة الانسجام الموسيقي بين الفواصل ونجد ذلك واضحاً في آياته ؛لأنه يؤدي إلى التأثير في النفوس .

فنراه يقدم ما حقه التأخير ويؤخر ما حقه التقديم انسجماً مع بقية الفواصل ، ولقصد تحسين نظم الكلام قال تعالى: ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى ﴾⁽⁵⁾ .

فقد أُخّر الفاعل (موسى) هنا لتحسين نظم الكلام ومراعاةً للنسق الموسيقي للفواصل في سورة طه والتي تتكامل من خلالها المعاني ولو لم تراعى الفواصل لحدث الخلل أي إذا كانت الجملة (فأوجس موسى في نفسه خيفة) وإذا قرأنا هذا التعبير مع الآيات السابقة واللاحقة ، وجدنا خروجاً عن النسق ونفرة لا تلتئم⁽⁶⁾.

ويذكر الزركشي أنّ للتأخير حكمة أخرى ، وهي أنّ النفس تتشوق لفاعل (أوجس) ، فإذا جاء بعد أن أُخّر وقع له موقع في النفس⁽⁷⁾.

ومنه ما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ ﴾⁽⁸⁾ فأخّر الفاعل انسجماً مع بقية الفواصل في سورة القمر ، تلك السورة التي جاءت فواصلها منسجمة ومتناغمة أكمل انسجام والطف تناعم مع العناية الدقيقة بالمعاني المرادة .

لقد كان للتقديم والتأخير دورٌ في الانسجام الموسيقي بين الفواصل وما لذلك من أثر كبير في النفس .

وقد يحذف التعبير القرآني حرفاً ما في الفاصلة ، رعايةً للبعد الصوتي ، وعنايةً بالنسق القرآني⁽⁹⁾ كما في قوله تعالى: ﴿ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ * يَوْمَ تَوَلُّونَ مُدْبِرِينَ

(1) الدلالة الصوتية في القرآن الكريم : 45 .

(2) البرهان في علوم القرآن : 1 / 99 .

(3) البناء اللغوي في الفاصلة القرآنية عند الفراء في كتابه (معاني القرآن) ، د. علي عبد الله العنبي ،

مجلة كلية التربية ، جامعة ديالى ، ع15 ، 2003م : 82 .

(4) سورة الرعد : 12-13 .

(5) سورة طه : 67 .

(6) ينظر : من بلاغة القرآن : 113-114 .

(7) ينظر : البرهان في علوم القرآن : 62/1 .

(8) سورة القمر : 41 .

(9) ينظر : الصوت اللغوي في القرآن : 152 .

مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿١﴾ .
حيث حذف حرف الياء من الفاصلة (التناد) وهو حرفٌ من أصل الكلمة انسجماً مع بقية الفواصل .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ * وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ (2) فحذفت ياء المتكلم من فاصلة (وعيد) رعايةً للفواصل السابقة واللاحقة لها، على موسيقى الآيات . وكذلك انتهاء الفواصل بحروف المد والذال الذي يتقلقل عند الوقف يثير الخوف في النفوس والله العالم .

وقد يُزاد حرف ما في الفاصلة رعايةً لنسق البيان القرآني ، ليوثر في النفس تأثيره الحساس ، منه ما جاء في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا * إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا * هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ (3) ، فقد زیدت الألف في فاصلة (الظنون) وهي تأتي للإطلاق من الفتحة . ولهذه الزيادة في الفاصلة فائدتان ، فمن الناحية الصوتية جاءت لتنسجم بها الفاصلة مع الفواصل الأخرى ، وتناسب جو السورة العام . ومن جهة المعنى فقد ناسبت زيادة الألف – ألف الإطلاق – الظنون المختلفة والتي ظنها من كان في جيش النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) في غزوة الخندق ، جاء في مجمع البيان ((ظن بعضكم بالله النصر وبعضكم آيس وقنط ، وقيل : تظنون ظنوناً مختلفة فظن المنافقون أنه يستأصل محمد وظن المؤمنون أنه يُنصر)) (4).

ولنأخذ سورة الحاقة وننظر إلى (السكت) في إضافتها وإنارتها إلى جملة من فواصل آياتها قال تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ * فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَفْرَأُوا كِتَابِيَّةً * إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَّةً * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ * فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ * كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ * وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتِ كِتَابِيَّةً * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَّةً * يَا لَيْتَهَا كَانَتْ الْقَاضِيَةَ * مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَّةً * هَلْكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةً ﴾ (5)

فنقف خاشعين مبهورين ، تملكنا هزة من الأعماق ونحن نأخذ بهذا الوضع الموسيقي الحزين ، المنبعث من أقصى الصدر وأواخر الحلق فتتقطع الأنفاس ، وتتهجد العواطف من واجمة ، متفكرة ، متطلعة ، فتصافح المناخ النفسي المتفائل حيناً والمتشائم حيناً آخر ، ونحن فيما بينهما بحالة متأرجحة بين اليأس والرجاء ، والأمل والفرع ، والخشية والتوقع (6).

فالفواصل (كتابيه ، حسابيه ، حسابيه ، ماليه ، وسلطانيه) زیدت فيها هاء السكت

(1) سورة غافر : 32-33 .

(2) سورة إبراهيم : 14-15 .

(3) سورة الأحزاب : 9-11 .

(4) مجمع البيان : 439/8 .

(5) سورة الحاقة : 18-29 .

(6) ينظر : الصوت اللغوي في القرآن : 153 .

انسجماً وتناسقاً مع بقية الفواصل المختومة بالتاء القصيرة و((التي اقتضى السياق نطقها هاء للتوافق)) (1) ، وبذلك يتواصل النغم بالنغم ويزداد روعة وتناسقاً فيكون شجياً ومؤثراً في الأسماع والأفئدة .

والفاصلة – وإن كانت جزءاً من النغم – متقيدة بالمعنى الذي يأتي به السياق والوضع النفسي الذي يريد أن يشيعه القرآن الكريم للسامع ، لذلك قد تتغير بعض الفواصل والموسيقى المتناغمة من أجل نغمة أخرى مختلفة عن سبقتها من الفواصل والتي تليها، وذلك لتصوير معنى قد يفوت لو جعلت هذه الفواصل متناغمة مع بقية الفواصل في السورة من ذلك ما جاء في سورة مريم عندما ذكر تعالى قصة النبي زكريا وابنه يحيى (عليهما السلام) ، ثم قصة مريم وعيسى (عليهما السلام) حيث جاءت الفاصلة في هذه القصص بروي واحد قال تعالى : ﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا * إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا * قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا .. ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ اتَّخَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا * فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا * قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ﴾ (2) إلى أن تنتهي القصتان على فاصلة ذات روي واحد ثم تتغير الفاصلة بعد أن أخذت مقدماتها للخروج في آخر قصة عيسى عليه السلام قال تعالى : ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا * وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا * وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْ لِي جَبَّارًا شَقِيًّا * وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ (3) .

ثم يخرج الكلام من فاصلة متوسطة يمدُّ حرف الألف فيها بمقدار حركتين إلى فاصلة تنتهي بحرف النون والميم قبلهما مد طويل ، وكأنما هو في هذه الآيات يُصدر حكماً بعد نهاية القصة ، مستمداً منها ، ولهجة الحكيم تقتضي أسلوباً موسيقياً غير أسلوب الاستعراض ، وتقتضي إيقاعاً قوياً رصيناً بدلاً من إيقاع القصة الرضي المسترسل (4) قال تعالى : ﴿ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ * مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * وَإِنَّ لِلَّهِ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ * فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ * أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِنَّا يُرْجَعُونَ ﴾ (5)

إن هذا الخروج في الفاصلة خروج لتنزيهه سبحانه ، وبيان قوة سلطانه وتحذيره للمتشككين بخلق عيسى من غير أب (6) ، وهو إنذار تخويف للظالمين بتحسرهم من يوم القيامة ((يوم تشدد الحسرات فكأن اليوم محض للحسرة لا شيء فيه سواها فهي الغالبة

(1) م.ن: 153 .

(2) سورة مريم : 16-18 .

(3) سورة مريم : 30-33 .

(4) ينظر : التصوير الفني في القرآن : 89 .

(5) سورة مريم : 34-40 .

(6) ينظر : تفسير الجلالين ، جلال الدين المحلي وجلال الدين السيوطي ، مكتبة النهضة ، بغداد ، ط5 ،

1988م : 399 .

على جوه والبارزة فيه)) (1). ثم يختتم هذه الفواصل بعبارة محذرة ومنذرة قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ للحساب والجزاء .
ولما أراد القرآن أن يذكر قصصاً أخرى عاد إلى السياق الأول في قصة إبراهيم (عليه السلام) قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيّاً﴾ (2) فالفاصلة هنا قد تغيرت بتغير المعنى والغرض الذي جاء به السياق .

فالفاصلة في آيات الخوف تأتي للاهتمام بما يقتضيه المعنى - معنى الآية أو السياق - علاوة على الانسجام الصوتي والموسيقى كغيرها من آيات القرآن الكريم ، فتؤدي دوراً مهماً في التعبير القرآني من ناحية الموسيقى والمعنى ، قال تعالى : ﴿لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ (3) .

فالفاصلة (يفقهون) مناسبة لهؤلاء المنافقين الذين يخافون من المسلمين أشد من خوفهم من الله ؛ لأنهم يشاهدون المؤمنين ويعرفونهم ولا يعرفون الله ، فلديهم قلة فقه فهم لا يفقهون الحق ولا يعلمون عظمة الله وشدة عقابه (4) ، لذا جاءت الفاصلة متمكنة في مكانها ملائمة لموضعها .

وقوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَاراً كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزاً حَكِيماً﴾ (5) .

الآية جاءت في سياق الوعيد والتخويف للكافرين الذين جحدوا بالحجج الإلهية وكذبوا بالأنبياء ودفعوا بالآيات الدالة على التوحيد وصدق نبي الله ، وهو وعيد لكل من يجحد بآيات الله ويكذب بالدعوة الصادقة .

سوف يلزمهم الله ناراً يحرقهم فيها ويعذبهم بها ليجدوا ألم العذاب ، وإنما قال تعالى: ((لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ)) ليبين أنهم كالمبتدأ عليهم فيحسون في كل حالة ألم لا كمن يستمر به الشيء فيكون أخف عليه ، والله لم يزل عزيزاً منيعاً لا يدافع ولا يمانع وإنه قادر لا يمتنع عليه إنجاز ما توعد به أو وعده ، وحكيماً في تدبيره وتقديره وفي تعذيب من يعذبه (6) .
فوجد الفاصلة متمكنة في مكانها ومستقرة في قرارها متوافقة معناها مع معنى الآية أتم التوافق ، وبذلك يتم معنى الآية وتكتمل صورتها .

ومنه قوله تعالى في إنذاره وتخويفه لقوم شداد في الخصومة وهم كفار مكة ، قال تعالى : ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً﴾ (7) أي تسمع لهم صوتاً فلم يأت بـ (صوتاً) وإنما جاء بـ (ركزاً) وتعني (الصوت الخفي) منه ركز لرمح إذا غُيِبَ طرفه في الأرض ، فدل ذلك على انقراضهم وفنائهم جميعاً (8) ، وكانوا أكثر من كفار مكة أموالاً وأضخم أجساماً وأشدّ خصومةً فلم يُغنهم ذلك إذا أراد الله إهلاكهم

(1) في ظلال القرآن : 436/5 .

(2) سورة مريم : 41 .

(3) سورة الحشر : 13 .

(4) ينظر : مجمع البيان : 333/9 .

(5) سورة النساء : 56 .

(6) ينظر : مجمع البيان : 81/3 .

(7) سورة مريم : 98 .

(8) ينظر : التفسير الكبير : 257 /11 .

وفناءهم فلا يحسّ منهم أحدٌ ولا يُسمع لهم ركز . وفي ذلك موعظة بليغة ؛ لأنّهم إذا تأملوا علموا أنّه لابد من زوال الدنيا والانتهاى إلى الموت خافوا ذلك وخافوا سوء العقاب في الآخرة وهذا الخوف هو باعث لهم للاهتمام إلى الدين الحنيف .

إذن ففاصلة (ركزاً) الدالة على الصوت الخفي مناسبة لصوت من أهلكه الله تعالى بسبب طغيانه وعناده ، كما أنّ هذا المعنى جاء متجانساً لبدء السورة – سورة مريم – والتي استهلّت بدعاء النبي زكريا (عليه السلام) بالصوت الخفي قال تعالى : ﴿...نَادَى رَبُّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾ (1) ولكن الأمر مختلف ؛ لأنّ خفاء الصوت في هذه الآية جاء تضرعاً وتأدباً مع الله من باب الرجاء والدعاء من نبي عارف بالله أما الآية الأخيرة من سورة مريم فالصوت الخفي من باب الاحتقار والإذلال ؛ لأنّ العذاب أرهقهم فجاء صوتهم خافياً لا يكاد يسمع أو يحسّ به أحد (2) .

فنرى كيف ناسب معنى الفاصلة معنى الآية أجمل تناسب ، فضلاً عن الانسجام الصوتي مع الفواصل التي سبقتها في السورة ، والانسجام والتناسق الرائع بين هذه الفاصلة والفاصلة التي جاءت في بداية السورة الأمر الذي يدل على جمالية التعبير القرآني . وقوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَأَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ (3) .

وقوله تعالى : ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ * وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ * وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكَذَّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ (4) . في الآيات تعزية لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) عن استهزاء الكفار به وتكذيبهم إياه فإنّهم وإن فعلوا ذلك فقد استهزأت الأمم السابقة بالأنبياء وكذبته فأمهلها الله للتوبة ثم أخذها بالعذاب والهلاك .

ففي كل وعيد وتخويف ذكر الفاصلة التي تناسبه والملائمة لمعنى الآية ، فقد ذكر في آية الرعد ((فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ)) وقال في الحج : ((فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ)) ؛ وذلك لأنّه ذكر في آية الرعد المستهزئين وذكر في آية الحج المكذبين ، والمستهزئون أعظم جرماً من المكذبين ؛ لأنّهم يجمعون السخرية إلى التكذيب فكان الوعيد لهم أشد (5) وفي آية الرعد صرّح بذكر العقاب ، خاصة وإنّ الفاصلة واقعة في سياق استفهام خرج للتفخيم والتعظيم أما في آية الحج فقد ذكر النكير ، وقد يقع النكير على ما لا عقاب فيه بالفعل وعلى ما فيه العقاب بالفعل ، وفي هذه الآية قد وقع على ما فيه العقاب فأبدلهم الله بالنعمة نقمة وبالحياة هلاكاً (6) ، وقد وقعت الفاصلة في سياق استفهام يفيد التقرير .

فذكر في كل آية الفاصلة التي تناسبها ، فإنّ ما في الفاصلة من معنى مرتبط بمعنى الآية ومترشح عنها .

(1) سورة مريم : 3.

(2) ينظر : البناء الفني في سورة مريم : 79 .

(3) سورة الرعد : 32 .

(4) سورة الحج : 42-44 .

(5) ينظر : التعبير القرآني : 204 .

(6) ينظر : مجمع البيان : 119/7 .

أنواع الفواصل

ذكر القدماء والبلاغيون أنّ فواصل القرآن الكريم على أنواع (1) :

مُحَرَّمٌ - الفواصل المتمثلة وتسمى المتجانسة (2)

هي التي اتفقت حروفها صفة ومخرجاً كفاصلة (الألف) في قوله تعالى : ﴿ فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى * سَيَذَكِّرْ مَنْ يَخْشَى * وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى * الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى * ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ﴾ (3) .

وفاصلة (الراء) في قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ * وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذَوْقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴾ (4) .

وفاصلة (اللام) في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَدَّعَوْا بِهِ وَلَوْ رَدُّهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلاً * فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكْفِ بِأَسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْساً وَأَشَدُّ تَنْكِيلاً ﴾ (5)

صَحْنٌ - الفواصل المتقاربة

هي التي تقاربت حروف رويها في المخرج ، وقد تفرّد بها القرآن الكريم ، لما فيها من الروعة والإعجاز البلاغي في حين لا يمكن ذلك في قوافي الشعر (6) .

كتقارب الدال مع الباء في قوله تعالى : ﴿ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ * مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ ﴾ (7) .

فالدال والباء مخرجاها متقاربان ووجود حرف المد (الياء) قبلها يجعل التقارب بيناً واضحاً ، ونسق القول واحداً (8) .

وتقارب اللام والراء في قوله تعالى : ﴿ قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفِ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا * أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً ﴾ (9) .

فاللام والراء حرفان متقاربان في المخرج اللفظي ووجودهما في الفواصل أضفى على التعبير القرآني جمالاً وتناسقاً بين آياته .

(1) ينظر : البرهان في علوم القرآن : 1 / 72 ، والإتقان في علوم القرآن ، جلال الدين السيوطي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط2 ، 1428هـ - 2007م : 464 .

(2) ينظر : النكت في إعجاز القرآن : 90 .

(3) سورة الأعلى : 9-13 .

(4) سورة فاطر : 36-37 .

(5) سورة النساء : 83-84 .

(6) ينظر : النكت في إعجاز القرآن : 91 .

(7) سورة ق : 24-25 .

(8) ينظر : الدلالة الصوتية في القرآن الكريم : 114 .

(9) سورة الإسراء : 56-57 .

وهذا التناسق يضيفه أيضاً حرفا النون والميم في الفواصل وهما صوتان أنفيان (1) فيهما غنة محببة (2) ، ويضيفان على الفاصلة جواً من الجلال والوقار .
قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا ينفقونها فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَبَشْرُهُمْ بَعْدَآبٍ أَلِيمٍ * يَوْمَ يُخْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَنُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كُنَزْتُمْ لَأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾ (3) .
وأكثر فواصل القرآن لا تخرج عن هذين القسمين حيث تنحصر في المتماثلة والمتقاربة (4) .

٢٤١- الفواصل المتوازنة

وهي التي تتفق فيها الفاصلتان في الوزن والروي، كقوله تعالى : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا * إِذَا رَأَتْهُمْ مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيظًا وَزَفِيرًا ﴾ (5) والفاصلتان (زفيراً) و (سعيراً) متفقتان في الوزن وحروف الروي وقوله تعالى : ﴿ مِّن رَّائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْرِ أَلِيمٍ ﴾ (6) .
فالفاصلتان (عظيم) و (أليم) اتفقتا في الوزن والروي .

٢٤٢- الفواصل المتوازنة

وهي الفواصل التي يراعى فيها الوزن فقط كما في قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَرَغُوا فَلَا قُوَّةَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ * وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاقُشُ مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ (7) وقوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا الْعُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا * فَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴾ (8) .
فالفاصل (قريب) (بعيد) و (كفرأ) ، (رحما) متفقتان بالوزن دون الروي .

٢٤٣- فواصل المطرف

وهي التي تتفق في حروف الروي دون الوزن نحو قوله تعالى : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ * وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ (9) .

والفاصلتان مختلفتان في الوزن ، ف (يصنعون) على وزن يفعلون و (ظالمون) على

(1) ينظر : الأصوات اللغوية : 72 .

(2) ينظر : التعبير الفني في القرآن : 201 .

(3) سورة التوبة : 34-35 .

(4) ينظر : البرهان في علوم القرآن : 75/1 .

(5) سورة الفرقان : 11-12 .

(6) سورة الجاثية : 10-11 .

(7) سورة سبأ : 51-52 .

(8) سورة الكهف : 80-81 .

(9) سورة النحل : 112-113 .

وزن فاعلون ، ولكنهما متفقتان في الروي .
 وقوله تعالى : ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً * وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً ﴾ (1) والفاصلتان مختلفتان في الوزن ، فوزن وقار (فعال) ووزن أطوار (أفعال) ولكنهما متفقتان في الروي ، ليتحقق بذلك التناغم الصوتي في رؤوس الآي ، دون الإخلال بالمعنى ، فالمعنى : مالكم لا تخافون لله عظمة (2) ، فتوحده وتطيعوه وقد خلقكم طوراً ثم طور .
 وهناك فاصلة منفردة عن الفواصل السابقة واللاحقة في حروف الروي فلم تتماثل معها ولم تتقارب وهي مختلفة عنها حتى في الوزن ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَأَتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَبْدِلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوباً كَبِيراً * وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا * وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْساً فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَرِيئاً ﴾ (3) .
 والخطاب إلى أولياء اليتامى ، أي فإن خفتكم أنكم لا تعدلون ، فانكحوا ما حل لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع (فإن خفتكم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى ألا تعولوا) أي أقرب أن لا تميلوا وتجوروا .
 فالفاصلة وإن انفردت عن الفواصل السابقة واللاحقة في الروي والوزن ولكنها ناسبت معنى الآية التي تحدثت عن العدل والقسط في أموال اليتامى والعدل بين الزوجات ، فيها قد تم معنى الآية واكتملت صورتها .
 وهكذا نلاحظ في آيات الخوف أن الفواصل ترد فيها وهي تحمل في آن واحد الوقع الموسيقي والمعنى المتمم لمعنى الآية ، فهي تسوي النغم الإيقاعي للآية لما لها من عذوبة الرنين وحلاوة الجرس ، ولذلك نُختم في أكثر المواضع بحروف المد واللين مع النون وهي الأحرف التي تساعد على الغنة والتطريب (4) .
 وأما من حيث المعنى فهي تتبع المعنى الذي تدور عليه الآية، فتأتي لتكمل هذا المعنى وتتضح الصورة ، أما الانسجام بين الفواصل فهو ملحظ صوتي واضح وبارز في آيات الخوف ، فالفاصلة في هذه الآيات تؤدي إلى الربط فيما بينها ، لتتحد من خلال هذا الربط المحكم المعاني عميقة وقوية ، تفعل فعلها في النفوس ، ولهذا عدت الفاصلة ركيزة أساسية في النص القرآني (5) . ومن مظاهر الانسجام التقديم والتأخير وزيادة حرف في الفاصلة ونقصان حرف منها ، وأثر ذلك في إبراز معنى الخوف . ورأينا كذلك التصنيفات والأنواع التي جاءت عليها الفاصلة القرآنية في آيات الخوف ، من فواصل متماثلة ومتقاربة ومتوازنة ومتوازنة ، ومنفردة ، وليست هي مجرد توافق في الألفاظ والأوزان وحروف الروي بل لها تأثير روحي ومعنوي في نفوس السامعين من حيث الموسيقى

(1) سورة نوح : 12-13 .

(2) ينظر : معاني القرآن ، أبو زكريا الفراء ، تح: د. عبد الفتاح إسماعيل شلبي والأستاذ علي النجدي ناصف ، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية ، القاهرة ، ط3 ، 1422هـ-2002م : 188/3 .

(3) سورة النساء : 2-4 .

(4) ينظر : أساليب البيان في القرآن : 165 .

(5) ينظر : الدلالة الصوتية في القرآن : 119 .

والمعنى .

المبحث الرابع

البنية الصرفية في آيات الخوف

إنّ لبنية الكلمة أثراً كبيراً في استعمالها إذ إنّ أقلّ تغيير يطرأ عليها يؤدي إلى تغيير في المعنى أيضاً ؛ لأنّ بناء الكلمة ملازم لمعناها فإنّ ((اللفظ إذا كان على وزن من الأوزان ثم نُقِلَ إلى وزن آخر أكثر منه فلا بد أن يتضمن من المعنى أكثر مما تضمنه أولاً؛ لأنّ الألفاظ أدلة على المعاني))⁽¹⁾ ومما ورد في آيات الخوف من البنى الصرفية ما يأتي :

الاسم والفعل

استعمل القرآن الكريم الاسم والفعل استعمالاً فنياً دقيقاً⁽²⁾، فقد يعدل التعبير القرآني من الفعل إلى الاسم لغرض دلالي كما في قوله تعالى : ﴿لئن بسطت إليّ يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك إني أخاف الله رب العالمين﴾⁽³⁾.

ففرّق بين الشرط والجزاء إذ قال: (بسطت) بالفعل ، وقال: (ما أنا بباسط) بالاسم ، فلم يقل لئن بسطت لا أبسط ، وإنّما قال : ((ما أنا بباسط)) ليفيد أنّه لا يفعل ما يكتسب به هذا الوصف الشنيع ولذلك أكدّه بالباء المؤكدة للنفي⁽⁴⁾. أي إنّ هذا الخلق والفعل ليس من وصفي وفعلي .

وهذا بيانٌ لخلق كريم من مكارم الأخلاق التي تحت الشرائع الإلهية عليها وتحرض الناس على التحلي والتخلّق بها ، وهو احترام الدماء والنفوس وفيه من الحكمة البالغة والموعظة الحسنة ما يكون سبباً للسعادة ونيل الكمالات ، فلا بد من نبذ روح الانتقام وعدم إضمار السوء والشر بالنسبة للآخرين حتى إذا أرادوا الشر له؛ لأنّ السبب في ذلك هو الخوف من

(1) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، ضياء الدين ابن الأثير ، مطبعة البهية ، مصر ، 1312هـ : 187 .

(2) التعبير القرآني : 30 .

(3) سورة المائدة : 28 .

(4) ينظر : الكشف : 287 .

الله تعالى الذي هو أسمى الغايات وأجلّها⁽¹⁾. ففي قوله تعالى : ((إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ)) تعليل لامتناع هابيل عن بسط يده لقتل أخيه فهو لا يريد أن يراه الله باسطاً يديه لقتل أخيه وظالماً له فذلك من موجبات سخطه تعالى وعقابه وهو المحسن والمنعم والمفضل . و((في الآية الشريفة إرشادٌ إلى لزوم خشية الله تعالى على أتم وجهه ، فإنَّ الخوف منه جلّت عظمتة هو من أعظم الحواجز عن ارتكاب المحرمات وأهم المعدات لنيل ملكة التقوى ، والعلة الوحيدة التي يمكن أن تكبح الشهوات والنفس الأمّارة وتقويمها بكمّارم الأخلاق وتزيينها بمحامد الصفات))⁽²⁾.

إذن فالاسم يدل على الثبوت والفعل يدل على التجدد والحدوث⁽³⁾، من ذلك استعمال القرآن للإيمان فقد ((استعمله بالصيغة الاسمية كثيراً ؛ وذلك لأنَّ الإيمان له حقيقة ثابتة تقوم بالقلب))⁽⁴⁾.

قال تعالى : ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾⁽⁵⁾. حيث قال : ((مُؤْمِنٌ)) بالصيغة الاسمية الدالة على الثبات ، وجاء بـ ((يَعْمَلُ مِنَ الصَّالِحَاتِ)) بالصيغة الفعلية ؛ لأنَّ عمل الصالحات يحدث ويتجدد باستمرار بخلاف الإيمان فإنّه حقيقة تقوم بالقلب يدوم مقتضاها وإن غُفِلَ عنها والله العالم . أمّا التسبيح فإنّه ورد بالصيغة الفعلية كثيراً ؛ لأنَّ التسبيح يحدث ويتجدد ، ولم يرد بالصيغة الاسمية والوصفية إلا في موضعين⁽⁶⁾.

ومن استعمال التسبيح بالصيغة الفعلية في آيات الخوف ما جاء في قوله تعالى : ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾⁽⁷⁾.

وتسبيح الرعد له دلالة على تنزيه الله تعالى ووجوب حمده ، وكان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) إذا سمع صوت الرعد قال : ((سبحان من يُسَبِّحُ الرعد بحمده))⁽⁸⁾. والملائكة أيضاً تُسَبِّح من خيفة الله تعالى وخشيته ، ذكر ابن عباس أنَّ خوف الملائكة من الله ((ليس كخوف ابن آدم لا يعرف أحدهم من على يمينه ومن على يساره ولا يشغله عن عبادة الله طعاماً ولا شراب ولا شيء))⁽⁹⁾.

ومما ورد بالصيغة الفعلية ما جاء في قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ

(1) ينظر : مواهب الرحمن في تفسير القرآن آية الله السيد عبد الأعلى السبزواري ، مؤسسة التاريخ العربي ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1424 هـ - 2003 م : 170/11 .

(2) مواهب الرحمن : 185/11 .

(3) ينظر : معاني الأبنية العربية ، د.فاضل السامرائي ، جامعة الكويت ، كلية الآداب ، ط1 ، 1401 هـ -

1981 م : 11 .

(4) التعبير القرآني : 30 .

(5) سورة طه : 112 .

(6) في سورة الصافات : 143 و166 . ينظر : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، محمد فؤاد عبد الباقي ، منشورات ذوي القربى ، ط3 ، 1384 هـ : 431 .

(7) سورة الرعد : 13 .

(8) ينظر : مجمع البيان : 366/6 .

(9) م.ن : 366/6 .

وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿١﴾ حيث قال: (وَجَلَتْ) بالصيغة الفعلية الدالة على التغير والحدوث ، فليس كل ذكر لله يُوجَل قلوبهم ، إنما توجَل قلوبهم عندما تُذَكَّر عندهم عقوبته وعدله ووعيده على المعاصي بالعقاب واقتداره عليهم ، فإنهم يخافونه تعظيماً له .
أما إذا ذُكِرَت نعمة الله على عباده وإحسانه إليهم وفضله ورحمته عليهم ، وثوابه على الطاعات ، اطمأنت قلوبهم وسكنت نفوسهم إلى عفو الله تعالى كما قال سبحانه: ﴿ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ (2) .
وقد وصف الله هؤلاء بـ (الصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ) و (وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ) بالصيغة الاسمية الدالة على الثبات ، فالصبر وإقامة الصلاة ثابتان ودائمان عندهم أما عند وصفهم بالإنفاق قال: ((وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ)) بالصيغة الفعلية ؛ لأنَّ عملية الإنفاق تحدث وتتجدد ، لذا عبّر عنها بالصيغة الفعلية والله العالم .

الثلاثي المزيد

مُحَرَّرٌ - المزيد بحرف

منه كما جاء في قوله تعالى: ﴿ لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ ﴾ (3) .
حيث جاء التعبير ببناء (فَعَّلَ) والسر في اختياره دون غيره أنه غالباً ما يأتي للتكثير (4)، فكثيراً ما يخوِّف الله تعالى عباده في القرآن من النار وأهوالها وأطباقها كما في النص ، إن عصوا وضلُّوا عن السبيل – سبيل الحق – وهذا التخويف هو رحمة وهداية لهم من الضلال الذي يؤدي بصاحبه إلى النار وبئس القرار .
جاء في مجمع البيان ((ذلك الذي وصف من العذاب يخوِّف الله به عباده ورحمة لهم ليتقوا عذابه بامتنال أو امره)) (5) .

صَوَّرَ - المزيد بحرفين

منه بناء (انفعَلَ) ويأتي لمعنى المطاوعة (6) كما في قوله تعالى: ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ * وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَرَتْ ﴾ (7) وقوله تعالى: ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴾ (8) وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ﴾ (9) .

(1) سورة الحج : 35 .

(2) سورة الرعد : 28 .

(3) سورة الزمر : 16 .

(4) ينظر : دروس في التصريف ، محمد محيي الدين عبد الحميد ، مطبعة السعادة ، مصر ، ط3 ، 1378هـ - 1958م : 73 .

(5) مجمع البيان : 635/8-636 .

(6) ينظر : دروس في التصريف : 75 .

(7) سورة الانفطار : 1-2 .

(8) سورة الانشقاق : 1 .

(9) سورة التكوير : 2 .

والآيات واقعة في سياق الانقلاب الكوني عند قيام الساعة وما يصحب ذلك من أهوال عظيمة وأحداث مرعبة ومخيفة إذ دلت الصيغة التي جاء عليها الفعل المزيد بحرفين على استجابة الكون وطواعيته وتأثره بكلمة الله تعالى له (كن) فإذا السماء انفطرت وانشقت ، وإذا الكواكب انتثرت ، وإذا النجوم انكدرت ، وإذا عقد الكون كله قد انفطرت في لحظة واحدة طوعية لأمر الله (1) . وصدق الله تعالى عندما قال : ﴿ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴾ (2) .

وقد صوّر هذا البناء المعنى تصويراً موحياً ، حيث طوعية ما في الكون لأمر الله عز وجل من انفطار السماء التي نجهل كنهها – وانشقاقها وتصدعها وانتثار الكواكب وما يثيره ذلك في النفوس من هلع وفزع بسبب هذه الأحداث المخيفة والرهيبية . فجاء هذا البناء مناسباً أتم المناسبة للسياق الذي ورد فيه ومؤدياً لمعناه على أحسن وجه.

المزيد بثلاثة أحرف

من ذلك صيغة (استفعل) منها ما جاء في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ (3) ، فالفعل (استقاموا) ثلاثي مزيد بثلاثة أحرف ومعناه أنه يأتي مطوعة لـ (أفعل) نحو أقمته فاستقام (4) .

والاستقامة يُراد بها الإقامة على الشيء أي استقاموا على طاعة الله وأداء فرائضه (5) . ولأهمية الاستقامة فإن الإيمان لا يفي بالغرض المطلوب بدونها ، إذ إن العمل الصالح يثبت الاعتقاد ، ولإيمانهم واستقامتهم على طريق الله تتنزل عليهم الملائكة وتقول لهم: [أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ] .

و بناء استفعل يدل كذلك على الطلب (6) كما في قوله تعالى : ﴿ قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّمَا أَنْ نُثْقِي وَإِنَّمَا أَنْ نُكُونَ نُحْنُ الْمُثْقِينَ * قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَزْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ ﴾ (7)

أي ((استدعوا رهبتهم حتى رهبهم الناس)) (8) .

ولكن هذا الطلب فيه مبالغة جاء في الكشف ((أرهبوهم إرهاباً شديداً كأنهم استدعوا رهبتهم)) (9) ففي معنى استرهبوهم المبالغة ومما يؤكد ذلك ما قاله تعالى : ﴿ وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ ﴾ ووصف سحرهم بالعظيم ؛ ((لبعد مرام الحيلة وشدة التمويه به فهو لذلك عظيم الشأن عند من يراه من الناس ولكثرة السحرة حيث كان مع كل واحد منهم عصا أو

(1) ينظر : الإعجاز الصرفي في القرآن الكريم ، د. عبد الحميد الهنداوي ، المكتبة العصرية ، صيدا ، لبنان ، ط 1 ، 1422 هـ - 2001 م : 129 .

(2) سورة القمر : 50 .

(3) سورة فصلت : 30 .

(4) ينظر : دروس في التصريف : 82 .

(5) ينظر : مجمع البيان : 17/9 .

(6) ينظر : دروس في التصريف : 78 .

(7) سورة الأعراف : 115-116 .

(8) مجمع البيان : 572/4 .

(9) الكشف : 378 .

حبَل فلما ألقوا وخُيِّل إلى الناس أنها تسعى استعظموا ذلك وخافوه ((⁽¹⁾).

إيثارُ بناء على بناء آخر

وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ *
إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿⁽²⁾

فكما أخذ الله سبحانه وتعالى الأمم الظالمة ، قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وقوم فرعون أخذاً أليماً شديداً ، فإنه سبحانه سيأخذ سائر القرى الظالمة بظلمها أخذاً شديداً ، وفي ذلك آية لمن خاف عذاب الآخرة وعلامة تدل على أن الله سبحانه وتعالى سيأخذ في الآخرة المجرمين بإجرامهم وإن أخذه سيكون أليماً شديداً . وذلك اليوم الذي يقع فيه العذاب هو يوم مجموع له الناس ولم يكن التعبير بـ (سيجمع أو يجمع له الناس) . وإيثار اسم المفعول على فعله لما في اسم المفعول من دلالة على ثبات معنى الجمع لليوم ، وأنه الموصوف بذلك صفة لازمة ، وهو أثبت أيضاً لإسناد الجمع إلى الناس ، وأنهم لا ينفكون منه ⁽³⁾ . و (وذلك يوم مشهود) إذ الجمع يوجب المشاهدة غير أن اللفظ غير مقيد بالناس وإطلاقه يُشعر بأنه مشهود لكل من له أن يشهد كالناس والملائكة والجن ⁽⁴⁾ .

ومن ذلك ذكره الخشوع في الصلاة كصفة للمؤمنين بالصيغة الاسمية وإيثارها على الصيغة الفعلية قال تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿⁽⁵⁾ والخشوع في الصلاة يعني التذلل مع خوف الجوارح وسكونها ⁽⁶⁾ .
روي أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) رأى رجلاً يعبث بلحيته في صلاته فقال : ((أما أنه لو خشع قلبه لخشعت جوارحه)) ⁽⁷⁾ .

وفي هذا دلالة على أن الخشوع في الصلاة يكون في القلب والجوارح ، فخشوع الجوارح سكونها وترك الالتفات ، وغيض البصر ، وخفض الجناح ، وخشوع القلب خضوعه وخشيته وتذله وإعظام مقام الرب ، وإخلاص المقال ، وجمع الهمة ⁽⁸⁾ . وجاء التعبير عن الخشوع بالصيغة الاسمية الدالة على الثبات فلم يقل : (يخشعون) وإنما قال : (خاشعون) ؛ ليدل على أنه وصف دائم لهم في الصلاة غير عارض ، والصلاة إذا ذهب عنها الخشوع

(1) مجمع البيان : 572/4 .

(2) سورة هود : 102-103 .

(3) ينظر : الكشاف : 497 .

(4) ينظر : الميزان في تفسير القرآن : 9/11 .

(5) سورة المؤمنون : 2-1 .

(6) ينظر : روح المعاني : 5/18 .

(7) نواذر الأصول في أحاديث الرسول ، أبو عبد الله الحكيم الترمذي ، تح : د . عبد الرحمن عميرة ، دار

الجيل ، بيروت ، ط1 ، 1412 هـ - 1992 م : 2 / 172 .

(8) ينظر : الكشاف : 702-703 ، والتفسير الكبير : 78/23 .

كانت ميتة بلا روح⁽¹⁾.

وأحياناً يؤثر القرآن الجمع على المفرد ؛لأنه الأنسب في المقام ، كما في المثل القرآني ، قال تعالى : ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴾⁽²⁾ فقد مثل الله المنافقين في تكاثر الشبهات لديهم وتخليهم عن الإيمان وكثرة مخاوفهم ، بسائر في مفازة ليلاً فانطفأ نوره وبقي في ظلمة حالكة ولكن القرآن جمع هذه الظلمة ؛ ((ليناسب بها كثرة الشبهات التي تعرض للمنافق وتحيط به حتى ينخلع قلبه عن رابطة الإيمان والإسلام أو يكون تكثير الظلمات باعتبار محالها في القلب والبصر والحال ، وقد يكون تكثير الظلمات هنا باعتبار عظم ما فيه من الكفر والضلال))⁽³⁾.

فالجمع هنا هو الأنسب لحال المنافقين من المفرد .

وفي مواضع أخرى نرى التعبير القرآني يؤثر بناء المفرد على الجمع كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقْنَمِ * طَعَامُ الْإِثْمِ * كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ * كَغَلِيِّ الْحَمِيمِ * خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ * ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ * ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾⁽⁴⁾.

نلمح في هذه الآيات أفراد لفظ (الإثيم) في مقابل جمع لفظ (المتقين) في آيات المشهد التالي لهذا المشهد قال تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ * فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ * كَذَلِكَ وَرَوَّجْنَاهُمْ بِخُورٍ عَيْنٍ * يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ * لَا يَذُقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴾⁽⁵⁾ . فنرى أن بناء المفرد أدى دوره في إحداث ذلك التقابل البديع بين أفراد الكافر ومعاناته عذاب الوحشة والوحدة فوق عذاب الجحيم، مقابل انتناس المؤمن برفاقه في جنات النعيم⁽⁶⁾.

فتثير هذه الصيغة المفردة الخوف في نفس المتلقي من مصير الكافر وما يعاينه من غربة ووحدة وألم العذاب الأكبر وسوء المستقر ، والأهم من ذلك سخط الباري عز وجل ، فيبعثه هذا الخوف إلى أن يحدد عن درب الضلال وأن لا يكون من الكافرين أو المستوجبين النار أعادنا الله من ذلك .

بناء فعال

هو من أبنية المبالغة ويدل على الحرفة والصناعة ويقتضي الاستمرار والتكرار ، والإعادة والتجدد والمعاناة والملازمة⁽⁷⁾ . وقد ورد في القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿

(1) ينظر : لمسات بيانية في نصوص من التنزيل ، د.فاضل السامرائي ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ط1 ، 1999م : 132 .

(2) سورة البقرة : 17 .

(3) الإعجاز الصرفي في القرآن : 113 .

(4) سورة الدخان : 43-49 .

(5) سورة الدخان : 51-56 .

(6) ينظر : الإعجاز الصرفي في القرآن : 112 .

(7) ينظر : معاني الأبنية في العربية : 110 .

كَلَّا إِنَّهَا لَأُطَى * نَزَّاعَةً لِّلشَّوَى⁽¹⁾ .
فكلمة نزاعة اسم مبالغة من النزاع بمعنى الاقتلاع ، والشوى الأطراف كاليد والرجل⁽²⁾ ،
أي تنزع الأطراف فلا تترك لحماً وجلداً إلا أحرقتة وقيل: تنزع الجلد وأم الرأس⁽³⁾ ، ثم
يعاود إلى الحياة وتبدأ النار بنزعه مرة أخرى وهكذا .
فهذا البناء جاء ليدل على الاستمرار والتجدد والتكرار وهذا موافق لقوله تعالى: ﴿...كُلَّمَا
نُصِبَتْ جُلُودُهُمْ بَدَلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ..﴾⁽⁴⁾
وهذا ما يثير الخوف والفرع في نفس السامع وهو يتصور منظر العذاب المؤلم .
ومن هذا البناء ما جاء في قوله تعالى: ﴿... إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾⁽⁵⁾
ويعبر بالأوَّاه عن يظهر خشية الله⁽⁶⁾ .
فالقرآن الكريم يُخبر بأن نبي الله وخليفه إبراهيم (عليه السلام) كان ((يُكْثِرُ مِنَ التَّأَوُّهِ
والبكاء والدعاء خوفاً من الله))⁽⁷⁾ وهو خوف مقدس يسكن نفوس الصالحين وهذا البناء
عبر عن الاستمرار بالتأوُّه وتجدد المعاناة والإعادة ، فهم باستمرار يتأوَّهون ويبكون
خوفاً من الله عز وجل .

الجموع

وهي في العربية على نوعين جمعٌ سالم وجمعٌ تكسير .
أ- الجمع السالم
وهذا الجمع بنوعيه يفيد القلة⁽⁸⁾
ولكن هذه القلة غير مطردة بل نستطيع أن نقول إن الأصل فيه عدم دلالة على القلة
وإنما الأصل فيه أن يدل على الحدث⁽⁹⁾ ، مثال ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا
الرِّيَّاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾⁽¹⁰⁾ .
ولم يقل وما أنتم له بخزنة وقال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ
عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ﴾⁽¹¹⁾ .
فإننا نلاحظ أن (خازنين) تفيد الفعلية بخلاف (خزنة) فإنها لا تدل على الفعل وإنما تدل

(1) سورة المعارج : 15-16 .

(2) ينظر : مفردات ألفاظ القرآن : مادة شوى .

(3) ينظر : مجمع البيان 45/10 .

(4) سورة النساء : 56 .

(5) سورة التوبة : 114 .

(6) ينظر : المفردات: مادة أوه .

(7) التفسير المبين، الشيخ محمد جواد مغنية، مؤسسة دار الكتاب الإسلامي، قم المقدسة، ط2، 1423هـ -

2002م : 262.

(8) ينظر : الكتاب : 578/3 .

(9) ينظر : معاني الأبنية في العربية : 144 .

(10) سورة الحجر : 22 .

(11) سورة غافر : 49.

على الاسم إذ هو اسم لصنف من الملائكة الموكلين في النار (1). ومن هذا الجمع في آيات الخوف ما جاء في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (2).

فالجمع (الْخَاشِعِينَ) جمع مذكر سالم و(الْخَاشِعَاتِ) جمع مؤنث سالم أي (الخاشعة قلوبهم لله وجلًا منه والخاشعات) (3).

وذكر الطبرسي ((أي المتواضعين الخاضعين لله تعالى وقيل معناه الخائفين والخائفات)) (4) وفي الخضوع والتواضع والتذلل ما يدل على معنى الخوف والخشية ، فهؤلاء صفتهم الخضوع والتواضع والتذلل لله عز وجل والقرآن جمع هذه الصفات جمعاً سالماً ليدل على إرادة الحدث أما إذا جُمِعَ جمعُ تكسير لقُرْبَ من الاسمِية وابتعد عن الحدث .

ومن هذا الجمع ما جاء في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴾ (5). (فـ) مشفقون) جمع مذكر سالم لوصفٍ على صيغة اسم الفاعل اشتق من غير الثلاثي . والآية جاءت ضمن سياق يتحدث عن الصفات التي خص الله تعالى بها المؤمنين ومنها الخوف منه عز وجل ، فهم في خوف دائم من الله سبحانه، وهذا الخوف هو الذي يحبه الله ويدعوا إليه ، فالخوف من الله تعالى دليل على كمال الإيمان وحسن الإسلام وصفاء القلب وطهارة النفس ، وقد صَوَّرَ لفظ مشفقون خوف المؤمنين من الله تعالى وهو خوف ممزوج بالمحبة والإجلال ، وهو ذو جانب عملي أمّا الخشية فهي ذات جانب عاطفي ، ذُكِرَ معاً في الآية إيضاحاً للعلة والمعلول ، فهي تعني أنّ الخوف المخلوط بتعظيم الله قد استقر في قلوبهم وقد بدت علائمه في أعمالهم والتزامهم بالتعاليم الإلهية . أي إنّ الإشفاق مرحلة تكاملية للخشية وهو ما يؤثر في عمل الإنسان فيجنبه ارتكاب الذنوب ويدفعه إلى القيام بمسؤولياته الدينية(6).

ب- جمع التكسير

ومنه جمع القلة وجمع الكثرة ، والمراد بالقلة ما كان من الثلاثة إلى العشرة فإن زاد على العشرة فهو من جموع الكثرة (7).

ولنرَ الجمع في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ .. ﴾ (8)

(1) ينظر : معاني الأبنية العربية : 146 .

(2) سورة الأحزاب : 35 .

(3) جامع البيان من تأويل آي القرآن ، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ط1 ، 1421هـ - 2001م : 14/2 .

(4) مجمع البيان : 464/8 .

(5) سورة المؤمنون : 57 .

(6) ينظر : الأمثل : 293/10

(7) ينظر : معاني الأبنية العربية : 135 .

(8) سورة البقرة : 243 .

فـ (أَلُوف) جمع كثرة ؛ لأنَّهم زادوا على عشرة آلاف ومن معلوم أنَّ الجميع يحذر الموت ، فلما خص هذا الموضوع بالذكر عُلم أنَّ أسباب الموت كانت في تلك البقعة أكثر ، إما لأجل غلبة الطاعون وإمَّا لأجل الأمر بالمقاتلة (1).

وقد يَعِدِل التعبير القرآني عن هذا الأصل لضرب من البلاغة ، فقد يعدل عن صيغة جمع الكثرة إلى جمع القلة كما في قوله تعالى : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ (2)

فعلى الرغم من كثرة النعم التي كفرت بها تلك القرية فقد عدل عن جمع الكثرة (نعم) إلى جمع القلة (أنعم) لغرض بلاغي يكشف عنه العلامة أبو السعود في تفسيره لهذه الآية حيث يقول : ((وإيثار جمع القلة للإيذان بأنَّ كفران نعمة قليلة حيث أوجب هذا العذاب ، فما ظنك بكفران نِعَمٍ كثيرة)) (3).

أو أن يكون الأمر غير ذلك كما يرى العلامة الطباطبائي ، فالقرآن عندما جَمَعَ (نعم) جمع قلة كان إشارةً إلى النعم المذكورة في الآية وهي ثلاث الأمن والاطمئنان وإتيان الرزق (4) وهذا مما يثير الخوف في نفوس الكافرين والجاحدين بنعم الله تعالى عليهم غير المؤدين شكرها .

وقد تجمع الصفات جمع تكسير ، من ذلك ما جاء في وصف ملائكة العذاب في قوله تعالى ﴿ .. عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَظٌ شِدَادٌ .. ﴾ (5).

فـ (غِلَظ) و (شِدَاد) من جموع التكسير على وزن فَعَال وهذا البناء يعبر عن الغلظة والشدة المادية أي ((إنَّهم شِدَادُ الأجسام ضِخَامُهَا)) (6).

وقد يعبر عن الغلظة المعنوية جاء في المجمع ((أي غلاظ القلوب لا يرحمون أهل النار أقوياء لا يخالفون الله في أوامره ونواهيه)) (7). وهذا الجمع من جموع الكثرة إذ يعني بهؤلاء الملائكة ((الزبانية التسعة عشر وأعوانهم)) (8) فهذه البنية التي تعبر عن كثرة الملائكة وعن شدتهم وغلظتهم تثير الخوف والرغبة لدى المتلقي عندما يتصور مشهد ملائكة العذاب في النار .

وهذه البنية مناسبة لملائكة العذاب ؛ ((لأنَّ جهنم ليست مكاناً للرحمة والشفقة بل مكاناً للغضب الإلهي ومحل للنقمة والسخط الإلهيين)) (9)

ومن جموع التكسير بناء (فعالي) الذي يدل على ((الآفات والمكروه والهلاك والتوجع)) (1)

(1) ينظر : التفسير الكبير : 177/6 .

(2) سورة النحل : 112.

(3) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ، أبو السعود محمد بن أحمد العمادي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان ، ط4 ، 1414 هـ - 1994 م : 145/5 .

(4) الميزان في تفسير القرآن : 362/12 .

(5) سورة التحريم : 6 .

(6) معاني الأبنية العربية : 169 .

(7) مجمع البيان : 403/10 .

(8) م.ن 403/10 .

(9) الأمثل : 14 / 290 .

والتوَجُّع))⁽¹⁾ فمنه ما جاء في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَ سَيَصْلُونَ سَعِيرًا ﴾⁽²⁾ جاء هذا الجمع في سياق تخويف آكلي أموال اليتامى ظلماً ، فجمعه (يتيم) على بناء (فعالي) دلالة على ((تشنيع فعلة الأكل ، فهو لاء يتامى مهزومون أثر عليهم اليُتم حتى أصبح بلية نازلة عليهم فكيف يسوغ أكل مالهم ظلماً ؟ وكيف تطيب نفس الأكل بأكل أموال اليتامى ظلماً وجوراً وإن كان الوجه - من خلال النص المبارك - أن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً وجوراً وإن كان الوجه الظاهر لفعلهم هذا هو الأكل من الأطعمة اللذيذة الملونة ولكن الوجه الواقعي لهذه الأغذية هو النار المحرقة الملتهبة وهو الذي يظهر ويتجلى على حقيقته في عالم الآخرة . وإن بين الوجه الواقعي لهذا العمل والكيفية الظاهرية تناسباً وتشابهاً ، فكما إن أكل مال اليتيم وغصب حقوقه يُحرق فؤاده ويؤذي روحه ، فكذا يكون الوجه الواقعي للعمل ناراً محرقة.⁽³⁾

أو أن تكون هذه النار ليست وجهاً واقعياً لأكل أموال اليتامى بل هي مجاز كما سنرى ذلك لاحقاً⁽⁴⁾.

وهكذا نجد أن القرآن الكريم يميز بين الألفاظ من حيث البنية الصرفية ؛ لما في تغييرها من أثر كبير في تغير المعنى وإكسابه الدقة والقوة والتأثير ، فقد أبدع في استعمال الصيغ الاسمية التي تدل على الثبات والدوام ، والصيغ الفعلية التي تدل على التجدد والحدوث. وكذلك أبدع القرآن في استعمال أبنية الجموع سواء الجمع السالم بنوعيه أو جمع التكسير بأنواعه وقد ميّز في استعمالها بحسب أوزانها وجاء كلُّ بناءٍ ملائماً لمكانه وللسياق الذي أتى فيه ، وموضّحاً للمعنى المراد منه ، وقد تبين - من خلال دراستنا لآيات الخوف - أثر ذلك كلّهُ في بيان معنى الخوف .

(1) معاني الأبنية في العربية : 160 .

(2) سورة النساء : 10

(3) ينظر : الأمثل 3 / 43

(4) ينظر : الصفحة 187 من هذه الرسالة .

الفصل الثاني

دلالة التركيب في آيات الخوف

المبحث الأول / الخبر

المبحث الثاني / الإنشاء الطلبي

المبحث الثالث / التقديم والتأخير

المبحث الرابع / الفصل والوصل

المبحث الخامس / الإيجاز والإطناب

مدخل

بعد الحديث عن الألفاظ وأثرها في آيات الخوف ، جاء الحديث عن الجانب التركيبي وأثره في النفوس في تصوير معنى الخوف ، فتآخي العبارات فيما بينها وحسن تناسقها يساعد على تكوين صورة متكاملة ذات آثار نفسية على المتلقي .

والعبارة هي: مجموعة ألفاظ منسقة على نحو معين لأداء معنى ذهني أو معنى شعوري ، تستمد دلالتها من مفردات الدلالات اللغوية للألفاظ ومن الدلالة المعنوية الناشئة عن اجتماع الألفاظ وترتيبها في نسق معين⁽¹⁾، وترتفع - أي العبارة - في الحسن والقبول بمطابقتها للاعتبار لمناسب (مقتضى الحال) ، وتتخط بعدم مطابقتها له⁽²⁾

وهذا ما يسميه الشيخ عبد القاهر الجرجاني بالنظم، إذ يقول: ((اعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو وتعمل على قوانينه وأصوله ، وتعرف مناهجه التي نُهجت فلا تزيع عنها، وتحفظ الرسوم التي رُسمت لك ، فلا تبخل بشيء منها))⁽³⁾

فهو يربط بين أجزاء الكلام على وفق ما يقتضيه علم النحو ، والذي يدرس تركيب الكلام من خبر وإنشاء وموضوعات التقديم والتأخير والفصل والوصل والحذف والتكرار والإضمار والإظهار ((فيصيب بكل من ذلك مكانه ، ويستعمله على الصحة وعلى ما ينبغي له))⁽⁴⁾

وقد رُدَّ إعجاز القرآن من جهة نظمه إلى ما خصّه الله به من حسن التأليف، وبراعة التركيب، وما شحنه به من الإيجاز البديع ، والاختصار اللطيف ، وماضّمه من الحلاوة وجلله من رونق الطلاوة، مع سهولة كلماته وجزالتها وعذوبتها وسلاستها⁽⁵⁾.

فالقرآن ﴿ كِتَابٌ أَحْكَمْتُ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلْتُ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾⁽⁶⁾.
فالعبارة القرآنية جاءت متماسكة متينة قوية ، إذ نلمس فيها حلول الألفاظ مواضعها وترتيبها في مواقعها حسبما يقتضيه السياق .

وآيات الخوف جزءٌ من البيان القرآني المعجز فسأدرس في هذا الفصل دلالة التركيب فيها فأتناول الخبر ، والإنشاء ، والتقديم والتأخير ، والفصل والوصل ، والإيجاز والإطناب .

(1) ينظر : النقد الأدبي ، أصوله ومناهجه ، سيد قطب ، دار الفكر العربي ، ط2 ، 1954م : 41 .

(2) ينظر : الإيضاح في علوم البلاغة ، الخطيب القزويني ، دار ومكتبة الهلال ، بيروت ، لبنان ، 2000م :

33 .

(3) دلائل الإعجاز ، الشيخ عبد القاهر الجرجاني ، تح : د. محمد رضوان الداية ود. فايز الداية ، مكتبة سعد

الدين ، دمشق ، ط2 ، 1407هـ - 1987م : 117 .

(4) م.ن : 117 .

(5) ينظر : كتاب الصناعتين (الكتابة والشعر) ، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري ، تح : علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم ، مطبعة عيسى البابي الحلبي ، القاهرة ، ط2 ، 1971م : 7 .

(6) سورة هود : 1 .

المبحث الأول الخبر

الخبر لغةً يعني الإعلام تقول أخبرته أخبره والخبر هو العلم⁽¹⁾. وفي الاصطلاح هو القول المقتضي بتصريحه بنسبة معلوم إلى معلوم بالنفى أو الإثبات ، ومن حدّه أنّه المحتمل للصدق والكذب⁽²⁾ فالخبر كل كلام يحتمل الصدق والكذب لذاته ، بغض النظر عن قائله . أما الأخبار التي وردت في كلام الله وأحاديث رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وأخبار رُسل الله ، والحقائق العلمية والبديهيات المعروفة تخرج عن هذا التعريف ، فهي صادقة لا تحتمل الشك والكذب مع كونها إخبار عن شيء مثل (السماء فوقنا) ، وإثبات العلم والقدرة لله عز وجل⁽³⁾. والخبر في آيات الخوف بوصفه أسلوباً فنياً قد ساعد على رسم صورٍ تنبض بالحركة ، مجسدة الحدث المخبر عنه في سياق تعبير القرآن الكريم عن معنى الخوف .

(1) ينظر : الصاحبى في فقه اللغة ومسائلها وسنن العرب في كلامها ، أحمد بن فارس ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط 1 ، 1418 هـ - 1997 م : 133.

(2) ينظر : نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز ، فخر الدين الرازي، تح: د.نصر الله حاجي، دار صادر ، بيروت ، 1424 هـ - 2004 م : 74 .

(3) ينظر : جواهر البلاغة ، أحمد الهاشمي ، مؤسسة الصادق (عليه السلام) للطباعة والنشر ، طهران ، ط 1 ، 1377 هـ .

مكتبة جامعة طهران - مكتبة آية الله العظمى الخميني

وقد تختلف صور الخبر في أساليب اللغة باختلاف أحوال المخاطب⁽¹⁾،
فيأتي على ثلاثة أضرب :

أ- الخبر الابتدائي

هو الخبر الذي يكون خالياً من المؤكدات ؛ لأنّ المخاطب خالي الذهن من الحكم الذي تضمنه⁽²⁾. منه ما جاء في قوله تعالى : ﴿وَ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا..﴾⁽³⁾

قدّم القرآن الكريم من خلال إلقاء الخبر حكماً إسلامياً جديداً لم يكن معروفاً لدى المسلمين من قبل ، أي إذا سافرتم فلا حرج ولا إثم أن تقصروا في الصلاة ، ومعناه أن تقصروا عدد ركعات الصلاة فتصلوا الرباعيات ركعتين⁽⁴⁾ (.. إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا..) في أنفسكم وفي دينكم ، وظاهر الآية يقتضي أنّ القصر لا يجوز إلا عند الخوف في حين أنّه يجوز حتى عند الأمن⁽⁵⁾، فالفائدة إخبار المسلمين قصر الصلاة في الأمن والخوف .

وفي ذكر الخوف هنا ربما ؛ لأنه ((قد خرج مخرج الأعم والأغلب عليهم في أسفارهم، فإنهم كانوا يخافون الأعداء في عامتها))⁽⁶⁾

والمخاطبون لا يعلمون شيئاً عن هذا الحكم ، وهم خالو الذهن عن مضمون الخبر ، ولذلك اقتضى السياق القرآني أن يُلقى الخبر خالياً من المؤكدات .

ب- الخبر الطلبي

هو الخبر الذي يتردد المخاطب فيه ، طالباً الوصول إلى معرفته ، والوقوف على حقيقته يستحسن تأكيد الكلام الملقى إليه تقوية للحكم ، ليتمكن من نفسه⁽⁷⁾
من ذلك قوله تعالى : ﴿..إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَ يَدْعُونَنَا رَغَباً وَ رَهَباً وَ كَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾⁽⁸⁾.

ظاهر السياق يدل على ضمير الجمع لأهل بيت زكريا (عليه السلام)، وقد أُكِّد الخبر القرآني بـ (إِنَّ) ، والمعنى فإنهم كانوا يسارعون في الخيرات من الأعمال ويدعون ربهم رغبة في رحمته أو ثوابه ، ورهبة من غضبه أو عقابه ، أو يدعون ربهم راغبين راغبين ، وكانوا لله خاشعين بقلوبهم⁽⁹⁾.

وسأورد رواية عن الإمام أبي جعفر محمد بن علي الباقر (عليه السلام) فيها من دقة التعبير ، وعمق التشخيص ، وتصوير لمعادلة الحركة النفسية القائمة على أساس شعور متوازن من الخوف والرجاء قال الإمام (عليه السلام): ((ليس من عبد مؤمن إلا وفي قلبه

(1) ينظر : م.ن: 47 .

(2) ينظر : البلاغة والتطبيق ، د.احمد مطلوب ود.حسن كامل البصير ، مديرية دار الكتب للطباعة والنشر، جامعة الموصل ، العراق ، 1402هـ -1982م: 107 .

(3) سورة النساء : 101 .

(4) ينظر: مجمع البيان : 126/3 .

(5) ينظر : م.ن 127/3 .

(6) م.ن : 127/3 .

(7) ينظر : جواهر البلاغة : 49 .

(8) سورة الأنبياء : 90 .

(9) ينظر : الميزان في تفسير القرآن : 316/14 .

نوران ، نور خيفة ، ونور رجاء ، لو وزن هذا لم يزد على هذا ، وقد جمع الله سبحانه بينهما في وصف من أتى عليهم فقال : [يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا] ، وقال : [ويدعوننا رغباً ورهباً]] (1).

ولو نحاول البحث عن سبب أعمق لهذا التوازن النفسي عند هؤلاء - زكريا وأهل بيته- لوجدناه الإيمان والمعرفة بذات الله وصفاته الأحدية الكاملة المعنى والحقيقة ، فهو الغفور الرحيم لمن يستحق العفو والرحمة ، وهو شديد العقاب والانتقام ممن يتجاوز أهداف الحق والخير وحدود الإرادة الإلهية الحكيمة قال تعالى: ﴿ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطُّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ (2).

ج- الخبر الإنكاري

هو الخبر الذي ينكره المخاطب إنكاراً يحتاج إلى أن يؤكد بأكثر من مؤكّد (3). من هذا النوع ما جاء في قوله تعالى : ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (4).

فقد أكد الله سبحانه هذا الخبر بـ (ألا) الاستفتاحية وإنّ ، ويذكر الدكتور أحمد بدوي ((أن منشأ التوكيد بـ (ألا) يعود إلى ما فيها من تنبيه السامع إلى ما سيرد بعدها من أخبار ، وتهيبته لسماعها ، وذلك لا يكون إلا حيث يُعنى بهذه الأخبار ، لتستقر في النفس وتثبت بها)) (5).

فكيف إذا أُكِّد الخبر الذي يأتي بعدها بمؤكّد ثانٍ وهو (إنّ) مما يدل على أهمية هذا الخبر القرآني ، فأولياء الله هم المطيعون لله الذين تولوا القيام بأمره ، وتولاهم سبحانه بحفظه وحياطته (6).

وهم طائفة خاصة من المؤمنين على درجة عالية من الإيمان الذي يتم معه معنى العبودية والمملوكية المحضة لله ، فهم يرون أنّ الملك لله وحده لا شريك له والله هو المؤثر في الوجود ، ليس لغيره استقلال في التأثير ، فليس للإنسان من الأمر شيء حتى يخافه فوته ، ويحزن لفقده.

فهؤلاء لا يخافون شيئاً ولا يحزنون لشيء لا في الدنيا ولا في الآخرة ، إلا أن يشاء الله وقد شاء أن يخافوا من ربهم وأن يحزنوا لما فاتهم من كرامته وهذا كله من التسليم لله ، فإطلاق الآية يفيد اتصافهم بهذين الوصفين : عدم الخوف وعدم الحزن في النشاطين الدنيا والآخرة (7) و دلالة توكيد الخبر في سياق الآية تكمن في توكيد التعبير عن عدم خوف أولياء الله تعالى مما يعدّ ترغيباً في أعمالهم والإقتداء بهم ، وفي أن يكون العبد ولياً من أوليائه تعالى .

(1) أصول الكافي ، أبو جعفر محمد بن يعقوب الكليني ، دار التعارف للمطبوعات ، بيروت ، ط3 ، 1411هـ -1990م : 76/2.

(2) سورة غافر : 3 .

(3) ينظر : البلاغة والتطبيق : 108 .

(4) سورة يونس : 62 .

(5) من بلاغة القرآن : 151 .

(6) ينظر : مجمع البيان : 154/5 .

(7) ينظر : الميزان في تفسير القرآن : 92/10 .

ومن هذا النوع من الخبر ما جاء في قوله تعالى: ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى﴾ (1) فالقصة كانت مع سحرة فرعون والموقف موقف مواجهة وتحدي، فجاء القول من الله مؤكداً بـ (إِنَّ) والضمير المنفصل)، وذلك أنفي للخوف من قلب موسى عليه السلام وأكثر تثبيتاً له وبعث الطمأنينة إليه (2). وهكذا نرى أن القرآن الكريم يأتي بالمؤكدات بحسب الحاجة إليها فقد يكون الكلام لا يحتاج إلى تأكيد، وقد يحتاج إلى مؤكد واحد أو أكثر بحسب أحوال المخاطبين وبحسب ما يقتضيه المقام، فهو في غاية الدقة في اختيار المؤكدات ووضعها في الموضع المناسب بحسب الحاجة إليها بطريقة فنية متقنة.

أغراض الخبر

للخبر غرضان حقيقيان هما:

الأول / فائدة الخبر

يعني إفادة المخاطب الحكم الذي تضمنته الجملة أو الكلام، وهذا هو الأصل في كل خبر؛ لأن فائدته تقديم العلم أو المعرفة للآخرين (3). من ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ (4).

يخبرنا الباري عز وجل عن قوة إيمان الجن وصحة إسلامهم، فإنهم لما سمعوا القرآن الذي هو هدى بادروا إلى الإيمان به من دون مكث؛ لأن من آمن به فقد آمن بربه ومن يؤمن فلا يخاف نقصاناً في الخير والثواب أو لحاق ظلم وغشيان مكروه (5). فالخبر الأول أفاد أن الجن آمنوا بالقرآن لما سمعوا به فلا مكث ولا مهل، والخبر الثاني – وهو مورد البحث – يفيد أن من يؤمن بربه فلا يخاف نقصاً فيما يستحق من الثواب ولا غشيان مكروه، ذلك أن أجره وثوابه موفور على أتم وجه، وفي هذا ترغيب في الإيمان بالله عز وجل.

الثاني / لازم الفائدة

وهذا لا يقدم جديداً للمخاطب وإنما يفيد أن المتكلم عالم بالحكم. وسبب تسميته بلزوم الفائدة؛ لأنه يلزم في كل خبر أن يكون المخبر به عنده علم أو ظن به (6).

منه ما جاء في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ (7).

(1) سورة طه: 68.

(2) ينظر: من بلاغة القرآن: 146.

(3) ينظر: البلاغة والتطبيق: 115.

(4) سورة الجن: 13.

(5) ينظر: الميزان في تفسير القرآن: 45/20.

(6) ينظر: جواهر البلاغة: 46.

(7) سورة التوبة: 73.

أخبر الله سبحانه وتعالى نبيه الكريم عن مأوى الكفار والمنافقين والرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) عالم بالحكم - حكم الله عليهم - لأنهم لم يقرّوا بوحداية الله ولم يدخلوا في دينه ، فالإخبار زاد من تأكيد الحكم على الكفار والمنافقين .
ومنه الأخبار التي ترد في سياق إنّما جاء في دلائل الإعجاز ((اعلم أنّ موضوع (إنّما) على أن تجيء لخبر لا يجهله المخاطب ولا يدفع صحته أو لما ينزل هذه المنزلة))⁽¹⁾.

فمنه قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴾⁽²⁾.

فمن المعلوم أن الإنذار إنّما يكون إنذاراً ويكون له تأثير كبير إذا كان مع من يؤمن بالله ويخشاه ويصدق بالبعث والساعة فأما الكافر فالإنذار وترك الإنذار معه واحد.
ومنه قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرُ مَنِ يَخْشَاهَا ﴾⁽³⁾

فالإنذار إنّما ينفع من يخاف القيامة ومن لا يخافها ولا يخشاها فكأنّه لم يُنذر .
فمن المعلوم أنّه لا تكون استجابة إلا ممن يسمع ويعقل ما يقال له ، ومن لم يسمع ولم يعقل لم يستجيب ، فالخبر في الآيات الكريمة خبرٌ يعلمه المخاطب . ومن ثم فإنّه سيخرج إلى جملة من الأغراض المجازية التي زحرت بها آيات الخوف ، وهذا ما سنعرض له بشيء من التفصيل .

الأغراض المجازية

الوعد

وهو من الأغراض المجازية التي يخرج إليها الخبر ويمكن تقسيمه في آيات الخوف إلى قسمين :

أ- وعدٌ دنيوي

منه ما وعد الله به المؤمنين بالنصر على أعدائهم قال تعالى: ﴿ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوًى الظَّالِمِينَ ﴾⁽⁴⁾

وعدٌ جميلٌ من الله تعالى للمؤمنين بأنهم سينصرون بالرعب و الخوف الذي يدخل قلوب أعدائهم بعد غزوة احد ((بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا)) وهذا يعلل نشأة الرعب والخوف الواقع في قلوب الكفار فقد كانوا أهل خرافة لا يتبعون دليلاً ولا يلتزمون برهاناً

(1) دلائل الإعجاز : 313 .

(2) سورة يس : 11 .

(3) سورة النازعات : 45 .

(4) سورة آل عمران : 151 .

ولهذا كثيراً ما كانت المحقرات من الأشياء تعظم في عيونهم وأفكارهم ، فيتخذون الحجر والمدر والخشب معبودات وآلهة لهم، ويضعفون أمام الحوادث ضعفاً عجباً ويستكينون استكانة مذلة ؛ لأنهم سرعان ما يخطئون في حساباتهم وتقديراتهم فيخافون من اصغر حادث ويتصوّرون الأشياء الصغيرة كبيرة ؛ لأنهم لا يركنون إلى ركن وثيق ولم يختاروا لأنفسهم كهفاً حصيناً من إيمان وعقيدة مستقيمة (1)، يُروى أن الكفار دخلوا مكة كالمنهزمين مخافة أن يكون لرسول الله وأصحابه الكرّة عليهم ، وقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : ((نُصرت بالرعب مسيرة شهر)) (2) فكان – أي الرعب – وسيلة إلهية لحفظ المؤمنين من أعدائهم وتقوية معنوياتهم .

ومن الوعد الدنيوي للمؤمنين استخلافهم في الأرض من بعد الظالمين وتبديل خوفهم بالأمن والاستقرار كما في قوله تعالى: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (3)

وهو وعد جميل أيضاً من الله تعالى للذين آمنوا وعملوا الصالحات أنه سيجعل لهم مجتمعاً صالحاً يخص بهم ، ويستخلفهم في الأرض ، ويُمكن لهم دينهم ، ويبدّلهم من بعد خوفهم أمناً ، لا يخافون كيد منافق ولا صدّ كافر ، يعبدونه لا يشركون به شيئاً (4).

والوعد الإلهي صُرف لطائفة خاصة من المؤمنين وليس جميعهم ، (الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات) كما بيّنت الآية ومن هنا تبعيضية والسبب في ذلك كما يقول العلامة الطباطبائي : ((تشريفاً لهم ولمزيد من العناية بهم)) (5)

قيل : إنها نزلت في رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ومن معه ، وعدهم الله أن ينصر الإسلام على الكفر ويورثهم الأرض ، ويجعلهم فيها خلفاء كما فعل ببني إسرائيل حيث أورثهم مصر والشام بعد إهلاك الجبابرة ، وأن يُمكن الدين المرتضى وهو دين الإسلام ، وتمكينه يعني تثبيتته وتوطيده ، وأن يؤمّن سربهم ويزيل عنهم الخوف الذي كانوا عليه في مكة (6).

والمروي عن أهل البيت عليهم السلام أنها في المهدي من آل محمد (صلوات الله عليهم) ، روي عن علي بن الحسين (عليه السلام) أنه قرأ الآية وقال : ((هم والله شيعتنا أهل البيت يفعل الله ذلك بهم على يدي رجل منا وهو مهدي هذه الأمة وهو الذي قال رسول الله: لو لم يبق من الدنيا إلا يوم واحد لطول الله ذلك اليوم حتى يلي رجل من عترتي اسمه اسمي يملأ الأرض عدلاً وقسطاً كما ملئت ظلماً وجوراً)) وروي مثل ذلك عن أبي جعفر

(1) ينظر : الأمل 2 : / 462 .

(2) ينظر : مجمع البيان : 656/2 .

(3) سورة النور : 55 .

(4) ينظر : الميزان في تفسير القرآن : 151 .

(5) م.ن : 154/15 .

(6) ينظر : الكشف : 734 .

الباقر (عليه السلام) وأبي عبد الله الصادق (عليه السلام) (1). وأرى أنّ صفات المجتمع الذي يكون فيه المؤمنون أحراراً من كيد الكائدين وظلم الظالمين وتحكّم المتحكّمين ، خالصاً من الكفر والنفاق ، لا توجد إلا في مجتمع المهدي الموعود.

ب- وعد أخروي

هو ما وعد الله به الخائفين في الآخرة قال تعالى : ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ﴾ (2). وعدٌ أخروي لمن خاف مقام ربه أي المقام بين يدي ربه للحساب فترك المعصية والشهوة وقيل : من راقب الله في السر والعلانية جملة فما عرض له من محرّم تركه من خشية الله وما عرض له من خير عمله وأفضى به إلى الله تعالى لا يطلع عليه أحد (3). ومما يؤيد هذا التأويل ما ورد في أصول الكافي بإسناده عن داود الرقي عن أبي عبد الله في قول الله عز وجل : ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ﴾ قال : ((من علّم أنّ الله يراه ويسمع ما يقول ويعلم ما يعمل من خير أو شر فمنعه ذلك عن القبيح من الأعمال فذلك الذي خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى)) (4).

فالذي يخاف مقام ربه لا يُقدّم على معصية ، فإذا أقدم عليها بحكم ضعفه البشري ، قاده الخوف من هذا المقام الجليل إلى الندم والاستغفار والتوبة ، فيظل في دائرة الطاعة ، وهكذا فالخوف من الله هو الحاجز الصلب أمام دفعات الهوى العنيفة (5). والخائفون الذين أشار إليهم تعالى بقوله : ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ﴾ هم أهل الإخلاص الخاضعون لجلاله تعالى العابدون له ؛ لأنّه الله عز اسمه لا خوفاً من عقابه ولا طمعاً في ثوابه ، بل هو التآثر الخاص ممن ليس له إلا الصغار والحقارة تجاه ساحة العظمة والكبرياء (6).

ذلك الخوف الذي فيه إخلاص العمل لوجهه الكريم .

وعد الله هؤلاء الخائفين المخلصين جنتين في الآخرة واختلف في ذلك ،

جاء في الكشاف ((فإن قلت : لم قال : جنتان ؟ قلت : الخطاب للثقلين كأنه قيل : لكل خائف منكما جنتان جنة للخائف الإنسي وجنة للخائف الجنّي ، ويجوز أن يقال جنة لفعل الطاعات وجنة لترك المعاصي ؛ لأنّ التكليف دائر عليهما ، ويُقال : جنة يثاب بها وأخرى تُضم إليها على وجه التفضّل)) (7). قال تعالى : ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ (8).

وقيل : إنّها جنتان : جنة عدن وجنة نعيم ، وقيل : جنة لعقيدته وجنة لعمله ، وقيل : جنة

(1) ينظر : مجمع البيان : 200/ 7 .

(2) سورة الرحمن : 46 .

(3) ينظر : مجمع البيان : 264/9 ، والكشاف : 1073 .

(4) أصول الكافي : 76/2 .

(5) ينظر : في ظلال القرآن : 450/8 .

(6) ينظر : الميزان في تفسير القرآن : 108/ 19 - 109 .

(7) الكشاف : 1073 ، ينظر : البحر المحيط : 196/8 .

(8) سورة يونس : 36 .

جسمانية وجنة روحانية⁽¹⁾. وهناك رأي آخر معاصر ذهب إليه الدكتور أحمد نصيف الجنابي في بحثه الموسوم (السياق الموسيقي للجملة العربية وأثره في بنائها) وخلاصة رأيه أن الجنيتين في الآية الكريمة تدل على الجنان الكثيرة ، واستدل على ما ذهب إليه بدليلين⁽²⁾ : أحدهما قياسي : وهو أن العرب تطلق المثنى وتريد به الجمع ، يقول امرؤ القيس : (قفا نبك)⁽³⁾ ، ويريد : قفوا نبك ؛ لأنه قال بعد ذلك : وقوفاً بها صحبي عليهم مطيهم يقولون لا تهلك أسي وتجمل⁽⁴⁾ ويقول الله جل ثناؤه : ﴿ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ * مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ * الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴾⁽⁵⁾ . يقول الدكتور الجنابي : ((فالفعل ألقيا لا يُراد به مخاطبة اثنين ، وإنما يراد به مخاطبة خزنة جهنم ، وهم تسعة عشر ملكاً ، ومع ذلك يقول تعالى بعد الخطاب الأول : ((فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ)) ، ولم يقل : ألقوا ، مراعاةً لنسق الكلام ، حيث جرت المخاطبة على ذلك الأسلوب))⁽⁶⁾ . ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿ .. فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ * ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾⁽⁷⁾ . ودليله الآخر نقلي وهو أن الله سبحانه وعد عباده المؤمنين في كتابه الكريم جنات كثيرة ، كما نرى في الآيات التالية قال تعالى : ﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ .. ﴾⁽⁸⁾ . و ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾⁽⁹⁾ . و ﴿ جَنَّاتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ .. ﴾⁽¹⁰⁾ . ويميل الدكتور عبود الحلبي في بحثه (دلالة التثنية في سورة الرحمن) من خلال حديثه عن دلالة (جنتان) إلى هذا الرأي ؛ للأسباب التي ذُكرت ، ولأن الله جل شأنه غير محدود وعطاؤه غير محدود أيضاً ، والمثنى يفيد تحديداً لذا يراد بلفظ الجننتين تحديد عطاء الباري ، ولأن القرآن يهدف إلى التأثير بالنفس البشرية ومن طرائق هذا التأثير الانسيابية الموسيقية – إن صح التعبير – التي يحس بها من يتلو القرآن الكريم⁽¹¹⁾ .

(1) ينظر : مجمع البيان : 264/9 ، والميزان في تفسير القرآن : 109/19 .

(2) ينظر : السياق الموسيقي للجملة العربية وأثره في بنائها ، بحث منشور في مجلة آداب المستنصرية ،

دار الحرية ، بغداد ، ع4 ، 1399 هـ - 1979 م : 19 .

(3) ديوان امرؤ القيس ، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف ، مصر ، ط4 : 8 .

(4) ينظر : م. ن 9 .

(5) سورة ق : 24-26 .

(6) السياق الموسيقي للجملة العربية وأثره في بنائها : 19 .

(7) سورة الملك : 3-4 .

(8) سورة البقرة : 25 .

(9) سورة الحجر : 45 .

(10) سورة الرعد : 23 .

(11) ينظر : دلالة التثنية في سورة الرحمن ، بحث في مجلة جامعة بابل ، ع1 ، 2002 م : 9 .

الوعيد

هو من الأغراض المجازية التي يخرج إليها الخبر ، وهو في آيات الخوف يفيد التهديد والتخويف، وقد اقترن وروده في القرآن الكريم في مواضع العقاب (1). وقد توعد الله كل من أشرك به واتبع هواه وضلّ عن سواء السبيل بعذاب النار . وهذا التخويف والوعيد يشكل حاجزاً أو عائقاً يُنبّه كل من تقوده نفسه إلى معصية الله عز وجل عسى أن يرتدع ، فيعود إلى الصراط المستقيم .

كما في الوعيد الإلهي لأبي لهب وامرأته وكل من سار على دربه، قال تعالى: ﴿سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ * وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ (2).

وقد أكد الخبر بحرف الاستقبال (السين) بأنهم سيصلون ناراً ذات لهب و(تنوين النار تفخيماً لأمرها ، وأنها ناراً فوق مدارك العقول) (3) ففيها الآلام والعذاب وقد صوّرها بأنّها ذات لهب و (في تنكير لهب تفخيم له وتهويل) (4).

وحمالة الحطب امرأته شريكة له – لأبي لهب – في دخول هذه النار كانت تحمل أغصان الشوك وغيرها فتطرحها في طريق رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ، وقيل: إنّها كانت تمشي بالنميمة بين الناس فتلقّي بينهم العداوة وتوقّد نارها كما توقّد النار بالحطب فسمى النميمة حطباً(5) .

فما أعظم هذا الوعيد الذي سجّل الله تعالى له الخلود ، وعيد يثير الخوف في نفوس الذين يعادون الحق ويجانبون الخير .

فكل من عوّق عن طريق الخير ، وكل قاطع لما أمر الله به أن يوصل من أخوة ومودة وألفة ، وكل من يمشي بالنمائم بين الناس فيمزّق الأعراض ، ويشعل نيران الفتن ، ويهدّم الأخلاق له مثل هذا الوعيد وهو شريك لأبي لهب وشريك لحمالة الحطب(6).

وهذا الخوف الذي يريد القرآن أن يثيره في نفوس الناس لهو رحمة لهم ؛ لأنّه يُشكّل رادعاً لهم للرجوع إلى سبيل الحق ومجانبة الباطل .

ومنه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾ (7).

(1) ينظر : الترغيب والترهيب في القرآن الكريم : 54 .

(2) سورة المسد : 3-4 .

(3) نظرات حديثة في التفسير، محمد عبد الرحمن الجديلي، المكتب التجاري للطباعة والنشر

والتوزيع، بيروت ، ط1، 1963م : 56 .

(4) الميزان في تفسير القرآن : 385/20 .

(5) ينظر : مجمع البيان : 716/10 .

(6) ينظر : نظرات حديثة في التفسير : 57 .

(7) سورة فاطر : 36 .

فالذين جحدوا بوحدانية الله ونبوة نبيه ، لهم نار جهنم جزاء على كفرهم لا يموتون ليستريحوا من هذا العذاب، ولا هو يُخَفِّف عنهم فيسهل عليهم عذاب النار ، وبمثل هذا العذاب ونظيره يجزي الله كل جاحد كثير الكفران مكذب لأنبياء الله عز وجل (1). وهذا الوعيد الشديد يثير الخوف والرغبة في نفوس الكافرين والجاحدين ، فقد أخبرهم الله سبحانه بمصيرهم في حال إصرارهم على الكفر وعدم إجابة دعوات الرسل بأن لهم نار جهنم ، وحالهم فيها لا موت ولا حياة وإنما عذاب أبدي ..

ومن هذا الوعيد ما جاء في القرآن حكاية عن السحرة الذين توعدهم فرعون بأشد العذاب فقابلوه بوعيد أشد منه ينتظر المجرمين قال تعالى: ﴿ قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى ﴾ (2).

الاستفهام للإنكار ففرعون أنكر عليهم إيمانهم بموسى قبل أن يأذن لهم ، كأن عملية الإيمان تحتاج إلى الإذن الفرعوني كما يحتاج إليها أي عمل آخر يتعلق بقضايا الحياة ، فالطغاة يريدون أن يملكوا عقول الناس وأفكارهم .

والسحرة وجدوا أن ما قدمه موسى ليس على مستوى السحر، بل هو شيء فوق ذلك كله ، مما لم يألّفوه ولم يعرفوا له مثيلاً في كل ما شاهدوه في عالم السحر ، فعرفوا أن ذلك من الله لا من موسى مما يجعل دعوته لهم على مستوى الأنبياء الذين يتميزون بقدرات غير عادية فيما يقدمونه من معجزات ، وفيما يقدمونه من آيات ، فانفتحوا على الإيمان بكل قوة ، وبكل ابتهاج وخشوع (3).

ويهول ذلك فرعون ويعتبره مؤامرة حيكّت في الخفاء ويرفض كون القضية قضية إيمان صادق ، ينبعث من مواجهتهم للحجة الواضحة والبرهان القوي .

بدأ فرعون بالتهديد بالعذاب وقطع الأيدي والأرجل من خلاف أي أن تقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى ، وتوعدهم بالصلب على جذوع النخل .

ولم يُفْلِح تهديده في جعلهم يتراجعون عن موقفهم ، بل وقفوا موقف عدم المبالاة أمام صرخات التشنج التي يُطلقها فرعون (4).

فهؤلاء قد أدركهم الحق وغشيتهم فأصفاهم وأخلصهم له ، وما كان يهددهم به فرعون من القتل الفجيع والعذاب الشديد وقطع دابر الحياة الدنيا وهو يرى أن ليس للإنسان إلا هذه الحياة فيها سعادته وشقاؤه ، فهم يرون الأمر غير ذلك فلإنسان حياة خالدة أبدية لا قدر عندها لهذه الحياة الفانية (5).

وجاء قوله تعالى حكاية عن السحرة فيه وعيد شديد ينتظر المجرمين ومنهم فرعون قال تعالى: ﴿ إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ﴾ (6).

(1) ينظر: مجمع البيان : 529/8 .

(2) سورة طه : 71 .

(3) ينظر : الحوار في القرآن ، آية الله السيد محمد حسين فضل الله ، دار الملاك للطباعة والنشر ، بيروت ، ط 6، 1421هـ - 2001م : 280 .

(4) ينظر : م. ب. 282 .

(5) ينظر : الميزان في تفسير القرآن : 182/14 .

(6) سورة طه : 74 .

فعندما أو عدّهم فرعون على إيمانهم لموسى بالقطع والصلب وادّعى أنّه أشدّ العذاب وأبقاه، قابلوه بأنّ للمجرم عند ربه جهنم لا يموت فيها حتى ينجو من مقاساة ألم عذابها، ولا يحيى إذ ليس فيها شيء مما تطيب به الحياة ولا خيراً مرجواً فيها حتى يقاسي العذاب في انتظاره⁽¹⁾.

التحذير

يخرج الخبر في القرآن الكريم أحياناً إلى غرض التحذير إذ إنّ الله سبحانه اعتمده في تخويف الناس من كل ما يضرهم ليكونوا متحرزين من دخولهم النار ، أعاذنا الله منها وذلك باجتناب ما نهاهم عنه والحذر منه كما جاء في قوله تعالى: ﴿.. إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾⁽²⁾.

أفاد الخبر القرآني التحذير من الخيانة ؛ لأنّها تتخر في جسد الإسلام . وخوّان على صيغة فعّال أي كثير الخيانة ، وقد يُطلق الخوّان على الخائن في شيء واحد إذا عظمت تلك الخيانة⁽³⁾.

فالخوان الأثيم المفرط في الخيانة وركوب المآثم ، والله عز وجل يحذّر كل من كانت هذه صفاته وأعماله أن ينته عنها خوفاً من غضبه وانتقامه . ومثله قوله تعالى: ﴿.. إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾⁽⁴⁾.

والمراد بكل خوان كفور المشركون ، وإنّما كانوا مشركين في الخيانة والكفران ؛ لأنّ الله حمّلهم أمانة الدين والحق وجعلها وديعة عند فطرتهم ، لينالوا بحفظه ورعايته سعادة الدارين ، وعرفهم إياه عن طريق الرسالة فخانوه وجحدوا به ، وغمرهم بنعمه الظاهرة والباطنة فكفروا بها ، ولم يشكروا له بالعبودية⁽⁵⁾.

أفاد الخبر القرآني تحذيراً إلهياً من أنّه تعالى لا يحب من يخونه ويكفر به بعدما خلقه على الفطرة السليمة وأرسل إليه الرسالات ولم يشكر ربه بعبادته له جل جلاله والله العالم .

ومن الأخبار القرآنية التي تفيد التحذير ما جاء في قوله تعالى: ﴿.. وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾⁽⁶⁾.

ورد الخبر في آية قرآنية تحدثت عن اليهود وعن تجرّئهم على الله سبحانه وجحودهم بنبوة النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وبما جاء من القرآن ، وكيف أنّهم كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفاها الله ويسعون في الأرض فساداً بمعصية الله وتكذيب رسله،

(1) ينظر : الميزان في تفسير القرآن : 183/14 .

(2) سورة النساء : 107 .

(3) ينظر : مجمع البيان : 135/3 .

(4) سورة الحج : 38 .

(5) ينظر : الميزان في تفسير القرآن : 383/14 .

(6) سورة المائدة : 64 .

ومخالفة أمره ونهيه، واجتهادهم في محو ذكر الرسول من كتبهم⁽¹⁾، وكذلك اجتهدهم في الكيد للإسلام .
فالخبر القرآني جاء محدّراً لهم وللعاملين بالفساد والمعاصي بأرض الله ، فعليهم أن ينتهوا من فسادهم وضلالهم ويعودوا إلى سبيل الرشاد .
المدح
ويخرج الخبر في القرآن لغرض المدح ، فقد مدّح الله الخائفين بالتذكيرة والاعتاظ قال تعالى: ﴿ سَيَذَكِّرُ مَنْ يَخْشَى ﴾⁽²⁾.
أُكِّد هذا الخبر بحرف السين والتضعيف في الفعل، فالذي يتعظ بالقرآن هو الذي يخشى الله تعالى، ويخاف عقابه⁽³⁾.
وهكذا نرى كيف أنّ الخبر ورد في آيات الخوف بأنواعه وأغراضه (الحقيقية والمجازية) ، وقد شارك في بيان معنى الخوف بإسلوب فني جميل.

المبحث الثاني

الإنشاء الطلبي

الإنشاء لغةً من أنشأ السحاب إذا بدأ بالمطر وأنشأ الدار إذا بدأ ببنائها ، و أنشأ يفعل كذا ويقول كذا : ابتداءً وا قبل ، وفلان يُنشأ الأحاديث أي يضعها⁽⁴⁾.
وفي الاصطلاح يعني: كل كلام لا يحتمل الصدق والكذب لذاته ؛ لأنّه ليس لمدلول لفظه قبل النطق به واقع خارجي يطابقه أو لا يطابقه⁽⁵⁾
وهو على نوعين :
أ- الإنشاء الطلبي ب - الإنشاء غير الطلبي
وسأتحدث في هذا المبحث عن الإنشاء الطلبي ؛ لكثرة وروده في آيات الخوف ، ولما يمتاز به من لطائف بلاغية وخصائص فنية .

(1) ينظر :مجمع البيان : 276/3 .

(2) سورة الأعلى : 10 .

(3) ينظر : مجمع البيان : 606/10 .

(4) ينظر : لسان العرب :مادة أنشأ .

(5) ينظر : البلاغة والتطبيق : 121.

والإنشاء الطلبي هو (ما يستدعي مطلوباً غير حاصل وقت الطلب)⁽¹⁾، وله أثر بالغ الأهمية في التعبير عن المعاني التي أراد الله عز وجل إيصالها إلى الخلق من الإنس والجن أجمعين ، فكان لهذا الأسلوب التعبيري والتصويري المباشر بخصائصه الفنية أبعاد نفسية عظيمة ، من خلال التعبير المباشر الذي اعتمد الاستدلال والاحتجاج وسرد الأدلة والبراهين⁽²⁾.
فكان سبباً إلى إحداث الإقناع والتحفيز للمتلقي عند تصوير الخوف أو التخويف من حدث ما .
وهذا الإنشاء على أنواع منها:

النداء

هو طلب إقبال المدعو بحرف ناب مناب أنادي ومن أدوات الهمزة، وأي، ويا ، وأي، وأيا ، وهيا ، ووا⁽³⁾ .
والنداء من الأساليب التي استخدمها القرآن لتنبيه المخاطب على الإصغاء إلى ما يأتي بعده من كلام من أمر ونهي واستفهام
ففائدة النداء في القرآن الكريم لفت نظر المنادى وتنبيهه على الأمر الذي يلي النداء، وهذا يدل على أهمية الأمر الذي من أجله ورد النداء⁽⁴⁾ ، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾⁽⁵⁾.
والخطاب بأسلوب النداء يشمل الناس جميعاً من مؤمن وكافر وذكر وأنثى بتجنب مخالفة أوامر الله تعالى ونواهيه ، وقد علل للأمر بعظم زلزلة الساعة وهذه دعوة عن طريق الإنذار⁽⁶⁾.
إذن فالنداء جاء منبهاً ومخوفاً من القيامة التي من علاماتها زلزلة الساعة .
وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾⁽⁷⁾.
ورد النداء لتنبيه المنادى على أهمية الأمر المدعو إليه فيعمل على نيله فالله تعالى يأمر عباده المؤمنين بأن يحترسوا أو يخافوا من عذاب الله ويمتنعوا عنه بالطاعة ، كما ينبغي أن يحترس ويخاف منه .
فالتقوى كما يقول الراغب : ((جعل النفس في وقاية مما يُخاف ثم يسمى الخوف تارة تقوى ، والتقوى خوفاً حسب تسمية مقتضى الشيء بمقتضيه))⁽⁸⁾، وحق تقاته أي أن يُطاع فلا يُعصى ، ويُذكر فلا يُنسى ، ويُشكر فلا يُكفر كما روي عن أبي بصير عن

(1) الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني، دار ومكتبة الهلال، بيروت، 2000م: 131 .

(2) ينظر : الترغيب والترهيب : 62 .

(3) ينظر : جواهر البلاغة : 8 .

(4) ينظر : من بلاغة القرآن : 168 .

(5) سورة الحج : 1 .

(6) ينظر : الميزان في تفسير القرآن : 339/14 .

(7) سورة آل عمران : 102 .

(8) مفردات الألفاظ القرآن : مادة وقى .

الصادق عليه السلام (1) .
والله عز وجل بهذا النداء يُنبّه المؤمنين على عِظَم أمر تقوى الله وجليل خطره ، لذا جاء بعد النداء أسلوب الأمر المتمثل بالفعل (اتقوا) وما فيه من إلزام بفعل التقوى وأسلوب النهي المتمثل بـ ﴿ .. وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ .
وقال تعالى : ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ (2)
وقد أعقب النداء جملة خبرية مؤكدة بمؤكدتين ، فنوح (عليه السلام) بيّن لقومه أنه قد جاءهم ((مخوف مبين وجوه الأدلة في الوعيد ، وبيان الدين والتوحيد ، بأن اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً ، واتقوا معاصيه ، وأطيعوني فيما أمركم به ؛ لأن طاعتي مقرونة بطاعة الله وطاعة الله واجبة عليكم)) (3) .
وقد يدل النداء على قرب المنادى من القلب وقد ورد محذوفاً منه الأداة قال تعالى : ﴿ رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ * رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ (4) .
فالنداء جاء وقد حذفت منه الأداة ، لعل في ذلك تعبيراً عن شعور الداعي بقربه من ربه ، وهذا ما خص الله عز وجل به عباده المؤمنين في كتابه الكريم حين يدعونه تضرعاً وخشوعاً طامعين في الإجابة .
ويخرج هذا النداء المحذوف الأداة إلى معنى مجازي هو استصغار النفس أمام عظمة الله سبحانه حيث إنّ النداء من المؤمنين لربهم أمّا إذا كان النداء من الله تعالى إلى المؤمنين والناس نجد أنّ النداء تُذكر فيه الأداة .
ومن الأغراض المجازية الأخرى التي يخرج إليها النداء :
الاستعطاف والرجاء
قال تعالى : ﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴾ (5)
فقد صُدّر خطاب الابن لأبيه بـ (يا أبت) استعطافاً وترجياً على أن يترك عبادة الأوثان ويتبع الطريق السوي الذي أراده الله والذي عليه الابن خوفاً عليه من العذاب الذي سيناله إذا ما بقي على عصيانه تابعاً للشيطان (6) .
وهذا الخطاب يبيّن لنا علاقة الرحمة بين الابن والأبوين وخوفه عليهما ، وإن خالفهما في الاعتقاد ، فنجد أن سيدنا إبراهيم (عليه السلام) يخاطب هذا الأب العاصي بأسلوب فيه الأدب الجميل وفيه الرقة والرحمة والخلق الحسن عسى أن يرتدع ويعود إلى ما يرضي الله فيعفو عنه .
فقد استطاع (عليه السلام) أن يوفق بين الرسالة والعاطفة فقد جعل العاطفة والإحساس

(1) ينظر : تفسير العياشي ، المحدث محمد بن مسعود ابن عياش السمرقندي ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات بيروت ، ط 1 ، 1411 هـ - 1991 م : 1 / 217 .

(2) سورة نوح : 2 .

(3) مجمع البيان : 456/10 .

(4) سورة آل عمران : 193 - 194 .

(5) سورة مريم : 45 .

(6) ينظر : البناء الفني في سورة مريم : 68 .

بالمسؤولية تجاه أبيه طريقاً للرسالة ؛ لأنّ ذلك يحوّل الموقف إلى موقف إنقاذ، فكان رد فعله تجاه إنكار أبيه التوجه إليه بالسلام والوعد بالدعاء له بالمغفرة (1).

وكذلك نجد في القرآن أنّ الله عز وجل لم ينادي نبيه الكريم باسمه كما نادى غيره من الأنبياء عليهم السلام ، كرامة له وتشريفاً وتنويعاً بفضلته ورفعاً لمقامه ، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾ (2).

الأمر

يُعرّف الأمر بأنّه صيغة تستدعي الفعل ، أو قول ينبئ عن استدعاء الفعل من جهة الغير على جهة الاستعلاء (3) .

وله عدة صيغ منها :

- فعل الأمر كما في قوله تعالى : ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ (4) .

والاستعانة هي طلب العون ، وإتّما تكون فيما لا يقوى الإنسان عليه وحده من المهمات والنوازل إذ لا معين إلا الله تعالى ، فالعون على المهمات مقاومة الإنسان لها بالثبات والاستقامة والإقبال عليه تعالى . فالله عز وجل أمر المسلمين بأن يستعينوا بالصبر لما فيه من حبس النفس على الطاعات وحبسها عن المعاصي والشهوات، والصلاة لما فيها من تلاوة القرآن والتدبر لمعانيه والاتعاظ بمواعظه، ولما فيها من خشية والخشوع لله.

فبالصبر تصغر كل عزيمة نازلة ، وبالإقبال على الله والالتجاء إليه تستيقظ روح الإيمان وتنتبه : أنّ الإنسان متكئ على ركن لا ينهدم ، وسبب لا ينفصم (5).

وقيل : إنّ الصبر الصوم ؛ لأنّه حبس النفس عن المفطرات ، ومنه قيل: لشهر رمضان شهر الصبر (6).

وكان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) إذا أحزنه أمر استعان بالصلاة والصوم (7). ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ .

والضمير عائد على الصلاة ؛ لأنّها الأغلب والأفضل (8) ، أي إنّها لثقيلة إلا على الخاشعين ((المستكينين لطاعته المتذللين من مخافته)) (9) فإنّهم قد وطنوا أنفسهم عليها فلا تثقل عليهم . وفي ذلك ترغيب في الخوف من الله ؛ لأنّهم لا يرون غير الله مؤثراً في الوجود فقد وطنوا أنفسهم عند الشدائد والمكاره بالتوجه إلى الله عز وجل .

وقوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ وَاحْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ

(1) ينظر : الحوار في القرآن : 263- 264 .

(2) سورة الأحزاب : 45 .

(3) ينظر : الطراز المتضمن لإسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ، يحيى بن حمزة العلوي، مطبعة

المقططف، مصر، 1332هـ - 1914م : 281/3 .

(4) سورة البقرة : 45 .

(5) ينظر : الميزان في تفسير القرآن : 152/1 .

(6) ينظر : الكشاف : 75 .

(7) مجمع البيان : 126/1 .

(8) ينظر : م.ن 126/1 .

(9) جامع البيان : 300/1 .

هُوَ جَازٍ عَنِ الْإِدَةِ شَيْئاً إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿١﴾

فالله سبحانه أمر المكلفين بأن يتقوه ويخشوا ويخافوا يوم القيامة . فإن الخوف حامل على النظر في الذي ينجيهم مما يخافونه (2) في ذلك اليوم ، اليوم الذي لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً فكل امرئ تهمه نفسه ، فإن وعد الله حق لا خلف فيه بالبعث والجزاء والثواب والعقاب ، وهذا ما يدفعهم إلى تقوى الله تعالى .

إذ عليهم الالتزام بسبيل الحق فلا تغرّتهم الحياة الدنيا ، فما فيها إلى زوال وانتقال ولا يغرّتهم بالله الغرور ، ورد في الكشف عن سعيد بن الجبير : الغرة بالله أن يتمادي الرجل في المعصية ، ويتمنى على الله المغفرة (3).

- المضارع المقرون بـ (لام الأمر)

كما في قوله تعالى : ﴿ وَلِيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافاً خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيداً ﴾ (4).

والأفعال (ليخش) (ليتقوا) (ليقولوا) أفعال مضارعة مجزومة بلام الأمر .

يرى الدكتور قيس الأوسي أنّ الجزم بـ (لام الأمر) ليس حالة إعرابية يسببها انتفاء الفاعل ، وإنما هي علامة على الأمر والتشديد والبت في الطلب (5). والأمر في الآية الكريمة لولي مال اليتيم ، فالله تعالى يأمره بأداء الأمانة فيه ، والقيام بحفظه كما لو خاف على مخلفيه إذا كانوا ضعافاً وأحب أن يفعل بهم ، وليعاملوهم المعاملة الحسنة التي يجب أن يعامل بها يتاماه من بعده وليقولوا قولاً مصيباً عدلاً موافقاً للحق ، وقيل : معناه فليخاطبوا اليتامى بخطاب حسن وقول جميل (6).

فالأوامر الإلهية لأولياء اليتامى جاءت - في النص المبارك - بالأفعال الجيدة والأقوال السديدة ، بأن يخافوا الله في هؤلاء الأيتام فيحافظوا على حقوقهم ويتجنبوا ظلمهم وجفاءهم وأن يعاملوهم المعاملة الحسنة حتى في القول.

ويخرج الأمر من معناه الحقيقي إلى معانٍ ودلالات مجازية منها :

1- الدعاء

هو طلب على سبيل التضرع والاستعانة والعفو ، ويُسمى ابن فارس خروج الأمر إلى الدعاء بـ ((المسألة)) (7). فمنه الدعاء الذي يصدر من نفوس خاشعة متضرعة متذللة من مخافة الله عز وجل ، فالدعاء هو لب العبادة وثمره العقيدة وعلامة الخوف من الله وآية الثقة بالله جل وعلا (8).

فدعاء العبد الخاشع نراه في قوله تعالى : ﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ *

(1) سورة لقمان : 33 .

(2) ينظر : البحر المحيط : 459/8 .

(3) ينظر : الكشف : 840 .

(4) سورة النساء : 90 .

(5) ينظر : أساليب الطلب عند اللغويين والبلاغيين ، بغداد ، 1988م : 148 .

(6) ينظر : مجمع البيان : 19/3 .

(7) الصاحبي : 138 .

(8) ينظر : نظرات حديثة في التفسير : 67 .

وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ * وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ * وَاعْفُ رِّ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴿١﴾ .

هذا الدعاء جاء على لسان النبي إبراهيم (عليه السلام) بعدما كان في حوار مع قومه المشركين، وقد أخذته جاذبة الرحمة الإلهية الملتزمة بالفقر العبودي إلى إظهار الحاجة، وبث المسألة، وقف النبي إبراهيم (عليه السلام) بكل خشوع وخضوع أمام الله جل جلاله، مقدماً طلباته إليه، وكذلك لينظر قومه بشكل حي المواقف الروحية التي يخلقها الإيمان في حياة الإنسان فيشعروا بعظمتها وروعها (2).

ومنه قوله تعالى: ﴿.. رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ (3).

الدعاء عن لسان النبي سليمان (عليه السلام) وأفعال الأمر في الآية المباركة خرجت لغرض الدعاء؛ لأنها صدرت من الأدنى إلى الأعلى، فقد صدرت من قلب خاشع متضرع إلى الله يسأله أن يلهمه شكر نعمته التي أنعم الله تعالى بها عليه، وهي نعمة تعلم منطق النمل (4) وإكرامه بالنبوة والملك، كما أنعم على والديه من قبل بأن أكرم أباه بالنبوة وفصل الخطاب.

وبهذا الخشوع والتضرع يدعو ربه أن يوفقه للعمل الصالح ويدخله في جملة الأنبياء ويحشره معهم.

ومنه ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَأِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً * يَرِثُنِي وَيَرِثْ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيّاً﴾ (5).

ذكر العلامة الطباطبائي أن خوف زكريا (عليه السلام) هنا هو خوفه من أن يموت بلا عقب وكانت زوجته عاقراً (6)، فسأل الله بكل خشوع وخضوع أن يرزقه ذرية من لدنه، وقد قيد الموهبة الإلهية التي سألها بقوله (من لدنك) لكونه آيساً من الأسباب الطبيعية بسبب ما هو عليه من الشيب و نفاذ القوة وما عليه امرأته من كبر السن والعقر.

وقوله تعالى: (يرثني) قرينة معينة لكون المراد بالولي في الكلام ولاية الإرث التي تنطبق على الولد.. ولولا أن المراد بها الورثة المالية وأنها قرينة معينة لم يبق في الكلام ما يدل على طلب الولد الذي هو المقصود الأصلي في الدعاء (7). ثم يسأل ربه أن يجعله رضيعاً، وإطلاق الرضا يقتضي شموله العلم والعمل الصالح، أي اجعله رب محلى بالعلم النافع والعمل الصالح (8).

(1) سورة الشعراء : 83-86 .

(2) ينظر : الحوار في القرآن : 269 .

(3) سورة النمل : 19 .

(4) وذلك عندما سمع قول النملة وهي تأمر النمل بالدخول إلى مساكنهم قال تعالى ﴿.. قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ..﴾ سورة النمل : ١٨-١٩ .

(5) سورة مريم : 5-6 .

(6) ينظر الميزان في تفسير القرآن : 8/14 .

(7) ينظر : م.ن : 13/14 .

(8) ينظر : م.ن : 9/14 .

2- التهديد والوعيد

يأتي هذا في مقام عدم الرضا بالمأمور به ، قال تعالى : ﴿ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ (1).

الخطاب للكافرين بما آتاهم الله من النعم ، الذين إذا مسَّهم شر دعوا الله منيبين ومخلصين له في الدعاء وإذا أذاقهم رحمته يعودون إلى عبادة غير الله خلاف ما يقتضيه العقل من مقابلة النعم بالشكر ، خاطبهم تعالى بأن يتمتعوا في هذه الدنيا وينتفعوا بنعيمها كيفما شاءوا وسيعلمون عاقبة كفرهم .

فالفعل (تمتعوا) لم يُفد الأمر الحقيقي وإنما تهديد الكافرين بنعم الله وزجرهم بأسلوب مقنع .

وفائدة هذا التهديد والوعيد الإلهي بأسلوب الأمر ، إثارة الخوف والرعب في نفوس هؤلاء ليحملهم هذا الخوف على ترك الكفر والجحود ، والشكر لله بعبادته .

3- التسليم

وقد يكون اللفظ أمراً والمعنى تسليم (2) ، قال تعالى : ﴿ قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ (3).

فالفعل (اقض) أمر ، والمراد به التسليم لما جاء به موسى عليه السلام من آيات ومعجزات والتي تثبت نبوته وإنه جاء بأمر من الله ليهديهم إلى سبيل الحق .

والآيتان حكاية لقول السحرة مخاطبين فرعون ، بأنهم لن يتراجعوا بعد تهديده لهم بالعذاب وقطع الأيدي والأرجل والصلب ، لن يتراجعوا عن إيمانهم بالله ، وواجهوه مواجهة المؤمن الصامد الذي لا ينهار ولا يتراجع أمام كل أساليب التهويل والتهديد .

فآيات الحق قد بهرت أبصارهم وغشيت قلوبهم فأزالت منها رذيلة الجبن والملق واتباع الهوى والتولّاه إلى سراب زينة الحياة الدنيا ، ومكّنت فيها التعلق بالحق والدخول تحت ولاية الله والاعتزاز بعزته فلا يريدون إلا ما أَراده الله ولا يرجون إلا الله ولا يخافون إلا الله عزّ اسمه (4).

وفعل الأمر الذي خرج إلى التسليم أفاد ثبات خوف الله ورجائه في قلوب السحرة المؤمنين وزوال خوف فرعون وسطوته ، وثباتهم أمام تهديداته لهم بأشد العذاب .

يقول السيد محمد حسين فضل الله : ((كان موقفهم من أسمى المواقف التي تجسّد الثبات على العقيدة أمام قوى الكفر والطغيان حتى الموت)) (5).

4- الإهانة والتحقير

ويكون ((بتوجيه الأمر إلى المخاطب بقصد استصغاره والإقلال من شأنه

(1) سورة الروم : 34 .

(2) ينظر : الصاحبى : 139 .

(3) سورة طه : 72-73 .

(4) ينظر : الميزان في تفسير القرآن. 181/14 .

(5) الحوار في القرآن : 283 .

والإزرء به وتبكيته (((1).
منه ما جاء في قوله تعالى: ﴿.. وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ (2).
وقال تعالى: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ (3).
فالفعل ذوقوا من الذوق وهو وجود الطعم في الفم (4).
والمراد بالأمر هنا الإهانة والاستهزاء بهم ، فأنزل الله الكافرين منزلة من يتذوق الطعام ، فجعلهم يستلذون بهذا العذاب كأنهم سعوا إليه وعملوا على نيله ، والحريق هو الغليظ من النار المنتشر العظيم الإهلاك (5).
فأنزلهم الله هذه المنزلة ؛ ليريهما ما هم فيه من المهانة والتحقير والذلة ، وهذا ما يثير الخوف والرغبة في نفوس الكافرين والمكذبين ، من العقابة السيئة والعذاب العظيم .

النهى

هو طلب الكف عن الفعل ، على وجه الاستعلاء مع إلزام وله صيغة واحدة وهي المضارع المقرون بـ (لا) الناهية (6).
قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُخْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا ..﴾ (7).
لما كانت التوراة منزلة من الله تعالى ومشملة على الهداية والنور ، وشرعية يقضي بها النبيون والأحبار ، وقد أخذ منهم الميثاق على حفظها ، نهى الله تعالى الحكام عن أن يكتموا شيئاً من أحكامها بأن يحرفوها أو يعدلوا عنها خشية الناس وخوفاً منهم ، والآية تشمل جميع المخاطبين من الحكام وغيرهم من المسلمين ، فلا بد أن تكون خشيتهم من الله تعالى بالوفاء بعهدده وميثاقه والعمل بشرائعه ، لا أن تكون الخشية من الناس (8).
وجاء النهي الثاني لهؤلاء الحكام بأن لا يستبدلوا حكماً من أحكامه تعالى طمعاً بالمال والجاه فمهما يكن كثيراً فهو قليل ومردول بالنسبة إلى ما فاتهم بمخالفة الحكم الإلهي .

(1) علم المعاني ، د. عبد العزيز العتيق ، دار الآفاق العربية ، القاهرة ، 1424هـ - 2004م : 68 .

(2) سورة سبأ : 42 .

(3) سورة الحج : 22 .

(4) ينظر : المفردات : مادة ذوق .

(5) ينظر : الكشف : 693 .

(6) ينظر : جواهر البلاغة: 63 .

(7) سورة المائدة : 44 .

(8) ينظر : مواهب الرحمن : 246/11 .

ومن النهي ما جاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (1)
 نهى الله سبحانه وتعالى عن التخوف من الشيطان وأوليائه ، ثم ربط هذا النهي بمخافة الله عز وجل ﴿وَخَافُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ فالإيمان يقتضي أن يؤثر خوف الله جل وعلا على خوف غيره .
 ويخرج النهي عن هذا الأصل فيفيد أغراضاً مجازية منها :
 1- الدعاء

ويكون على سبيل التضرع والتذلل ويكون من الأدنى إلى الأعلى كقوله تعالى :
 ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (2).
 صدر الدعاء من قوم موسى (عليه السلام) وهم فازعون إلى الله سائلوه أن لا يجعلهم فتنة للظالمين أي ((لا تسلطهم علينا فتفتنهم بنا كما روي عن الصادقين عليهما السلام)) (3).
 ومنه قوله تعالى: ﴿..رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (4) .
 بقلوب خائفة خاشعة راجية يقف هؤلاء المؤمنون بين يدي ربهم للدعاء .
 والأفعال (لا تؤاخذنا) (ولا تحمّلنا) جاءت بصيغة النهي ، ولكنه خرج للدعاء فهو لاء يدعون ربهم قائلين :إذا كنا أذنبنا بسبب النسيان الذي يكون من التماهل والتساهل ، أو أخطأنا فاغفر لنا ذنوبنا برحمتك الواسعة وجنبنا العقاب ، ولا تحمّلنا الامتحانات الصعبة والعقوبات التي لا تطاق ﴿..وَاعْفُ عَنَّا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ .
 ونستدل من خروج النهي إلى الدعاء في القرآن الكريم على أن الله عز وجل يحثنا على الدعاء ويرغبنا فيه (5)، قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ..﴾ (6).
 2- النصح والإرشاد

وقد يدل النهي على النصح والإرشاد كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ (7)
 حيث يبرز معنى الخوف بأسلوب النهي الوارد في النص المبارك ، والذي يخرج إلى

(1) سورة آل عمران : 175 .

(2) سورة يونس : 85 .

(3) ينظر : مجمع البيان : 163/5 .

(4) سورة البقرة : 286 .

(5) ينظر : الترغيب والترهيب في القرآن الكريم : 74 .

(6) سورة البقرة : 186 .

(7) سورة يوسف : 67 .

معنى النصح والإرشاد ، فقد نصح نبي الله يعقوب (عليه السلام) ولده بأن لا يدخلوا مصر من باب واحد حذراً من إصابة العين ، فإنهم كانوا ذوي بهاء وإشارة حسنة .. فخاف لذلك أن يدخلوا كوكبة واحدة ، فبعانوا لجمالهم وجلالة أمرهم في الصدور ، فيصيبهم ما يسوؤهم⁽¹⁾

3- التهديد والوعيد

وقد يخرج النهي إلى معنى الوعيد والتهديد كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾⁽²⁾ جاء النهي الإلهي وعيداً للظالم وتعزية للمظلوم ، فلا يُظَنُّ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ غَافِلٌ عَنْ مَجَازَاةِ الظَّالِمِينَ عَلَى أَعْمَالِهِمْ ، فالله عزيز ذو انتقام ، إنما يؤخرهم ليوم شديد العقاب وهو يوم القيامة ، أبصارهم فيه شاخصة لا تغمض لهول ما ترى .
ويثير هذا النهي الذي خرج لغرض الوعيد الخوف في نفس المتلقي ، فالله عز وجل لا يغفل ولا يسهو عن عقاب الظالمين ، وإنصاف المظلومين منهم .

الاستفهام

هو طلبُ خبر ما ليس عندك ، أي طلب الفهم على وجه التحصيل والإيجاد بأداة خاصة⁽³⁾.

وهو من الأساليب المؤثرة في نفس السامع ؛ لأنه أسلوب خطابي يعتمد الاستدلال العقلي والاحتجاج ، لذا اتخذ القرآن الكريم في آيات الخوف وسيلة لتصوير الحدث .
وقد ورد الاستفهام في القرآن الكريم على أصل معناه ، وهو طلب الفهم ومعرفة المجهول قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا * فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا * إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا * إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ مَّنْ يَخْشَاهَا﴾⁽⁴⁾.

فقيام الساعة مما استأثر الله تعالى بعلمه ، فليست مهمة النبي أن يتحدث إليهم عن تحديد وقتها ، بل مهمته أن ينبه الناس إلى وجودها من أجل أن يستعدوا لها في عملهم.
كما إن تعيينها لا يخدم الفكرة التي يستهدفها الدين في واقع الناس ، من التركيز على الانضباط العملي من خلال الخوف من النتائج السلبية للأعمال السيئة في يوم القيامة .

ولهذا لم يعرفها الله سبحانه إلى النبي ولا لغيره من خلقه⁽⁵⁾.
واستعمال الاستفهام الحقيقي كثير في القرآن وأكثر منه خروجه عن أصل وضعه، لمعانٍ أخرى تُفهم من سياق الكلام فمن معانيه المجازية :

1- الدعاء

قال تعالى: ﴿.. وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ

(1) ينظر : الكشف : 523 .

(2) سورة إبراهيم : 42.

(3) ينظر : البرهان في علوم القرآن : 326/2 ، والطرز : 286/3 .

(4) سورة النازعات : 42-45 .

(5) ينظر : الحوار في القرآن 197 .

نَصَرَ اللَّهُ قَرِيبٌ ﴿١﴾.

إذ خرج الاستفهام في النص المبارك إلى غرض الدعاء ، ومن العلماء من جعله للتمني^(٢)، وجعله بعضهم للاستبطاء^(٣) وقيل : ((إِنَّ معناه الدعاء لله بالنصر ولا يجوز أن يكون على جهة الاستبطاء لنصر الله ؛ لأنَّ الرسول يعلم أن الله لا يؤخره عن الوقت الذي توجبه الحكمة))^(٤).

وقد كان الأنبياء (عليهم السلام) وأتباعهم وأنصارهم يلجؤون إلى الله تعالى في ساحات الصراع وفي البأساء والضراء ، يطلبون منه النصر ، ويستغيثون به فيرزقهم الله تعالى النصر والغلبة .

فالجماعة المؤمنة وعلى رأسها الرسول عندما هاجمتها الشدائد والمخاوف^(٥)، رفعت صوته بالدعاء ((متى نصر الله)) وواضح أن هذا التعبير ليس اعتراضاً على المشيئة الإلهية بل هو نوع من الدعاء^(٦).

وبما أنهم كانوا في غاية الاستقامة والصبر مقابل تلك الحوادث والمصائب وكانوا في غاية التوكل بتفويض الأمر إلى اللطف الإلهي جاء الخبر القرآني المؤكد بالنصر الإلهي ((ألا إن نصر الله قريب)).

2- الوعيد

يخرج الاستفهام إلى هذا الغرض فيثير الخوف والرغبة في النفوس من خلال التوعد بالعاقبة السيئة ، قال تعالى: ﴿ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴾^(٧).

فالاستفهام جاء لغرض الوعيد والتهديد لمن يفترى على الله الكذب ، وهو وعيد عظيم حيث أبهم أمرهم^(٨).

والاستفهام يثير الخوف والرعب في نفوس الذين يفترون الكذب على الله إذ أبهم عاقبتهم وما ينتظرهم ، فهم في أشد العذاب ؛ لأنَّ معصيتهم أشدَّ المعاصي ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً .

3- التعظيم والتهويل

قال تعالى: ﴿ الْقَارِعَةُ * مَا الْقَارِعَةُ ﴾^(٩).

نرى كيف أن الاستفهام في الآية المباركة يثير الهول والخوف والرعب في النفوس . وفهم التهويل من الاستفهام ؛ لأنَّ الله عز وجل يوحى إلى المخاطب بأنَّ ما ذكر لا يليق

(١) سورة البقرة : 214 .

(٢) ينظر : الكشف 126 .

(٣) ينظر : البرهان في علوم القرآن : 342/2 ، والإتقان في علوم القرآن : 421 .

(٤) مجمع البيان : 398/2 .

(٥) كما عبر عنها النص بـ (وزلزلوا ..) .

(٦) ينظر : الأمل : 518 / 1 .

(٧) سورة يونس : 60 .

(٨) ينظر : الكشف : 367 .

(٩) سورة القارعة : 2-1 .

أن يمر به المرء مر الكرام ، بل من الواجب التريث والتمهل وفهم حقيقته ومدلوله⁽¹⁾.
القارعة اسم من أسماء القيامة ؛ لأنها تقرر القلوب بالفرع وتقرر أعداء الله بالعذاب ،
وهذا الاستفهام تعظيماً لشأنها وتهويلاً لأمرها⁽²⁾.
وهذا الخوف الذي يثيره الاستفهام عن القارعة فضلاً عن مدلولها يوقظ العقول من سباتها
العميق وينقذ النفوس من ظلمة الجهالة والغفلة ، فيضيء الطريق إلى الله بنور الإيمان
والعمل الصالح .

ومن التعظيم ما جاء في قوله تعالى : ﴿لَا يَوْمَ أُجِّلَتْ﴾⁽³⁾.
فهو تعظيم ليوم القيامة وتعجيب من هولها⁽⁴⁾ وهذا مما يثير الخوف في نفس المتلقي
فيدفعه ذلك إلى التفكير في أمر ذلك اليوم الرهيب الذي أُجِّلَتْ له الساعة .

4- الاستبعاد

قال تعالى : ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ * لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ *
لَوَاحَةٌ لِّلْبَشَرِ﴾⁽⁵⁾.

والاستفهام هنا للاستبعاد ، استبعاد أن يدرك السامع حقيقة هذه النار في شدتها وهولها
((فالسامع لا يعرف معنى سقر ، فهي شديدة قوية ، لا تبقي ولا تذر وفي هذا استبعاد
لذهن السامع بأنه مهما تخيل سقر ، فإنه لن يستطيع أن يتصورها حق تصورها))⁽⁶⁾.
إنها الهول الذي يتجسد أمام الكافرين يوم القيامة .

5- التوبيخ

ومن ذلك ما ورد في قوله تعالى : ﴿مَا سَأَلَكُمْ فِي سَقَرَ﴾⁽⁷⁾.
وهذا سؤال توبيخ فأهل الجنة تطلّعوا على أهل النار وقالوا لهم : ما أوقعكم في النار؟ جاء
في الكشف ((فإن قلت : لِمَ يسألونهم وهم عالمون بذلك؟ قلت : توبيخاً لهم وتحسيراً
وليكون حكاية الله في كتابه تذكرةً للسامعين))⁽⁸⁾.

ويثير الاستفهام الذي خرج لمعنى التوبيخ الخوف في نفس السامع فيبتعد عما يؤدي إلى
السلوك في سقر ، والذي يخبر به أهل النار في الآيات التالية لهذه الآية الكريمة ، من
تركهم للصلاة وإطعام المساكين وخوضهم مع الخائضين وتكذيبهم بيوم الدين .
وكذلك يثير هذا الاستفهام في النفس التفكير ويدفعها إلى تدبر الأمور حتى تقتنع بأنه ما
كان ينبغي أن يقع ما وقع ، أو كان من الصواب أن يقع ما لم يقع .

6- التقرير

وهو حملك المخاطب على الإقرار والاعتراف بأمرٍ قد استقر عنده ،

(1) ينظر : من بلاغة القرآن : 164 .

(2) ينظر: مجمع البيان : 679/10 .

(3) سورة المرسلات : 12 .

(4) ينظر : الكشف : 1169 .

(5) سورة المدثر : 26-29 .

(6) التعابير القرآنية والبيئة العربية في مشاهد القيامة ، ابتسام مرهون الصفار ، مطبعة الآداب ، النجف ،

العراق ، ط1 ، 1387هـ - 1967م : 221 .

(7) سورة المدثر : 42 .

(8) الكشف : 1159 .

ثبوته أو نفيه⁽¹⁾.
قال تعالى: ﴿.. أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾⁽²⁾.
والاستفهام جاء هنا للتقرير ، فجهنم الشديدة على الكافرين والمتكبرين على ربهم والتي تحطمهم وتأخذهم بقوة ستكون مَثْوًى لهم ، فهي عميقة القعر ، بعيدة الأغوار يهوي فيها المتكبر أو المجرم فلا يجد له قرار⁽³⁾.
وهذا الاستفهام يثير الخوف والرغبة في نفس السامع من العاقبة السيئة والمقام الأخروي الأبدي لكل كافر متكبر على الله عز وجل .
والتقرير يهدف إلى إثبات مضمون الجملة وحقيقتها ، ويحدث هذا عندما يكون المستفهم عالماً بالشئ لكنه يسأل عنه ليحصل من الطرف الآخر على اعتراف بالشئ بعد التدبر والأناة .
ومن هذا الاستفهام ما جاء في قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ..﴾⁽⁴⁾.
أفاد الاستفهام ((إثبات الكفاية وتقريرها))⁽⁵⁾. وعنده يعني الرسول محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) يكفيه عداوة من يعاديه وينأونه ، وكان الكفار يخوفونه بالأوثان التي كانوا يعبدونها⁽⁶⁾.
فالله عز وجل يتولى الأنبياء (عليهم السلام) والمؤمنين بالرعاية والحماية؛ لأنه كافيههم في الشدائد والمصاعب وكافل مصالحهم .
7- الإنكار

يخرج الاستفهام إلى معنى الإنكار كما في قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ * وَأَوَّامِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ * أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾⁽⁷⁾.
والهمزة جاءت للإنكار والتوبيخ والوعيد للكافرين فقد أنكر الله سبحانه وتعالى على الكافرين المكذبين بالرسول محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) أمنهم من إتيان عذاب الله في الليل وهم نائمون ، أو إتيانه نهاراً وهم في غير ما ينفعهم يشتغلون ، فإن من اشتغل بدينه وأعرض عن آخرته كاللاعب . والمعنى بـ (أهل القرى) كل قرية يقيم أهلها على معاصي الله في كل وقت وزمان وإن نزلت بسبب أهل القرى الظالم أهلها في زمن النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)⁽⁸⁾، وفي ذكر هذين الوقتين – الليل والنهار – والذين تعقبهما الجملة الحالية لكي لا يأمنوا ليلاً ولا نهاراً ، فتقييد إتيان البأس بأوقات معينة يجعل الحدث يبدو أكثر رعباً وفزعاً .
ونتبين من الآية ما يجب أن يكون عليه المكلف من الخوف من عقاب الله ، فيسارع إلى

(1) ينظر : البرهان في علوم القرآن: 331/2 .

(2) سورة الزمر : 60 .

(3) ينظر : التعابير القرآنية : 211 .

(4) سورة الزمر : 36 .

(5) الكشاف : 941 .

(6) ينظر : مجمع البيان: 643/ 8 .

(7) سورة الأعراف : 97-99 .

(8) ينظر : مجمع البيان : 562/4 .

طاعته واجتناب معاصيه ولا يستشعر الأمن في ذلك فيكون قد خسر دنياه وآخرته بالتهالك على القبائح⁽¹⁾. فإنكار الأمن يفيد إثبات الخوف من العقاب ، والاستفهام الذي بمعنى الإنكار حاصله راجع إلى تنبيه السامع على وجه فساد ذلك الشيء حتى يرجع إلى نفسه فيرتد عنه⁽²⁾. فلنحظ من ذلك كيف أن الاستفهام قد صوّر الحدث بأبلغ صورة وأروعها فيُحرّك بذلك العاطفة والوجدان لدى المتلقي ، فيعمل على إثارة الخوف عنده .

التمني

هو طلب حصول أمر محبوب في المستقبل مستحيل الوقوع أو بعيده والحرف الموضوع له (ليت)⁽³⁾ .

كما في قوله تعالى : ﴿.. يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾⁽⁴⁾.

إنّها الزفرة الحرة التي يُطْلَقُهَا من فاته الركب وضلّ عن السبيل وما يقولها الكافر إلا وهو ضائعٌ مكروب ، وهو تعبيرٌ يُلقِي ظلال الرهبة والندم حتى ليتمنى الإنسان أن ينعدم ، ويرى أنّ هذا أهون من مواجهة الموقف الرهيب الشديد⁽⁵⁾.

فمن شدة خوف هذا الكافر من أهوال القيامة وشدائدها يتمنى أن لو كان تراباً فاقداً للشعور والإرادة ولا يواجه هذا اليوم العسير .

وقد يتمنى بـ (لو) لغرض بلاغي هو الإشعار بعزة المتمني وندرته ؛ لأنّ المتكلم يُبرزه في صورة الممنوع ، إذ إنّ (لو) في أصل وضعها تدل على امتناع الجواب لامتناع الشرط⁽⁶⁾.

كما في قوله تعالى : ﴿.. يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابٍ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ * وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ * وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ يُنْجِيهِ﴾⁽⁷⁾.

إنّه الهول والرعب الذي يذهب بنفس المجرم يوم القيامة ، فيتمنى لو أفتدى من العذاب بأعزّ الناس عليه وهم أولاده وزوجته التي كانت سكناً له ، وأخيه وعشيرته ، وتأخذه اللهفة في النجاة فيود لو يفتدي من في الأرض جميعاً وهذه ((صورةٌ للهفة الطاغية والفرع المذهل والرغبة الجامحة في الإفلات ، صورة مبطنة بالهول مغمورة بالكرب موشاة بالفرع ترتسم من خلال التعبير القرآني الموحى))⁽⁸⁾.

هكذا نرى ورود أساليب الطلب الإنشائية في آيات الخوف حتى شكلت ظاهرة ملفقة للنظر ، مما يؤكد أنّ المعاني والأحداث التي تناولتها تحتاج إلى هذا الأسلوب الخطابي لغرض التوضيح والبيان والإقناع بطريقة فنية متقنة .

(1) ينظر : مجمع البيان : 4 / 562 .

(2) ينظر : نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز : 185 .

(3) ينظر : من بلاغة القرآن : 167 .

(4) سورة النبأ : 40 .

(5) ينظر : في ظلال القرآن : 436/8 .

(6) ينظر : البلاغة الواضحة ، علي الجارم ومصطفى أمين ، مكتبة الأسد ، دمشق ، 1999م : 226 .

(7) سورة المعارج : 11-14 .

(8) في ظلال القرآن : 279/8 .

المبحث الثالث

التقديم والتأخير

هو أحد أساليب البلاغة التي تظهر فيها قوة المنشئ وموهبته وفصاحته وحسن تصرفه في الكلام .

وهو باب كثير الفوائد ، جم المحاسن ، واسع التصرف ، بعيد الغاية⁽¹⁾ وما استعمله العرب في كلامهم إلا ((دلالة على تمكنهم في الفصاحة وملكتهم في الكلام وانقياده لهم، وله في القلوب أحسن موقع ، وأعذب مذاق))⁽²⁾.

وقد حرص القرآن الكريم على أن يكون التقديم والتأخير ذا مغزى دال على هدف ، حتى تصبح الآية بتكوينها ، تابعة لمنهج نفسي مترابط⁽³⁾، مما يدعو المتلقي للوقوف متأملاً لاستجلاء المعنى الذي قد لا يُعبّر عنه بأسلوب آخر والتقديم والتأخير يكون على وجهين⁽⁴⁾:

الأول/ التقديم على نية التأخير

مثل تقديم المفعول به على فعله، وتقديم الحال على فعله، وتقديم الظرف والجار والمجرور على فعلهما، وتقديم الخبر على المبتدأ ، وهذا التقديم في الغالب يفيد الاختصاص⁽⁵⁾.

والمتقدم هنا هو المحور الذي يدور عليه الحديث ، فيكون هو المقصود ؛ لأنه تقدم في النفس ، فيكون أولى أن يتقدم بالجملة أيضاً ، ويكون تقدمه في النفس من باب التأثير فيها،

(1) ينظر : دلائل الإعجاز : 72 .

(2) البرهان في علوم القرآن : 233/3 .

(3) ينظر : من بلاغة القرآن : 112 .

(4) ينظر : دلائل الإعجاز 73 ، والطرز : 56/2 .

(5) ينظر : التعبير القرآني : 48 .

فيفيد إثارة الخوف فيها أو تصوير حالة خوف معينة .
كما في قوله تعالى: ﴿وَأَقْرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ (1).

ولتقديم الخبر (شاخصة) على المبتدأ (أبصار) أثراً في رسم مشهد من مشاهد يوم القيامة وإبرازه .

وقد أفاد التقديم الاختصاص ، وهو دليل على أن الكافرين ((مختصون بالشخص دون غيرهم من سائر أهل المحشر)) (2).

وكأن أي صفة أخرى لأبصارهم قد انمحت ، ولم يبق لها سوى الانفتاح الذي يؤذن بالخوف والذهول معاً ، وهو دليل على دهشتهم ومدى الرعب الذي يملأ نفوسهم في ذلك اليوم فتكون فيه الأبصار شاخصة فقط ، لا تكاد تطرف من شدة ذلك الهول .
وقوله تعالى: ﴿وَضُنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ (3) .

فتقديم الخبر (مانعتهم) على المبتدأ (حُصُونُهُمْ) دليل على فرط وثوقهم بمتانة حصونهم (4)، مما جعلهم يعتقدون أنهم في عزة ومنعة من سلطان الله وإنزال العذاب بهم على يد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فاتأهم أمر الله وعذابه من حيث لم يتوهموا أن يأتيهم ، لما قدروا في أنفسهم من المنعة وجعل الله امتناعهم من رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) امتناعاً منه (5)، فألقى سبحانه الرعب في قلوبهم فصاروا يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين .

ومن تقديم المفعول به ما جاء في قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ (6)
فأله عز وجل يوجه خطابه في هذه الآية لبني إسرائيل ، يأمرهم بتذكر النعم الإلهية ، والوفاء بالعهد ، والخوف منه تعالى .

وقد أفاد تقديم المفعول به على فعله (إيائي) على فعله (فارهبون) الاختصاص ، فالخوف يجب أن يكون من الله وحده – دون سواه – ، وهذا يمنح الإنسان العزم على تحدي كل العقبات التي تقف بوجه أهدافه ، والالتزام بعهده ؛ لأنّ التحوّل الموهوم من هذا وذاك أهم موانع الالتزام بالعهد الإلهي . ومن الجدير بالذكر أنّ ظاهرة الخوف كانت متغلغلة في نفوس بني إسرائيل نتيجة السيطرة الفرعونية الطويلة (7) .

فبالخوف من الله وحده تنكسر كل حواجز الخوف القائمة في طريق الوفاء بالعهد الإلهي .
ومن هذا التقديم ما جاء في قوله تعالى: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ * إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ * وَلَا يَحِضُّ عَلَى طَعَامِ

(1) سورة الأنبياء : 97 .

(2) الطراز : 69/2 .

(3) سورة الحشر : 2 .

(4) ينظر : الكشف : 1092 .

(5) ينظر : مجمع البيان : 327/9 .

(6) سورة البقرة : 40 .

(7) ينظر : الأمل : 1 / 150 .

المُسْكِينِ» (1) إذ تقدم المفعول الثاني (الجحيم) على فعله (صَلُّوه). فنجد أن التقديم أعطى للعذاب الذي يناله المجرم بُعداً تصويرياً من خلال الاختصاص الذي أفاده . والمعنى لا تصلّوه إلا الجحيم وهي النار العظيمة وليكون الجزاء وفق المعصية حيث كان يتعاضد على الناس (2).

وفي تقديم الجار والمجرور (سلسلة) على الفعل (فاسلكوه) تعظيم لهذا العذاب أي لا تسلكوه إلا في هذه السلسلة، فهي أظع وأقسى معاناة من سائر مواضع الإرهاق في الجحيم (3).

فالتقديم هنا جعل من الجحيم والسلسلة مختصين بهذا الكافر ، لن ينفلت منها أبداً ، وهذا التقديم يثير الخوف والرعب في النفوس مما يلاقيه منعدم الإيمان بالله وغير المنفق في سبيله في يوم القيامة.

والآيتان ﴿ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ * وَلَا يَحْضُرُ عَلَى طَعَامِ الْمُسْكِينِ ﴾ في مقام التعليل للأخذ ثم التصلية في الجحيم والسلوك في السلسلة ؛ لأنه كان لا يؤمن بالله العظيم، ولا يحض على طعام المسكين .

فقطع العلاقات مع الخالق والخلق هي العامل الأساس لبؤس هؤلاء المجرمين ، ونيلهم ذلك العذاب الشديد .

روي عن أبي الدرداء : أنه كان يحض امرأته على تكثير المرق لأجل المساكين ، ويقول : خلعنا نصف السلسلة بالإيمان أفلا نخلع النصف الباقي (4).

ومن تقديم الجار والمجرور في آيات الخوف ما ورد في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ (5).

فتقديم الجار والمجرور (لكم) يفيد معنى الاهتمام والاختصاص لغرض التخويف والتحذير .

ومنه قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَانْكُمُ غَالِيُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (6).

هذا الحث على التوكل جاء من رجلين مؤمنين لا يخافان إلا الله وحده ولا يخشيان سطوات الجبارين من خلق الله ، حثاً قومهما من بني إسرائيل على أن يباغتوا عدوهم ولا يمهلونهم ، ليجدون للحرب مجالاً ووعودهم بالنصر والغلبة وذلك باعتمادهم على الله وتوكلهم عليه .

فجاء تقديم الجار والمجرور (على الله) على الفعل (فتوكلوا) ليدل على اختصاص التوكل على الله وحده دون غيره . وبالتوكل على الله ينتفي الخوف من الجبابرة والظلمة .

(1) سورة الحاقة : 30-34 .

(2) ينظر : الكشف 1137 .

(3) ينظر : إرشاد العقل السليم : 26/9 .

(4) ينظر : التفسير الكبير: 30 / 116 .

(5) سورة هود : 25 .

(6) سورة المائدة : 23 .

فالخوف لابد أن يكون ممن يُخاف سطوته التامة وقدرته الكاملة لا ممن يدعي القوة والسطوة وهو مقهور تحت إرادة خالقه .

الثاني/ التقديم الذي لا على نية التأخير

ونجده في قوله تعالى: ﴿ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ * أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرٌ 》⁽¹⁾ .
فقد قدم التّوعد بالخسف على التّوعد بالحاصب وذلك لما كانت الأرض التي خلقها الله لهم ومهدّها لاستقرارهم يعبدون عليها غير خالقها، ويعظمون عليها الأصنام التي من شجرها أو حجرها، خوْفهم بما هو أقرب إليهم من الأشياء التي أهلك بها من كان قبلهم⁽²⁾ .

وقد يكون التقديم والتأخير لملاحظ أخرى تتناسب مع السياق .
ومنه تقديم ضمير المخاطبين على الضمير العائد على الأولاد في قوله سبحانه : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ .. 》⁽³⁾ .
وفي آية أخرى تقديم الضمير العائد على الأولاد ، وتأخير ضمير المخاطبين في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا 》⁽⁴⁾ .

ولعل السر في ذلك أنّه في الآية الأولى يخاطب آباء مملقين بدليل قوله (من إملاق) فكان من البلاغة أن يسرع فيعد هؤلاء الآباء بما يُغنيهم من الرزق ، وأن يكمل ذلك بعدتهم برزق أبنائهم حتى تسكن نفوسهم ، ولا يجد القلق سبيلاً إليها أمّا في الآية الثانية فالخطاب للأغنياء بدليل قوله : (خَشْيَةً إِمْلَاقٍ) فإنّه لا يخشى الفقر إلا من كان غنياً ، إذ الفقير منغمس في الفقر ، فكان من البلاغة أن يُقدّم وعد الأبناء بالرزق ، حتى يسرع بإزالة ما يتوهمون من أنّهم بإنفاقهم على أبنائهم ، صائرون إلى الفقر بعد الغنى ، ثم مضى يُكْمِل طمأنينتهم فوعدهم بالرزق بعد عِدّة أبنائهم به⁽⁵⁾ .

فقدّم في كل موضع من الموضعين ما اقتضى تقديمه ، وأخر ما اقتضى الموضع تأخيره بحسب السياق .

وهكذا نرى أنّ القرآن يضع كلماته الوضع الفني الرائع ، فيُقدّم ويؤخّر لدلالة نفهمها من وراء رصف الألفاظ وحكمة ندرتها من هذا النسيج المحكم المتين . ومن ذلك يتبيّن لنا فخامة التعبير القرآني وعلوّه ، ومثّل هذا النظم لا يمكن أن يكون من البشر . فسبحان الله رب العالمين .

(1) سورة الملك : 16-17 .

(2) ينظر : درّة التنزيل وغرّة التأويل ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله الخطيب الإسكافي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1416هـ - 1995م : 283 .

(3) سورة الأنعام : 151 .

(4) سورة الإسراء : 31 .

(5) ينظر : من بلاغة القرآن : 117 و التعبير القرآني : 61 .

المبحث الرابع الفصل والوصل

يُعرّف الوصل بأنه عطف بعض الجمل على بعض ، والفصل هو ترك العطف ⁽¹⁾. وقد اهتم علماء البلاغة بمواطن الفصل والوصل في الكلام وعدّوا ((البلاغة معرفة الفصل والوصل)) ⁽²⁾. وأشاروا إلى أهمية الفصل والوصل والمعرفة بمواضعهما ، فإذا فقدت هذه المعرفة كانت البلاغة كالآلي بلا نظام ⁽³⁾. وليس خفياً من أنه يراد بذلك التنبيه على دقة مسلك هذا العلم وغموضه وعظم خطره ، إذ

(1) ينظر : مفتاح العلوم ، أبو يعقوب محمد بن علي السكاكي ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ، 1356هـ - 1937م : 119 - 120 ، والإيضاح : 145 .

(2) البيان والتبيين : 87/1 .

(3) ينظر : كتاب الصناعتين : 438 .

يتعلق بكل من الفصل والوصل أسرار ولطائف ترسم صوراً تحسها النفس فتلمسها مستشعرة ما بها من مغزى فهما العلم بمواضع العطف والاستئناف والتهدي إلى كيفية إيقاع حروف العطف في مواقعهما ، أو تركها عند عدم الحاجة إليها (1).

وللفصل والوصل مكانة مهمة في آيات القرآن الكريم ومنها آيات الخوف ، فمن مواضع الفصل أن يكون بين الجملتين إتحاد تام ، كأن تكون الجملة الثانية تأكيداً للأولى ، كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (2).

فقوله (خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ) تأكيدٌ بليغ لـ (سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ) ؛ لأن من كانت حاله إذا أنذر مثل حاله إذا لم يُنذر كان في غاية الجهل وكان مطبوعاً على قلبه لا محالة (3) فليس لديهم عيون ينظرون بها إلى آيات الحق ، وأذان يسمعون بها نداء الحق ، وقلوب يُدركون بها الحقائق ، فهم غارقون في الضلال وليس لديهم استعداد للهداية .

ومن مواضع الفصل أن تأتي الجملة الثانية بياناً للأولى ، أي أن يكون في الأولى نوع من الإبهام يقتضي المقام إزالته (4).

كقوله تعالى: ﴿ .. وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ * يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ (5).

فجملة (يَخَافُونَ) بيان لنفي الاستكبار وتوكيد له ؛ ((لأن من خاف الله لم يستكبر عن عبادته)) (6). وقد أثبت القرآن خوف الملائكة من ربهم ، والله عز وجل ليس عنده إلا الخير ولا شر عنده وسبب شر يُخاف منه ، فالشر وسببه من غيره لا منه تعالى ، فخوفهم من الله لا من عذابه تعالى أو عصيان أمره ، نُقل عن ابن عباس قوله : أن خوف الملائكة خوف إجلال ، والدليل على صحته قوله تعالى: ﴿ .. إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ .. ﴾ (7).

وهذا يدل على أنه كلما كانت معرفة الله تعالى أتم ، كان الخوف منه أعظم ، وهذا الخوف لا يكون إلا خوف الإجلال والكبرياء (8).

ويذكر العلامة الطباطبائي ((أن حقيقة هذا الخوف التأثير والانكسار والصغار وتأثر الضعيف قبال القوي الظاهر بقوته ، فمخافتهم هي تأثيرهم الذاتي عما يشاهدونه من مقام ربهم)) (9) وتقيد قوله تعالى: (يَخَافُونَ رَبَّهُمْ) بقوله (مِنْ فَوْقِهِمْ) فيه إشارة إلى أن كونه

(1) ينظر : جواهر البلاغة : 170 .

(2) سورة البقرة : 6-7 .

(3) ينظر : دلائل الإعجاز : 228 .

(4) ينظر : البلاغة والتطبيق : 157 .

(5) سورة النحل : 49-50 .

(6) الكشف : 574 .

(7) سورة فاطر : 28 .

(8) ينظر : التفسير الكبير : 48/20 .

(9) الميزان في تفسير القرآن : 14 / 268 .

تعالى فوقهم قاهراً لهم متعالياً بالنسبة إليهم هو السبب في مخافتهم ، وليس هذا إلا الخوف من مقامه تعالى لا من عذابه فهو خوف ذاتي ويرجع إلى نفي الاستكبار عن ذواتهم ، وأما قوله تعالى : (وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ) فإشارة إلى عدم استكبارهم في مقام الفعل ، وإذا لم يُستكبر عليه تعالى في ذات لم يُستكبر عليه في فعل فهم لا يعصون الله سبحانه في أمر بل يفعلون ما يؤمرون (1).

وفي إتيان قوله (يؤمرون) مبنياً للمجهول تعظيم وتفضيم لمقامه سبحانه . فلم تُعطف هذه الجمل على ما سبقتها ؛ لأن عطفها بمنزلة عطف الشيء على نفسه وهذا يسمى كمال الاتصال (2).

ومن مواضع الفصل في آيات الخوف أن تكون الجملة الثانية قوية الارتباط بالأولى لوقوعها جواباً عن سؤال يفهم من الجملة الأولى فتُفصل عنها كما يُفصل الجواب عن السؤال ، وهذا ما يسمى بـ (شبه كمال الاتصال) (3).

كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً * يُوفُونَ بالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً * وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُوراً * إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً ﴾ (4).

فلم يوصل جملة (يوفون بالنذر) بما قبلها، وإنما جاءت هذه الجملة استئنافاً مسوقاً لبيان ما لأجله رزقوا ما ذُكر من النعيم ، مشتملاً على نوع من التفصيل لما ينبئ عنه اسم الأبرار إجمالاً ، كأنه قيل : ماذا يفعلون حتى ينالوا تلك الرتبة العالية ؟ فقيل : يوفون بما أوجبوه على أنفسهم فكيف بما أوجبه الله تعالى عليهم ، ويخافون يوماً كان عذابه فاشياً منتشراً في الأقطار غاية الانتشار (5).

فالآيات (يوفون بالنذر ..) وما بعدها قد وضحت سبب استحقاقهم لكل هذه النعم الفريدة، والأفعال (يوفون) (يخافون) (يطعمون) جاءت بصيغة المضارع ، وهذا يشير إلى استمرارية منهجهم فأعمالهم خالصة لوجه الله تعالى ، ولا سيما أن الإطعام المذكور في الآية لم يكن مجرد إطعام ، بل إطعام مقرون بالإيثار العظيم عند الحاجة الماسة للغذاء، وهو رحمة ندية بعباد الله الضعاف، حيث إنه يكون في دائرة واسعة سواء أكان المحتاج مسكيناً أو يتيماً أو أسيراً ، ولهذا كانت رحمتهم عامة وخدمتهم واسعة .

وإن المصدق الأتم والأكمل لهذه الآيات هم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وفاطمة الزهراء والحسن والحسين (عليهم الصلاة والسلام).

فقد ورد أنّها نزلت في حقهم (6) بما نذروه من ثلاثة أيام ، ولم يتناولوا في إفطارهم إلا

(1) ينظر : الميزان في تفسير القرآن : 268/14 .

(2) ينظر : الإيضاح : 147 .

(3) ينظر : جواهر البلاغة : 180 .

(4) سورة الإنسان : 5-10 .

(5) ينظر : إرشاد العقل السليم : 72/9 .

(6) ينظر : الكشف والبيان المعروف بتفسير الثعلبي ، الإمام الثعلبي ، تح: أبي محمد بن عاشور ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1422 هـ 2002 م : 141/10 ، والكشاف : 1165 ، ومجمع البيان :

518/10 .

الماء ، في حين أنّ قلوبهم مشحونة بالخوف من الله تعالى إخلاصاً له في أعمالهم . وفي ذلك ترغيبٌ للمؤمنين بالإقتداء بهم .

أما مواضع الوصل في آيات الخوف ، فمنها أن تكون الجملتان متفتحتين خبراً وإنشاءً ، وكانت بينهما مناسبة تامة (1) .

كما في قوله تعالى : ﴿ وَادْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ (2) .

فقد عطف النهي (ولا تكن) على الأمر (اذكر) ؛ لأتّهما جملتان طلبيتان ، والخيفة هي الحالة التي يكون عليها الإنسان من الخوف (3) .

فالله عز وجل أمر بالذكر والدعاء بتضرع وخوف ((فإنّ الدعاء بالتضرع والخوف من الله تعالى أقرب إلى الإجابة ، وإنّما خصّ الذكر بالنفس ؛ لأنه أبعد عن الرياء)) (4) .

و(بالغدو والآصال) المراد به دوام الذكر واتصاله (5) مما يدلّ على النهي عن الغفلة واللهو عن ذكر الله تبارك وتعالى .

وكلا الجملتين فيها طلب وإلزام ، وكلاهما يقرب من الله وفي ذلك سعادة المرء قال تعالى : ﴿ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ (6) .

ومن الوصل في آيات الخوف أيضاً أن تتفق الجملتان من حيث الحكم الإعرابي أي أن يقصد إشراكهما في حكم إعرابي واحد (7) . كعطف المفرد على المفرد ؛ لأنّ الجملة لا يكون لها محل من الإعراب حتى تكون واقعة موقع المفرد ، كذلك ينبغي أن تكون مناسبة بين الجملتين (8) .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ﴾ (9) .

فقد عطف قوله : (لا يحيى) على قوله : (لا يموت فيها) ؛ لأنّ الجملة الأولى في موضع نصب حال ، لذا أشرك الثانية في حكم الأولى فهي حال أيضاً .

فإنّ هذا المجرم يلقى في جهنم ويخلد فيها فلا هو يقضى عليه فيموت ويستريح ، ولا يمنح وسائل البقاء فيحيا حياة طيبة .

وفي عطف (لا يحيى) ما يثير الخوف والرعب في نفوس المجرمين فهو ليس فقط لا يموت في النار على الرغم من العذاب ، وإنّما لا يحيى ، فليس فيها سوى العذاب الدائم .

ولنتأمل جمال الوصل في قوله تعالى : ﴿ وَادْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ

(1) ينظر : البلاغة والتطبيق : 161 ، وعلم المعاني : 184 .

(2) سورة الأعراف : 205 .

(3) ينظر : مفردات ألفاظ القرآن : مادة خوف .

(4) مجمع البيان : 637/4 .

(5) ينظر : م.ن : 638/4 .

(6) سورة الرعد : 28 .

(7) ينظر : علم المعاني : 182 .

(8) ينظر : الإيضاح : 151 .

(9) سورة طه : 74 .

لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ»⁽¹⁾.

فقد كشف لنا أسلوب الوصل عن فضل الله تعالى على المؤمنين حينما عطف كل نعمة من نعم الله سبحانه وتعالى على النعم الأخرى ؛ ليبين بأنّها كلها من مصدر واحد وتهدف إلى هدف واحد ، هو نصرة الله تعالى لعباده المخلصين جزاءً لهم بما صبروا .

فهؤلاء قوم كانوا قليلين مستضعفين ، يخافون أن يغير عليهم مغير يسلبهم الحرية ، فلا جرم أن كانت نعمة الأمن لها المكان الأول بين نعم الله جل وعلى عليهم ، ولم يقف عند حدّ الأمن ، بل زاد عليه أن أيدهم بنصره ، ولم تنته نعمه عند حد الطمأنينة والغلبة ، بل رزقهم العيش الرغيد ، والحياة الطيبة⁽²⁾ .

ومن الوصل بغير الواو ما جاء في قوله تعالى: ﴿ أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ * أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلِبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ * أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴾⁽³⁾ .

فقد جاء هذا الكلام لتهديد المشركين وإنذارهم بالعذاب الإلهي ، ويدخل فيهم مشركوا مكة الذين يُعرضون عن دعوة الرسل ، ويمكرون بالله ورسله بالتشبث بالحجج الواهية لتسوية الطريق إلى ترك دين الله ، وتشريع ما يوافق أهواءهم ، وعمل السيئات .

فهل أمنوا أن يخسف الله بهم الأرض ، أو يأتِيهم العذاب من حيث لا يشعرون (أو يأخذهم في قلوبهم) أي في حالة قلوبهم في مسائرهم ومتاجرهم فما هم بممتنعين ، أو فائتين بالهرب والفرار مما يريد الله بهم من الهلاك ؟ ، وإيراد الجملة الاسمية في (فما بمعجزين) فيه دلالة على دوام النفي⁽⁴⁾ .

(أو يأخذهم على تخوّف) و(أو) تفيد في الآيات المباركة العطف مع التخيير .
والأخذ على تخوّف هو العذاب مبنياً على المخافة بأن يشعروا بالعذاب فيتقوه ويحذروه بما استطاعوا من توبة وندم ، فيكون الأخذ على تخوّف هو العذاب بما يخاف منه من غير هلاك كالزلزلة والطوفان ...⁽⁵⁾ .

وربما قيل : إنّ معنى التَخَوُّفِ التَّنَقُّصُ وهو أن يأخذ الأول فالأول حتى لا يبقى منهم أحد ، وتلك حالة يُخاف معها الفناء⁽⁶⁾ .

أو التَّنَقُّصُ بأن يأخذهم الله بنقص النعم واحدة بعد واحدة تدريجياً كأخذ الأمن ثم الإمطار ثم الصيحة...

وقوله : (رؤوف رحيم) في مقام التعليل بالنسبة للأخذ على تخوّف وهو أهون أنواع العذاب المعدودة ، وأما بالنسبة للأخذ بالنقص فلا يخلو من مهلة وفرصة يتنبه فيها من تنبه ، فيأخذ بالحدز والتوبة⁽⁷⁾ .

وهكذا نرى كيف أنّ القرآن عطف عذاباً على عذاب في سياق تهديد المشركين زيادةً في

(1) سورة الأنفال : 26 .

(2) ينظر : من بلاغة القرآن : 175 .

(3) سورة النحل : 45-47 .

(4) ينظر : إرشاد العقل السليم : 349/4 .

(5) ينظر : الميزان في تفسير القرآن : 263/12 .

(6) ينظر : مجمع البيان : 470-469/6 .

(7) ينظر : إرشاد العقل السليم : 350/4 .

تخويفهم والله العالم، حيث لا يمنعهم من الله مانع إن شاء أن يعذبهم بأي نوع من أنواع العذاب .
وهكذا فإنّ لأسلوب الفصل والوصل مكانة كبيرة في البيان القرآني، وله وقعا متميزاً ومؤثراً في آيات القرآن الكريم ومنها آيات الخوف إذ جاء فيها بسياق محكم ، فيوصل ما حقّه الوصل ، ويفصل ما حقّه الفصل لإبراز المعنى على أكمل وجه .

المبحث الخامس الإيجاز والإطناب

الإيجاز

هو ((العبارة عن الغرض بأقل ما يمكن من الحروف من غير إخلال))⁽¹⁾.
وهو من أهم خصائص العربية إذ أكدّ البلاغيون أنّ الإيجاز غير المخل بالمعنى هو قمة البلاغة .

ويعود سبب ذلك إلى طبيعة المجتمع العربي ، وندرة الكتابة فيه ، لذلك كان عليهم الاعتماد على الذاكرة لحفظ أدبهم من الضياع ، وتناقله عن طريق الرواية جيلاً بعد جيل ، فبرزت الحاجة إلى الإيجاز واستتيعاب أكبر قدر تستطيع أن تحفظه الذاكرة⁽²⁾.

وقد أكثر العلماء من ذكر الإيجاز ، قال الجاحظ: ((وأحسن الكلام ما كان قليله يُغنيك من كثيره))⁽³⁾.
وقالوا: ((البلاغة لمحة دالة))⁽⁴⁾.

(1) نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز : 215 .

(2) ينظر : علم المعاني : 145 .

(3) البيان والتبيين : 83/1 .

(4) العمدة : 204/1 .

و((قيل: لبعضهم ما البلاغة ؟ فقال: الإيجاز، قيل : ما الإيجاز؟ قال : حذف الفضول ، وتقريب البعيد)) (1).
وغالب كلام العرب لبلاغتهم مبني على الإيجاز والاختصار وأداء المقصود من الكلام بأقل عبارة (2).
روي عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه الصلاة والسلام) أنه قال : ((ما رأيت بليغاً قط إلا وله في القول إيجاز ، وفي المعاني إطالة)) (3).
ويقسم على قسمين : (4)

1- إيجاز القصر 2- إيجاز الحذف

1- إيجاز القصر

هو بابٌ من الإيجاز ((دقيق المجرى، صعب المرتقى له في البلاغة موقع عظيم)) (5)، حيث يسمى إيجاز البلاغة ويكون بتضمين المعاني الكثيرة في ألفاظ قليلة من غير حذف (6).
منه ما جاء في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً لَا تَخَافُ دَرْكاً وَلَا تَحْشَى * فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴾ (7).
فجمله (مَا غَشِيَهُمْ) فيها إيجاز قصر و (هذا من باب الاختصار ومن جوامع الكلم التي تستقل مع قلتها بالمعاني الكثيرة ، أي غشيهم ما لا يعلم كنهه إلا الله) (8).
وهذا يثير الخوف والرعب في نفس السامع عند تصوّره منظر هلاك الطاغية فرعون وجنوده الذين اتبعوه على ضلال في اليم ويغشيهم ما غشيهم .
وفي نسبة الغشيان إلى (ما) الموصولة المبهمّة، وجعله صلة لها من ((تمثيل هول الموقف ما لا يخفى)) (9).
كما في قوله تعالى : ﴿ .. يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ... ﴾ (10).
بهذه الكلمات القليلة أشار الله تعالى إلى خوف المنافقين من انكشاف أمرهم بين الناس أي إنهم لإبطانهم الكفر وكتمانهم ذلك على المؤمنين يعيشون على خوف ووجل ووحشة، يخافون ظهور أمرهم وإطلاع الناس على باطنهم ، ويظنون أن كل صيحة سمعوها هي

(1) كتاب الصناعتين : 173 .

(2) ينظر : خزانة الأدب وغاية الأرب ، لأبي بكر علي بن عبد الله الحموي ، تح : د.كوكب دياب ، دار صادر ، بيروت، ط1، 1421هـ - 2001م : 43/4 .

(3) كتاب الصناعتين : 173 .

(4) ينظر : النكت في إعجاز القرآن : 70 .

(5) الطراز : 92/2 .

(6) ينظر : جواهر البلاغة : 224 .

(7) سورة طه : 77-78 .

(8) الكشف : 662 .

(9) الميزان في تفسير القرآن : 184/14 .

(10) سورة المنافقون : 4 .

كائنة عليهم ، وأنهم المقصودون بها (1).

2- إيجاز الحذف

هو ((بابٌ دقيق المسلك لطيف المأخذ ، عجيب الأمر شبيه السحر ، فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر ، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة ، وتجدر أنطق ما تكون إذا لم تنطق ، وأتم ما تكون بياناً إذا لم تُبين ، وهذه جملة قد تنكرها حتى تُخبر ، وتدفعها حتى تنظر)) (2).

فهو ((ما يُحذف منه المفرد والجملة لدلالة فحوى الكلام على المحذوف ، ولا يكون إلا فيما زاد معناه على لفظه)) (3).

وقد ورد إيجاز الحذف في آيات الخوف كغيرها من آيات القرآن الكريم .
فمنه حذف الفعل من باب التحذير مثل قوله تعالى: ﴿ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴾ (4).

أي احذروا ناقة الله فلا تعقروها (5).

وقد يحذف عامل الحال مع وجود ما يدل عليه كما في قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرَجَالاً أَوْ رُكْبَاناً .. ﴾ (6).

فرجلاً حال منصوب وعامله مضمّر دلّ عليه ما قبله (7) والتقدير: فصلّوا رجلاً أو ركباناً والمعنى فإن كان بكم خوف من عدو أو غيره فصلّوا راجلين أو راكبين .
ولنتأمل جمال الأسلوب بحذف المبتدأ في قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ * نَارٌ حَامِيَةٌ ﴾ (8).

ونارٌ خبر لمبتدأ محذوف تقديره : هي نارٌ حامية .

فنرى من ذلك الحذف الإسراع إلى ذكر النار وذكر وصفها المخيف ، بعد أن أثار الشوق بالسؤال عنها .

ومن الحذف حذف جواب القسم كما في قوله تعالى: ﴿ وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ * وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ * وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ * هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حَجْرِ * أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ (9) .

وجواب القسم محذوف تقديره: ليعذبن (10).

دلّ عليه ما سيذكر من عذاب أهل الطغيان والكفر في الدنيا والآخرة .

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَالنَّازِعَاتِ غَرْقاً * وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطاً * وَالسَّابِحَاتِ سَبْحاً * فَالسَّابِقَاتِ

(1) ينظر: الميزان في تفسير القرآن : 281/19 .

(2) دلائل الإعجاز : 162 .

(3) المثل السائر : 194 .

(4) سورة الشمس : 13 .

(5) ينظر : مجمع البيان : 634/10 .

(6) سورة البقرة : 239 .

(7) من قوله تعالى ﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴾ سورة البقرة: ٢٣٩ .

(8) سورة القارعة : 11-10 .

(9) سورة الفجر : 1-7 .

(10) ينظر : البلاغة والتطبيق : 193 .

سَبَقًا * فَأَلْمَدِبَّرَاتِ أَمْرًا * يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ * تَتَّبِعُهَا الرَّادِفَةُ ﴿ (1) .
والجواب محذوف تقديره : لتبعثنَّ، يفهم من السورة التي ورد فيها هذا القسم .
إنَّ هذا الحذف بعثٌ للنفس على التفكير ، لتهتدي إلى الجواب ، فتظل النفس تتبع هذه
الآيات ، يتلو بعضها بعضاً ، لتستوحي منها هذا الجواب ، الذي لابد أن يكون شيئاً عظيم
يقسم عليه الله عز وجل ، وبحذف هذا الجواب دلالة على مثول البعث في الذهن ، لشدة ما
شغل النفس، واستأثر بعميق تفكيرها يوم نزل القرآن مؤكداً مجيء اليوم الآخر (2) .
ومن حذف الجواب حذف جواب لو كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزَعُوا فَلَا قُوَّةَ
وَأَخَذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾ (3) .
يبرز معنى الخوف بسبب الحالة التي يثيرها حذف جواب لو في نفس السامع ومخيلته إذ
((يذهب فيه الذهن كل مذهب ، ولو صرَّح بالجواب لوقف الذهن عند المصرَّح به فلا
يكون له ذلك الوقع)) (4) .
وتقدير الجواب : لرأيت أَمْرًا عظيماً (5) .
ومن الحذف حذف جواب لولا كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي
الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ * وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ
عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (6) .
وترك جواب لولا هنا ((يثير في نفوس هؤلاء الذين يحبون الفاحشة الرهبة من عذاب الله
والذي يشير إليه ما بعد لولا)) (7) .
وتقدير الجواب : لولا فضل الله ورحمته لعاجلكم بالعقوبة ولكنه برحمته أمهلكم لتتوبوا
وتندموا على ما قلتم (8) .
وقد تحذف جمل بأكملها ويُعد هذا من أحسن المحذوفات وأدللها على الاختصار وقد جاء
مثل هذا الحذف في القرآن الكريم (9) .
فمنه حذف السؤال المقدر ويسمى الاستئناف .
كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا * خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ
وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا * يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ
وَأَطَعْنَا الرُّسُلَ لَا﴾ (10) .
الآيات المباركات أخبرت عن الكفار الذين طردهم الله من رحمته ، وأعدَّ لهم ناراً شديدة
الاتقاد يقاسونها في الآخرة ، لا يجدون ولياً ينصرهم ولا نصير يخلصهم منها ، تُقَلَّبُ

(1) سورة النازعات : 1-7 .

(2) ينظر : من بلاغة القرآن : 125 .

(3) سورة سبأ : 51 .

(4) البرهان في علوم القرآن : 183/2 .

(5) ينظر : البلاغة والتطبيق : 193 .

(6) سورة النور : 19-20 .

(7) من بلاغة القرآن : 126 .

(8) ينظر : مجمع البيان : 175/7 .

(9) ينظر : المثل السائر : 196 .

(10) سورة الأحزاب : 64-66 .

وجوهم فيها ، وتخصيص الوجوه بالذكر ؛ لأنها أكرم الأعضاء ففيه مزيد من تفضيع الأمر وتهويل الخطب . فالجملة في قوله تعالى : (يقولون يا ليتنا ..) استئناف مبني على سؤال نشأ من حكاية حالهم الفظيعة والمخيفة كأنه قيل : فماذا يصنعون عند ذلك فقيل : يقولون متحسرين على ما فاتهم يا ليتنا أطعنا الله فيما أمرنا به ونهانا عنه والرسول بما دعانا إليه فلا نبئلى بهذا العذاب (1).

وقد تحذف جملة من الكلام للاكتفاء بالسبب عن المسبب كما في قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنْتُ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ (2)

فذكر الرحمة التي هي السبب في إرساله إلى الخلق ، ودل بها على المسبب وهو الإرسال (3).

ومن حذف الجمل الوارد في آيات الخوف ، الحذف على شريطة التفسير وهو أن يحذف من صدر الكلام ما يؤتى به في آخره فيكون الآخر دليلاً على الأول (4) كقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴾ (5).

وهم المؤمنون الذين يعطون ما أعطوا من المال في سبيل الله ، وقيل : أعمال البر كلها (6).

وقلوبهم وجلة ، أي خائفة أن لا يقبل منهم أعمال البر من إنفاق وغيرها لتقصير أو غير ذلك ؛ لأنهم يوقنون بأنهم يرجعون إلى الله ، ويخافون أن يلقيه وهم مقصرين بحقه لم يوفوه حق طاعته وعبادته.

وهذا الخوف الهادئ العميق هو خوف مؤثر في نفوس المؤمنين يدفعها إلى المزيد من الطاعات ، والخوف من كل ما يخل بالعلاقة بينهم وبين ربهم . فالإضمار واقع في أنهم يخافون أن لا يقبل ما أنفقوا من الأموال أو ما عملوا من صالح الأعمال والله العالم .

فلحذف الجمل من البلاغة مدخل عظيم وأكثر ما يرد في كتاب الله ، وما ذلك إلا من أجل رسوخ أثره وظهوره واشتهار علمه (7).

وهكذا ففي الإيجاز تتمكن البلاغة ويسمو الكلام حتى يصل إلى قوة السحر في التأثير ، وتكون الجملة مع الحذف أشد وقوعاً وتأثيراً في النفس وأتم بياناً وأفصح من الذكر .

الإطناب

هو ((زيادة اللفظ على المعنى لفائدة)) (8).

وهو ((باب كثير المحاسن واسع الخطو لطائفه بعيدة ومداخله دقيقة)) (1)

(1) ينظر : إرشاد العقل السليم : 430/5-431 .

(2) سورة القصص : 46 .

(3) ينظر : الطراز : 93/2 .

(4) ينظر : الطراز : 93/2 .

(5) سورة المؤمنون : 60 .

(6) ينظر : الميزان في تفسير القرآن : 40 / 15 .

(7) ينظر : الطراز : 93/2 .

(8) المثل السائر : 214 .

ويُحتاج إلى الإطناب كما يُحتاج إلى الإيجاز ، فقد يكون من المفيد أن يطنب المتكلم مثلما يكون من النافع أن يوجز ، كل حسب مطابقتها لمقتضى الحال فـ ((البلاغة وضع الكلام موضعه من طول أو إيجاز مع حسن العبارة)) (2).

وقد ورد الإطناب في القرآن الكريم ومنه في آيات الخوف وشارك في الدلالة على الخوف ، ولنرَ قوله تعالى: ﴿ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهَ بُنْيَانُهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (3) .

فعندما نتخيل صورة سقوط السقف على هؤلاء من فوقهم يحصل في نفوسنا الخوف والرعب ما لم يحصل لو أسقطنا (من فوقهم) .

جاء في الطراز ((والسقف لا يخر إلا من فوق ، وإنما الغرض المبالغة في الترهيب والتخويف والإنكار والرد كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهَ بُنْيَانُهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ ﴾ يعني الخراب والهدم ، فخرّ عليهم السقف من فوقهم تشديداً في الأمر وتهويلاً لهم)) (4).

وللإطناب أنواع كثيرة منها في آيات الخوف :

1- الإيضاح بعد الإبهام

هو ذكر المعنى مرتين ، مرة على سبيل الإبهام والإجمال، ومرة على سبيل التفصيل والأيضاح ، ليتمكن المعنى في نفس السامع أفضل تمكن ويأتي لغرض تفخيم الأمر وتعظيمه (5).

كما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ ﴾ (6).

فـ (أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ) إيضاح للإبهام الذي تضمنه الأمر . وفائدته ((توجيه الذهن إلى معرفته، وتفخيم شأنه ، وتمكينه من النفس فأبهم في كلمة (الأمر) ثم وضحه بعد ذلك تهويلاً لأمر العذاب)) (7).

كما إن ((الإشارة إلى الأمر بلفظة (ذلك) دلالة على عظم خطره وهول أمره)) (8).

2- التذييل

هو ((أن يؤتى بعد تمام الكلام بكلام مستقل عن المعنى الأول تحقيقاً لدلالة منطوق الأول ، أو مفهومه ، ليكون معه كالدليل؛ ليظهر المعنى عند من لا يفهم، ويكمل عند من فهمه)) (9).

(1) الطراز : 244/2 .

(2) العمدة : 210 / 1 .

(3) سورة النحل : 26 .

(4) الطراز : 236/2 .

(5) ينظر : البلاغة والتطبيق : 203 .

(6) سورة الحجر : 66 .

(7) جواهر البلاغة : 228 .

(8) الميزان في تفسير القرآن : 184/12 .

(9) البرهان في علوم القرآن : 76/3 .

ومنه ما جاء في قوله تعالى: ﴿ ذَلِكْ جَزَائُهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكُفُورَ ﴾ (1) فجملة ((وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكُفُورَ)) ضربٌ من التذييل لا يخرج مخرج المثل لعدم استقلاله بإفادة المراد وتوقفه على ما قبله فيكون المعنى وهل يجازى ذلك الجزاء (2).

يذكر الزمخشري أن ((فيه وجه آخر ، وهو أن الجزاء عام لكل مكافأة يستعمل تارة في معنى المعاقبة وأخرى في الإثابة ، فلما استعمل في معنى المعاقبة في قوله: (جَزَائُهُمْ بِمَا كَفَرُوا) بمعنى عاقبناهم بكفرهم ، قيل: (هل نجازي إلا الكفور) بمعنى (وهل نعاقب))) (3).

فعلى هذا يكون من الضرب الثاني الذي يخرج مخرج المثل لاستقلاله له عما قبله . وهذا مما يثير الخوف في النفوس – نفوس الكفار – فكل من كفر سوف يعاقب ويجازى بسبب كفره وعناده عقاباً إلهياً أليماً ، سواء بالجزاء الذي ورد في سياق الآيات أو بغيره . وقد تحدث أبو هلال العسكري عن أثر التذييل في الكلام وموقعه فيه فقال: ((وللتذييل في الكلام موقع جليل ، ومكان شريف خطير؛ لأن المعنى يزداد به انشراحاً والمقصد إيضاحاً)) (4).

3- التكميل ويسمى (الاحتراس)

هو ((أن يؤتى في كلام يوهم خلاف المقصود بما يدفعه)) (5).

فالاحتراس يوجد حيثما يأتي المتكلم بمعنى آخر يمكن أن يدخل عليه ، فيأتي بما يوضح المعنى كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴾ (6) .

((فاحترس بقوله (وهو مؤمن) عن توهم الإطلاق)) (7).

وإنما قال ذلك ؛ لأن الطاعة لا تنفع من غير إيمان .

وقد نفى الله سبحانه وتعالى الخوف عن المؤمن من أن يُظلم ويزداد عليه في سيئاته ولا أن يهضم أي ينقص من حسناته (8).

ومن التكميل ما جاء في قوله تعالى: ﴿..فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ .. ﴾ (9).

فإنه لو اقتصر على وصفهم بالذلة على المؤمنين ، لتوهم أن ذلتهم لضعفهم فلما قال:

(1) سورة سبأ : 17 .

(2) ينظر : الإيضاح : 179-180 .

(3) الكشف : 872 .

(4) كتاب الصناعتين : 387 .

(5) الإيضاح: 181 .

(6) سورة طه : 112 .

(7) آيات الإيمان في القرآن الكريم - دراسة فنية (رسالة ماجستير) ، خولة صالح صيهود الكنانى ، جامعة القادس

كلية الآداب ، 1422 هـ - 2001 م : 141 .

(8) ينظر : مجمع البيان : 45/7 .

(9) سورة المائدة : 54 .

(أعزة على الكافرين) عُلِمَ أَنَّهَا مِنْهُمْ تَوَاضَعُ لِلْمُؤْمِنِينَ ، لَذَا عُذِّي الذَّلْبُ (على) لتضمينه معنى العطف كأنه قيل : عاطفين عليهم على وجه التذلل والتواضع⁽¹⁾. وهذا الذي هو اللين ليس من الذل الذي هو هوان ، قال ابن عباس: ((تراهم للمؤمنين كالولد لوالده وكالعبد لسيدته وهم في الغلظة على الكافرين كالسبع على فريسته ، يقاتلون في سبيل الله لإعلاء كلمته وإعزاز دينه ، ولا يخافون لومة لائم فيما يأتون من الجهاد والطاعات))⁽²⁾.

﴿التكرار﴾

هو ((دلالة اللفظ على المعنى مردياً))⁽³⁾.

وقد ورد التكرار في القرآن الكريم ومنه آيات الخوف بأسلوب فني رائع . ويكون التكرار على قسمين⁽⁴⁾:

الأول / يوجد في اللفظ والمعنى ، والثاني / في المعنى دون اللفظ .

و ((المفيد من التكرار ما يأتي في الكلام تأكيداً له ، وتشبيهاً من أمره وإنما فعل ذلك للدلالة على العناية بالشئ الذي كررت فيه كلامك))⁽⁵⁾.

فمن التكرار باللفظ والمعنى ما جاء في قوله تعالى: ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾⁽⁶⁾.

فالتكرار ((تأكيد للردع والإنذار))⁽⁷⁾.

وقوله (كلا) ردع وتنبية ، على أنه ينبغي للناظر نفسه أن تكون الدنيا جميع همها فلا يهتم بأمور دينه و(سوف تعلمون) ، إنذار ليخافوا فينتبهوا من غفلتهم ، أي سوف تعلمون تبعه تلهيكم وشغلكم بالدنيا عما يهكم وهو ذكر الله حتى تلاقوا الموت .

وفي تكرار هذا الوعيد ما لا يخفى من إثارة الخوف في النفوس ، فتنبهها من الغفلة ، فتترك البهرجة والنعيم الزائل وتعمل لما هو خالد وباقي ولتسرع الخطى إلى ساحة رضوان الله .

ومن التكرار في المعنى دون اللفظ ما ورد في قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ * فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ * عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾⁽⁸⁾.

أي غير هين ولا سهل وهو معنى قوله (عسير) إلا أنه أعاد اللفظ للتأكيد ولتعظيم شأن ذلك اليوم وشدته على الكافرين .

والآيات سيقَّت في إطار وعيد شديد للطاعنين في القرآن ، فالتكرار يثير الخوف في نفوس الكفرة والجاحدين مما يلاقيه هؤلاء الكافرون في ذلك اليوم ، فيردع هذا الخوف كل كافر وينقذه من ظلمة الكفر إلى نور الهداية والحق .

(1) ينظر : الإيضاح : 204 .

(2) مجمع البيان : 260/3-261 .

(3) المثل السائر : 228 .

(4) م ن : 229 .

(5) المثل السائر : 228 .

(6) سورة التكاثر : 3-4 .

(7) مجمع البيان : 10 / 683 .

(8) سورة المدثر : 8-10 .

فالتكرار جاء ليقرر المعنى ويؤكد حالة الخوف الذي يريد النص القرآني أن يثيرها في النفوس .

﴿الاعتراض﴾ - الاعتراض

ويكون لغرض يقصده المتكلم، وهو أن يؤتى في أثناء الكلام أو بين كلامين متصلين في المعنى ، بجملة اعتراضية ، أو أكثر لا محل لها من الإعراب⁽¹⁾.
منه ما جاء في قوله تعالى ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾⁽²⁾.
فالفعل (أخاف) قد فصل بينه وبين مفعوله (عذاب) بالجملة الشرطية المعترضة .
وهذه الجملة المعترضة أتت ((لإفادة الكلام تقوية وتسديداً أو تحسیناً))⁽³⁾.
والخوف هنا هو الخوف من الرقابة الإلهية ، فالإنسان إذا علم بأن الله عز وجل يراقبه فهو أقرب إليه من حبل الوريد ، وأدرك شدة العذاب الذي ينتظره في الآخرة إذا ما خرج عن حد من حدود الله ، أو عصى أمراً من أوامره ، أو نهياً من نواهيه، فسوف يأخذه الخوف والوجل ويندفع إلى امتثال أوامر ربه، واجتناب نواهيه .
فكيف ذلك والآية في رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وهو ذو العبادة الخالصة التي لا يشوبها شيء من المعاصي ، وهو أول المسلمين ، فالاعتراض جاء ليؤكد الخوف من الرقابة الإلهية والله العالم .
وهكذا نجد أن الزيادة في التركيب مظهراً من مظاهر البلاغة لغرض التأثير في المتلقي، وإن الإطناب جاء في القرآن ومنه آيات الخوف بأنواعه المختلفة وقد أدى دوره بطريقة فنية رائعة في إظهار معنى الخوف .

(1) ينظر : جواهر البلاغة : 198 .

(2) سورة الزمر : 13 .

(3) مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ابن هشام، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد ، مطبعة المدني ، القاهرة

: 386/2 .

الفصل الثالث

الصورة الفنية في آيات الخوف

المبحث الأول / التشبيه

المبحث الثاني / المجاز والاستعارة

المبحث الثالث / الكناية

المبحث الرابع / الطباق

مدخل

قبل الحديث عن الصورة الفنية في آيات الخوف وما تحمله من روعة وبهاء وتأثير في المتلقي ، نتحدث عن الصورة في أقوال النقاد والبلاغيين العرب القدامى والمحدثين. قال الجاحظ - وهو يتحدث عن الشعر - إنه ((ضرب من النسخ وجنس من التصوير))⁽¹⁾ وكأنه أراد بالتصوير العملية الذهنية التي تصنع الشعر ⁽²⁾.

ويُعدُّ قدامة بن جعفر أول من ذكر مصطلح الصورة وعدها الشكل والصياغة في مقابل المعنى والمضمون - في أثناء حديثه عن معاني الشعر - فقال: ((إنَّ المعاني كلها معرّضة للشاعر ، وله أن يتكلم منها فيما أحبَّ وأثر من غير أن يحظر عليه معنى يروم الكلام فيه إذ كانت المعاني للشعر بمنزلة المادة الموضوع ، والشعر فيها كالصورة ، كما يوجد في كل صناعة من أنه لا بد فيها من شيء موضوع يقبل تأثير الصورة فيها مثل الخشب للنجارة والفضة للصياغة))⁽³⁾ فالمعاني عنده معرّضة للناس والفضل لمن يمنح هذه المعاني صورة فتصير بها شعراً . فهو ينأى بها عن فهم الجاحظ ، حيث إنَّ الأخير يذهب إلى ((أنها العملية الذهنية التي تُهيأ للنص الشعري ، بينما يرى قدامة فيها الإطار الخارجي العام لشكل هذا الشعر))⁽⁴⁾.

وهو بذلك - أي قدامة - قد فصل بين اللفظ والمعنى وتابعه على ذلك الفصل عدد من النقاد والبلاغيين كابن قتيبة ، وابن طباطبا العلوي ، والقاضي الجرجاني وغيرهم حتى جاء عبد القاهر الجرجاني فجعلهما شيئاً واحداً وقدم بذلك رؤية فنية جديدة للصورة تقوم على الربط بين شكل النص الأدبي ومضمونه وما ينتج عن اتحادهما ومزجهما ، ويبدو هذا من قوله: ((إنَّ سبيلَ الكلام سبيلُ التصوير والصياغة وإنَّ سبيلَ المعنى الذي يعبر عنه سبيلَ الشيء الذي يقع التصويرُ والصوغُ فيه كالفضة والذهب يُصاغُ منهما خاتمٌ أو سوارٌ ، فكما أن محالاً إذا أنت أردت النظر في صوغ الخاتم وفي جودة العمل وردائه أن ينظر إلى الفضة الحاملة لتلك الصورة ، أو الذهب الذي وقع فيه العملُ وتلك الصنعة ، كذلك محال إذا أردت أن تعرف مكانَ الفضل والمزية في الكلام أن تتنظر في مجرد معناه))⁽⁵⁾.

وهذا يعني أنَّ الفضل في أي نص أدبي لا يرجع إلى معانيه وحدها ولا إلى ألفاظه وحدها أيضاً وإنما يرجع إلى عنصر ثالث ينتج عن اتحادهما ، ألا وهو عنصر (الصورة) فالنص الأدبي عند الجرجاني تقوم بنيته على ثلاثة عناصر متحدة : عنصر الألفاظ وعنصر المعاني وعنصر الصورة ، واتحاد هذه العناصر ليس خلطاً بين أشياء لها كيانات

(1) الحيوان 132/3.

(2) ينظر : الصورة الفنية في المثل القرآني ، د. محمد حسين الصغير ، دار الهادي ، بيروت ، ط 1 ، 1412

هـ - 1992م : 21.

(3) نقد الشعر ، قدامة بن جعفر ، شرح وضبط : محمد عيسى منون ، المطبعة المليجية ، القاهرة ، 1934م

: 14 .

(4) الصورة الفنية في المثل القرآني : 22 .

(5) دلائل الإعجاز : 251 .

يستقل بعضها عن بعض ، وإنّما هو خلق في هيئة مبتدعة. (1) وهو بذلك قد اختلف مع الذين سبقوه وقدم رؤية فنية جديدة للصورة تتسم بالدقة ، وتقضي بالنظر إلى النص الأدبي بوصفه وحدة متكاملة من حيث الشكل والمضمون والصورة مستوعبة لهما .

ومن بعده جاء حازم القرطاجني وقد بيّن دور الخيال في تركيب الصورة قائلاً: ((فإذا كانت صور الأشياء قد ارتسمت في الخيال على حسب ما وقعت عليه من الوجود وكانت للنفس قوة على معرفة ما تماثل وما تتاسب وما تخالف وما تضاد ، وبالجملّة ما انتسب منها إلى الآخر نسبة ذاتية أو عرضية ثابتة أو منتقلة أمكنها أن تُركّب من انتساب بعضها إلى بعض تركيبات على حدّ القضايا الواقعة في الوجود التي تقدم بها الحس والمشاهدة ، وبالجملّة الإدراك من أيّ طريق كان أو التي لم تقع لكن النفس تتصور وقوعها لكون انتساب بعض أجزاء المعنى المؤلف على هذا الحد إلى بعض مقبولاً في العقل ممكناً عنده وجوده ، وأن تنشئ على ذلك صوراً شتى من ضروب المعاني في ضروب الأغراض)) (2).

لقد نظر إلى الصورة على أنّها نتاج للخيال المبدع والخيال المبدع ليس نسخاً أو نقلاً للواقع ، أو انعكاساً حرفياً لأنسقة متعارف عليها وإنّما يهدف إلى إثراء الحس وتعميق الوعي ، إذ يحطم سور مدركاتنا العرفية ويجعلنا نشعر وكأنّ كل شيء بدأ من جديد وكما لو كان كل شيء يكتسب معنى فريداً في جدته وأصالته. (3)

فقد أدرك - القرطاجني - أنّ بناء الصورة المبتكرة يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالقدرة على إدراك التناسب والتناغم بين الأشياء في الشكل والمضمون ، وهذا يؤدي إلى اكتشاف علاقات جديدة تجمع المتفاوت والمتباين في وحدة جديدة متجانسة. (4)

مما يجعل المبدع يبتكر صوراً فنية مؤثرة ؛ لأنّ الصور المألوفة لا تحقق الإثارة في النفوس بقدر ما تحقّقه الصور المبتكرة وهذا ما نجده في الصور القرآنية - ولا سيما في آيات الخوف - مثل تشبيه قلب اليهودي بالحجارة القاسية في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشْقُقُ فَيُخْرِجُ مِنْهُ الْمَاءَ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (5).

فالقلب ذلك الجزء الرقيق من الجسد كيف يشبه بالحجارة القاسية ؟ فعندما نعلم ما بينهما من تشابه وتناسب في القسوة تتضح جمالية التشبيه وفنيته ، فالتشبيه يبيّن أنّ قلب اليهودي كالحجارة في القسوة أو أشد قسوة لما بيّن من أنّ الحجارة تتشقق

(1) ينظر : بناء الصورة الفنية في البيان العربي ، د. كامل حسن البصير ، مطبعة المجمع العلمي العراقي ، بغداد ، 1407 هـ - 1987 م : 40 .

(2) منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، تح: محمد الحبيب بن خوجة ، دار الكتب الشرقية ، تونس ، 1966 م : 38-39 .

(3) ينظر : الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي ، د. جابر عصفور ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، القاهرة ، 1974 م : 18 .

(4) ينظر : م . ن . 73 .

(5) سورة البقرة : 74 .

ويخرج منها الأنهار وإن منها لما يهبط من خشية الله ولكن قلب اليهودي لا يخشى ولا يعرف الرحمة .

إذن فالصور المبدعة تقوم على عنصري (الابتكار) و (التأثير) وأهميتها قائمة على ذلك ، إذ ((تنبع أهمية الصورة من طريقتها الخاصة في تقديم المعنى وتأثيرها في المتلقي))⁽¹⁾.

فالصورة الفنية لا تحقق المتعة الذهنية من خلال ابتكارها لعلاقات جديدة فقط ، وإنما تأثيرها يتعدى هذه المتعة إلى ما تثيره من انفعالات لدى المتلقي تدفعه إلى موقف معين. لذا فقد وصفها الدكتور جابر عصفور بأنها ((طريقة خاصة من طرق التعبير أو وجه من أوجه الدلالة تنحصر أهميتها فيما تحدثه في معنى من المعاني من خصوصية وتأثير))⁽²⁾. فقد ركز على عنصر التأثير الذي تحدثه الصور الموحية عند المتلقي .

أما الصورة عند الدكتور داود سلوم فهي ((امتزاج المعاني والألفاظ والخيال))⁽³⁾ وهو بذلك يذهب إلى ما يذهب إليه النقاد والبلاغيون العرب كالجرجاني والقرطاجني الذين أكدوا ضرورة الاتحاد والتناسب بين عناصر النص الأدبي لخلق صورة مبتكرة ومؤثرة ، وإلى هذا ذهب الدكتور محمد حسين علي الصغير حيث عرّف الصورة ((بأنها العلاقة القائمة بين اللفظ والمعنى ، فهي ليست اللفظ بمفرده شكلاً فارغاً رناناً ، ولا المعنى بذاته مضموناً ذهنياً مجرداً ، بل هي مزيج بين دلالة اللفظ وإيحائية المعنى ، بما تسبغه صياغة الشكل من تأثير في النفوس . وعلى هذا فهي أداة فنية لاستيعاب أبعاد الشكل والمضمون ، بما لهما من خصائص فنية))⁽⁴⁾.

والتصوير الفني هو ((الأداة المفضلة في أسلوب القرآن فهو يعبر بالصورة المحسنة المتخيلة عن المعنى الذهني ، والحالة النفسية ، وعن الحادث المحسوس ، والمشهد المنظور وعن النموذج الإنساني والطبيعة البشرية ، ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة ، أو الحركة المتجددة ، فإذا المعنى الذهني هيئة أو حركة وإذا الحالة النفسية لوحة أو مشهد وإذا النموذج الإنساني شاخص حي ، وإذا الطبيعة البشرية مجسمة مرئية ، فأما الحوادث والمشاهد ، والقصص والمناظر ، فيردها شاخصة حاضرة ، فيها الحياة وفيها الحركة ..))⁽⁵⁾

ونرى ذلك واضحاً جلياً في الصورة الفنية في آيات الخوف .

فهي تقوم على عنصرين أساسيين هما

1- التخيل

2- التجسيد والتجسيم

1- التخيل

هو من العناصر الأساسية التي تقوم عليها الصورة ويعني ((تصوير المعنى للحس))

(1) الصور الفنية في التراث النقدي والبلاغي : 399 .

(2) م.ن : 392.

(3) النقد الأدبي ، د.داود سلوم ، بغداد ، 1967م : 81/1.

(4) ينظر : الصورة الفنية في المثل القرآني : 35-36.

(5) التصوير الفني في القرآن : 31.

(1)

وقد سبق الكلام عن العلاقة الوثيقة بين الخيال والصورة فهي أداة الخيال ووسيلته ومادته المهمة التي يمارس منها ومن خلالها فاعليته ونشاطه (2). ويتوافر في الصورة المتخيلة الابتكار والتأثير ، ففيها يؤلف بين الأشياء المتباعدة وتُلغى حدود الزمان وأطر المكان ، وفيها سمو عن المألوف وكسر للجمود فننطلق في آفاق رحبة واسعة ، فيكون لها التأثير الكبير في نفوسنا ، كما في قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴾ (3).

والروع هو الخوف ، فالنص صوّر الخوف والبشرى وهما انفعالات وجدانية وكأنها كائنات حية تذهب وتجيء .

أضفى عليها التخيل الحياة والحركة ، وهذا اللون من التخيل يسمى التشخيص ويتمثل في خلع الحياة على المواد الجامدة والظواهر الطبيعية والانفعالات الوجدانية ، هذه الحياة قد ترتقي فتصبح حياة إنسانية تشمل الظواهر والمواد والانفعالات فتذهب لها الحياة عواطف آدمية وخلجات إنسانية ، تشارك بها الأدميين وتجعلهم يحسون الحياة في كل شيء تقع عليه العين ، أو يتلبس بها الحس فيأنسون بهذا الوجود أو يرهبونه في حساسية وإرهاف . (4)

٣٢- التجسيم

هو إظهار ((المعنويات المجردة ، وإبرازها أجساماً ومحسوسات)) (5) ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿ .. فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ ... ﴾ (6). صوّر تعالى أثر الجوع والخوف عليهم بأنه كاللباس دلالة على الشمول ، وقد أشار إلى ذلك الراغب الأصفهاني بقوله: ((جعل الجوع والخوف لباساً على التجسيم والتشبيه تصويراً له وذلك بحسب ما يقولون : تدرع فلان الفقر ، ولبس الجوع)) (7). وقد يجتمع التخيل و التجسيم في صورة مؤثرة كما في قوله تعالى: ﴿ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴾ (8).

فقد جسّم الرعب وكأنّه ((قذيفة سريعة تنفذ في القلوب لفورها)) (9). فالتجسيم أحال الرعب وهو حالة نفسية جسماً وقد اجتمع معه التخيل في تصوير حركة

(1) ألوان من التخيل في القرآن الكريم ، بحث في مجلة كلية التربية ، جامعة كربلاء ، جنان منصور

الجبوري ، ع2 ، مج1 ، 1424 هـ - 2003 م : 178 .

(2) ينظر : الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي : 18-19 .

(3) سورة هود : 74 .

(4) ينظر : التصوير الفني في القرآن : 60-61 ، والصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي : 325.

(5) التصوير الفني : 60.

(6) سورة النحل : 112 .

(7) المفردات : مادة لبس .

(8) سورة الأحزاب : 26.

(9) التصوير الفني : 69.

لهذا الجسم .
فالصورة الفنية في آيات الخوف شأنها شأن آيات القرآن الكريم تميّزت بالابتكار والإبداع والتأثير في المتلقي ، وليس هذا فقط وإنما تحاول إقناعه ، وتعمّق الوعي لديه بالحدث المعروض . وقد عوّل العلماء الذين درسوا الصورة الشعرية في فهمها وعدها وسيلة للإقناع على ما وجدوه في آي القرآن الكريم من صور تؤدي الدور نفسه ((... ذلك أنّ دراسة أساليب القرآن في التأثير والاستمالة ، كانت تؤدي بدورها إلى فهم الصورة القرآنية على أنّها طريقة الإقناع ، تتوسل بنوع من الإبانة والتوضيح ، وتعتمد على لون من الحجاج والجدل ، تحرص على إثارة الانفعالات في النفوس ، على النحو الذي يؤثر في المتلقي ، ويستميله إلى القيم الدينية السامية التي يعبر عنها القرآن الكريم))⁽¹⁾.
أمّا الفنون البلاغية التي تتكون منها الصورة الفنية في آيات الخوف فهي من فنون البيان من تشبيه ومجاز واستعارة وكناية ومن فنون البديع من طباق ، فسوف نبحث في هذه الفنون متذوقين بلاغتها باحثين عن سر جماليتها وتأثيرها في المتلقي .

(1) الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي : 404.

المبحث الأول

التشبيه

التشبيه لغةً هو التمثيل وهو مصدر مشتق من مادة شبه . جاء في لسان العرب ((الشبه والتشبيه: المثل ، والجمع أشباه وأشبه الشيء بالشيء : ماثله، وأشبهت فلاناً وشابهته واشتبته عليّ وتشابه الشيطان واشتبها : أشبه كل واحد منهما صاحبه وشبهه إياه وشبهه به مثله والتشبيه التمثيل))⁽¹⁾ .

ويبدو من هذا العرض اللغوي أنّ التشبيه والتمثيل بمعنى واحد عند اللغويين ، وقد تبنى بعض علماء البلاغة هذا الرأي كابن الأثير في المثل السائر ، جاء فيه ((يُقال: شَبَّهْتُ هذا الشيء بهذا الشيء ، كما يُقال: مثَّلته به))⁽²⁾ .

أمّا الجرجاني فيرى غير ذلك فالتشبيه عنده عام والتمثيل أخصّ منه فكل تمثيل تشبيه وليس كل تشبيه تمثيلاً .⁽³⁾

وفي الاصطلاح فالتشبيه ((هو العقد على أنّ أحد الشيئين يسد مسدّ الآخر في حس (أو عقل))⁽⁴⁾ فهو يشير إلى الجامع بين المشبه والمشبّه به وقائمٌ على أساس الإدراك الحسي والعقلي للأشياء . وعرفه أبو هلال العسكري قائلاً : ((التشبيه : الوصف بأن أحد الموصوفين ينوب مناب الآخر بأداة التشبيه))⁽⁵⁾ . فقد أشار إلى ركن من أركان التشبيه وهو أداة التشبيه .

ثم جاء السكاكي وعرف التشبيه بقوله : ((إنّ التشبيه مستدع طرفين : مشبهاً ومشبهاً به ، واشتراكاً بينهما في وجه ، وافتراقاً في وجه))⁽⁶⁾ .

فلا بد من وجود طرفي التشبيه (المشبه والمشبّه به)؛ لأنّ غياب أحدهما ينقل التعبير من التشبيه إلى الاستعارة ، فضلاً عن ((أنّ هذين الطرفين قد يلتقيان في وجه ويفترقان في وجه آخر ، وبهذا تكون العلاقة بينهما رهناً بقدرة المتكلم على اختيار الوجه المناسب الذي يمكن أن يجمع أو يؤلف بينهما تأليفاً موحياً ومؤثراً))⁽⁷⁾ .

إذن التشبيه هو اشتراك المشبه والمشبّه به في وصف يجمعهما وهذا ما ذهب إليه

(1) لسان العرب : مادة شبه .

(2) المثل السائر : 82 .

(3) يُنظر : أسرار البلاغة ، عبد القاهر الجرجاني تح: د. عبد الحميد الهنداوي ، دار الكتب العلمية ،

بيروت، ط 1422، 1-2001: 73 .

(4) النكت في إعجاز القرآن : 74 .

(5) كتاب الصناعتين : 245 .

(6) مفتاح العلوم : 141 .

(7) الأداء البياني في السور القصار (أطروحة دكتوراه) ، عقيل عبد الزهرة مبدر ، كلية الآداب ، جامعة

الكوفة ، 1427هـ - 2006م: 31.

البلاغيون المحدثون . (1)

والذي يجمع نظرة البلاغيين للتشبيه أنه ((التفنن بإبراز الصورة البلاغية للشكل واستقراء دلالتها الحسية ، وذلك عن طريق تسخير قدرة التشبيه الخارقة في تكوين الشكل بظلال مبتكرة وأزياء متنوعة لم تقع بحس قبل التشبيه ، ولم تجرب بها العادة ولا تُعرَف بداهة ، إلا بلحاظ مجموعة من العلاقات الفنية في التشبيه ، وعند ضم بعضها للبعض الآخر تبدو محسوسة متعارفة ذات قوة وصفية متميزة ، وهنا تكمن القدرة الإبداعية للتشبيه في تكييف الصورة)) (2).

فوائد التشبيه القرآني

اتخذ القرآن الكريم من التشبيه أداة للتعبير عن أفكار الواردة فيه أكثر من غيره من فنون القول ، وسر ذلك يكمن في ما للتشبيه من فوائد تفضله على غيره من الألوان البلاغية ومن هذه الفوائد منها :

1- الإيضاح

ذكر الرماني أن التشبيه ((يُكسب الكلام بياناً عجيباً)) (3) إذن فالإبانة والوضوح من الفوائد الأساسية للتشبيه ؛ لأنها تُزيل عن المعنى الغموض واللبس، وتُدني القريب من البعيد ، يذكر الدكتور محمود البستاني أن ((القرآن الكريم استخدم عنصر التشبيه بنحو يشكل نسبة كبيرة بالقياس إلى الصور الفنية الأخرى ، والسر في ذلك أن التشبيه هو أشد وضوحاً من غيره في إبراز المعاني التي يستهدفها القرآن)) (4).

ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُخْتَطِرِ ﴾ (5).

فالآية أخبرت عن عقاب قوم ثمود بكفرهم وتكذيبهم نبيهم صالحاً (عليه السلام) وعقر الناقة التي هي آية من آيات الله بالصيحة وهي صيحة جبرائيل (عليه السلام) ، فصار

(1) ينظر : فن التشبيه ، د. علي الجندي ، مكتبة نهضة مصر ، ط1 ، 1952م : 33/1 ، و علم البيان ، د. بدوي أحمد طبانة ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة : 36.

(2) الصورة الفنية في المثل القرآني : 181.

(3) النكت في إعجاز القرآن : 75.

(4) أدب الشريعة ، د. محمود البستاني ، مؤسسة السبطين العالمية ، قم ، إيران ، ط1 ، 1424هـ.ق.-

1382هـ.ش : 76 .

(5) سورة القمر : 31 .

كالشجر اليابس المفتت إذا تحطم⁽¹⁾ .
والصورة متوكلّة على أداة التشبيه (الكاف) والتي تمثل الدرجة المألوفة في التشابه ،
وليست الدرجة الأقل تشابهاً. فالصيحة جعلتهم كحطام الشجر ، وقد أوضح هذا التشبيه
حالهم بعدما جاءهم العذاب الإلهي .
ويثير هذا التشبيه الخوف والرغبة في النفوس من عاقبة الكافرين والمكذّبين لما جاء به
الأنبياء .

فالله سبحانه وتعالى قد جسّد هذه الصورة وجعلنا كأننا نراها بأعيننا ، وهذا مما يزيد
المعنى وضوحاً وجلالاً وبياناً .
ومنه تشبيه عمل المنافقين في استدراج أهل الكتاب إلى العصيان والجحود والتأمر على
المسلمين بالشیطان وتزيينه قال تعالى: ﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ
إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ (2) .
فكما بريء الشيطان ممن استغواه بكيد في العاقبة فقد بريء المنافقون من اليهود بعد
الإغواء والتزيين للعمل النابي .

فعاد هذا التشبيه أداة صالحة تصور حقيقة هؤلاء المنافقين في إغواء أهل الكتاب وترجيح
عصيانهم وتقوية شكوكهم ، وحينما دارت بهم الدوائر وكتب النصر للنبي محمد (صلى
الله عليه وآله وسلم) تبرؤا منهم ، وأظهروا الإيمان نفاقاً وخوفاً ، كما تبرأ الشيطان من
الإنسان بعد إغوائه وأظهر خوفه من الله تعالى كذباً وغمزاً لا واقعاً وتصديقاً⁽³⁾ .
فالمثل القرآني زاد المعنى رفعةً ووضوحاً وكشف عن الحقائق فأصبحت واضحة جلية.

٣- التأثير

يهدف التشبيه إلى أن يكون مؤثراً في النفس محركاً للعواطف ، فالوضوح والتأثير
النفسي من الأغراض المهمة للتشبيه لما لها من دلالة فنية على المعنى المراد ، وقد ذكر
الجرجاني أن التشبيه يعمل عمل السحر فقال : ((وهل تشك في أنه يعمل عمل السحر في
تأليف المتباينين حتى يختصر لك بُعداً ما بين المشرق والمغرب ، ويجمع ما بين المُشتم
والمعرق وهو يريك الحياة من الجماد)) (4).

وقد سعى القرآن الكريم إلى تحريك العاطفة ، فهو لا يعني بنفاسة المشبه به، وإنما يعني
العناية كلها باقتراب الصورتين في النفس ، وشدة وضوحهما وتأثيرهما (5).
فمن التشبيه المؤثر ما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ * مَا
تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَنتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْتَهُ كَالرَّمِيمِ ﴾ (6)

لهذه الصورة التشبيهية الحسية دلالتها الفنية الموحية والنفسية المؤثرة ، إذ يتحول كل ما
موجود على الأرض إلى ما يشبه النبات أو العظم البالي والذي يبس وتفتت بفعل تلك

(1) ينظر : مجمع البيان : 244 / 9 .

(2) سورة الحشر : 16 .

(3) ينظر : الصورة الفنية في المثل القرآني : 210 .

(4) أسرار البلاغة : 100 .

(5) ينظر : التعبير الفني في القرآن : 192 .

(6) سورة الذاريات : 41-42 .

الريح المشؤومة التي جاءت بعذاب استئصال و((استعارة العقم لها زاد من قتامة هذه الصورة وهولها فالعرب تحب المرأة الولود وتتشاءم من المرأة العقيم، حيث تعبر الولادة عن استمرار الحياة ، لذا فإن صورة (الريح العقيم) التي أهلكت الحرث والنسل ما من شأنه أن يبيت الرعب في نفوس الكفار ويجعلهم يلونون بحالة من الخوف والهلع يمكن أن تحملهم على الرجوع عن كفرهم وانحرافهم))⁽¹⁾ .
ومنه قوله تعالى : ﴿ .. وَإِنْ يَسْتَعِثُّوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ ... ﴾⁽²⁾ .
وهذه صورة تشبيهية مؤثرة من صور العذاب التي رسمها لنا القرآن الكريم في نار جهنم ، فهؤلاء الكافرون إن يستغيثوا من شدة العطش وحرارة النار فإنهم يغاثوا بماء يزيد من عذابهم ، فقد شبه القرآن هذا الماء بأنه كالمهل ، والمهل كل شيء أذيب كالرصاص والنحاس والصفير⁽³⁾ فيُنْضِج هذا الماء وجوههم عند دنوه منها فيُحْرِقُهَا .
يثيرُ هذا التشبيه في النفوس خوفاً وانزعاجاً رهيباً من هول عذاب جهنم ، فيكون هذا الخوف محفزاً ودافعاً إلى سلوكها سبيل الخير والحق وتجنب سخط الجبار والذي يوجب دخول النار .

٢٤٤- التأكيد والمبالغة

التشبيه من شأنه أن يقرر شكل المشبه في الذهن ويعمق معناه ويلح عليه بالثبوت ويرسم له في لوح الخاطر صورة واضحة المعالم⁽⁴⁾ . وهذا ما ذكره العسكري بقوله : ((إن التشبيه يزيد المعنى وضوحاً ويكسبه تأكيداً))⁽⁵⁾ .
وإلى جنب التأكيد قد يكون الغرض المبالغة في الوصف كقوله تعالى: ﴿ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ * كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ ﴾⁽⁶⁾ .
فقد شبه الشرر بالقصور لضخامتها وبالجمال الصفير لونها ، فالقرآن الكريم أراد أن يجمع بين حجم الشرر ولونها في صورة واحدة ، فإنّ هذه الصورة من الصور الحسية المركبة والمتداخلة ؛ لأنها تقوم على عنصرين تشبيهيين على نحو متداخل بحيث يكمل أحدهما الآخر ، و((مغزى التشبيه بالشرر هو التأكيد والمبالغة في التخويف من النار التي ترمي به ، تعظيماً لشأنها ، وإرهاباً للكافرين من سطوتها ، وإنما تكررت أداة التشبيه بغير حرف العطف ؛ لأنه في صفة الموصوف ، وأبلغ في نعتة من التشبيه المعطوف ، ويدلّ على شدة التصاق الصفات بالموصوف))⁽⁷⁾ .
فالمبالغة في التشبيه تعني أنّ التشابه وصل أقصى حد له ، فالعرب تعظم القصور والأبنية الضخمة ، فتشبه الأشياء بها إذا ما قصدت المبالغة في حجمها ، وقد وصفت الجمال بأنها صفراء لكي يتبادر إلى ذهن السامع حجم النار مقترناً بلونها ، وهذا ما يهول العربي-

(1) الأداء البياني : 40.

(2) سورة الكهف : 29.

(3) ينظر : مجمع البيان : 602/6.

(4) ينظر : فن التشبيه : 75/1.

(5) كتاب الصناعتين : 249 .

(6) سورة المرسلات : 32-33.

(7) أساليب البيان في القرآن : 366.

الذي لم يرَ في باديته أعظم من القصر والناقة – ويقض مضجعه، فيدفعه ذلك إلى التدبر والتفكر ، ثم الاعتقاد بما أنزله الله جل وعلا (1).

خصائص التشبيه القرآني

تميّز التشبيه في القرآن عموماً وفي آيات الخوف خصوصاً بجملة من الخصائص والمميزات ميّزته عن غيره منها :

مُحَرَّرٌ - إنّ التشبيه القرآني يستمد عناصره من الطبيعة ، وذلك هو سر خلوده ، فهو باقٍ ما بقيت هذه الطبيعة وسر عمومته للناس جميعاً، يؤثر فيهم ؛ لأنهم يدركون عناصره، ويرونها قريبة منهم، وبين أيديهم (2)، فلا نجد في القرآن تشبيهاً يدرك جماله فردٌ دون آخر، ويتأثر به إنسان دون إنسان كما في بعض التشبيهات في الأدب العربي .

فالقرآن يجد في الحجارة القاسية المثال الملموس لقسوة القلوب ، وبُعْدُهَا عن أن تليّن لجلال الحق وقوة منطق الصدق ، قال تعالى: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَقُّ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (3).

إنّ قسوة قلب اليهودي أشد من قسوة الحجر ، وهذا ما يريد أن يقرره القرآن الكريم من خلال الصورة الفنية التشبيهية في الآية . وإنّ قسوة القلب التي تتميز بها الشخصية اليهودية جاءت بعد سلسلة طويلة من العرض لقصص سلوك اليهود ، إذ اتسم سلوكهم بالتمرد على أوامر السماء من جانب ، وقتلهم الأنبياء من جانب آخر ، وممارسات تبعث على السخرية من جانب ثالث ، مثل مطالبتهم برؤية الله تعالى وعبادة العجل ... وهذا السلوك أدى إلى أن تصبح أعماق الشخصية اليهودية ممسوخة لا أثر للخير فيها (4).

من ذلك ندرك أهمية التشبيه الذي قدّمه النص القرآني حينما أوضح أنّ قلوب اليهود هي ((كالحجارة أو أشد قسوة)) فالتشبيه اعتمد على عنصر من عناصر الطبيعة وهي تلك الحجارة القاسية والتي قد تتخلّى عن قسوتها فتخرج منها الأنهار وتشقق منها العيون وتهبط من خشية الله في حين أنّ قلب اليهودي لا يعرف الرحمة ، وليس فيه مهابة ولا خوف من الله . فالنص وقرّ لدينا قناعة بمدى قسوة القلب اليهودي من خلال التشبيه .

مُحَرَّرٌ - إنّ التشبيه القرآني ليس عنصراً إضافياً في الجملة ولكنه جزءٌ أساسي لا يتم المعنى بدونه إذ ((لا يُقصد بالتشبيه باعتباره تشبيهاً ، بل باعتباره حاجة فنية تبنى عليها ضرورة

(1) ينظر : الأداء البياني : 63 .

(2) ينظر : من بلاغة القرآن : 196.

(3) سورة البقرة : 74.

(4) ينظر : دراسات فنية في صور القرآن : 18.

الصياغة والتركيب ، فهو وإن كان عنصراً بيانياً يكسب النص روعةً واستقامة وتقريب فهم ، إلا أنه يعود عنصراً ضرورياً لأداء المعنى القرآني متكاملًا من جميع الوجوه ((⁽¹⁾) فعمله في الجملة ((أنه يعطي الفكرة واضحة ومؤثرة)) (⁽²⁾) كما ندرك ذلك من قوله تعالى : ﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ (⁽³⁾) .

فالآية أخبرت عن طائفة من المؤمنين كرهت الخروج مع رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) للقتال ، فأخذت تجادله فيما دعاهم إليه بعدما عرفوا صدقه وصحت دعوته فشبه تعالى ((حالهم من فرط فزعهم ورعبهم وهم يُسار بهم إلى الظفر والغنيمة بحال من يُعتل إلى القتل ويُساق على الصغار إلى الموت المتيقن وهو مشاهد لأسبابه ناظر إليها لا شك فيها)) (⁽⁴⁾) .

فالتشبيه وضّح حالة الخوف والرغبة التي ألمت بهؤلاء حينما دُعوا إلى الجهاد فلم يدفعهم إيمانهم إليه برضا وتسليم بل كانوا خائفين من الموت (⁽⁵⁾) ، لذا فإن التشبيه لم يقصد لكونه تشبيهاً في النص فحسب بل هو حاجة فنية في الصياغة والتركيب وله مكانته في نقل الفكرة وتصويرها .

﴿يُجَادِلُونَ﴾ - ومن خصائص التشبيه ((دقته فهو يصف ويقيد ، حتى تصبح الصورة دقيقة واضحة أخاذة)) (⁽⁶⁾) .

فلنأخذ مثلاً على ذلك قوله تعالى : ﴿خُشَّعاً أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنتَشِرٌ﴾ (⁽⁷⁾) .

فقد شبه الله تعالى الكفار يوم يخرجون من قبورهم بالجراد المنتشر في صورة تشبيهية حسية ومؤثرة ومبينة لحالة الخوف والفرع التي ملأت قلوبهم عند سماعهم صوت النفير . جاء في مجمع البيان ((إنهم يخرجون فزع عيون يدخل بعضهم في بعض ويختلط بعضهم ببعض ، لا جهة لأحد منهم فيقصدها كما أن الجراد لا جهة لها فتكون أبداً متفرقة في كل جهة)) (⁽⁸⁾) .

فالجراد المنتشر يدل على الكثرة والتموج ، فالقرآن لم يكتف في تشبيه الكفار يوم يخرجون من قبورهم بأنهم كالجراد بل وصفه بالمنتشر ((حتى يكون دقيقاً في تصوير هذه الجموع الحاشدة ، وهي خارجة من أجداثها منتشرة في كل مكان تملأ الأفق ، ولا يتم هذا التصوير إلا بهذا الوصف الكاشف)) (⁽⁹⁾) .

﴿يُجَادِلُونَ﴾ - المقدرة الفائقة على اختيار الألفاظ الدقيقة المصورة والموحية كما في تشبيه الموج

(1) الصورة الفنية في المثل القرآني : 181.

(2) من بلاغة القرآن : 198.

(3) سورة الأنفال : 6.

(4) الكشاف : 404.

(5) ينظر : من بلاغة القرآن : 199.

(6) م.ن : 199.

(7) سورة القمر : 7.

(8) مجمع البيان : 239/9.

(9) من بلاغة القرآن : 200.

بالظلل في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظَّلْلِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ..﴾ (1). الآية تخبر عن حال قوم يذكرون الله عز وجل عند الشدة وينسونه عند زوالها ، فقد صوّرت موقف هؤلاء عندما كانوا خائفين يركبون سفينة تتقاذفها الأمواج ويغشاهم موج كالظلل فيشيع في نفوسهم الخوف والفرع من هذا الأمر الذي لا يردّه إلا الله تعالى ، ففرّعوا إليه سبحانه راجين النجاة ، إذ أنّ الإنسان إذا تعرض إلى خوفٍ شديد يلجأ بفطرته إلى الله سبحانه لينجيه. وقد تجسد معنى الخوف في النص من اجتماع ألفاظ (الغشيان والموج والظلل) ودخولها في علاقة إنباع مع (الموج) (2) ، فكلّمة الموج ((لم ترد في الاستعمال القرآني إلا في مواطن الشدة والخوف)) (3) وتشبيه الموج بالظلل يزيد من الخوف والرهبة .

فـ ((إنّ الموج يكون أشد إرهاباً وأقوى تخويفاً إذا هو ارتفع حتى ظلل الرؤوس ، هنالك يملأ الخوف القلوب ، وتذهل الرهبة النفوس ، وتبلغ القلوب الحناجر)) (4). فذكر لفظة الموج وتشبيهه بالظلل هو الأنسب في مقام الرهبة والخوف .

أركان التشبيه

يقوم التشبيه على أربعة أركان هي : المشبه والمشبه به وأداة التشبيه، ووجه الشبه، ويسمى المشبه والمشبه به بطرفي التشبيه لعدم جواز حذف أحدهما أو كليهما وجواز ذلك للركنين الآخرين وقد استند البلاغيون القدامى والمحدثون على هذه الأركان الأربعة في تحديد أقسام التشبيه (5) :

أقسام التشبيه في آيات الخوف

- يقسم التشبيه بلحاظ طرفيه (المشبه والمشبه به) على أنواع منها :

أ - تشبيه المحسوس بالمحسوس

هو أن يكون المشبه والمشبه به حسيين والمقصود بالحسي هو ما يدرك بإحدى الحواس الخمس وهي (البصر والسمع والشم والذوق واللمس) وهذا التشبيه هو من أكثر أنواع التشبيه وروداً في القرآن الكريم .

ومن امثله في سياق الخوف قوله تعالى : ﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ .. ﴾ (6).

وقد بان معنى الخوف في الآية من خلال التشبيه الحسي الحركي . فقد شبه تعالى أمواج الماء التي كانت تجري فيها سفينة نوح ومن معه بأنّها ((كالجبال في عظمها وارتفاعها)) (7) مع مفارقة كون الأمواج متحركة غير جامدة

(1) سورة لقمان : 32.

(2) ينظر: الخوف في القرآن الكريم ألفاظه وسياقاته : 365.

(3) الخوف في القرآن الكريم ألفاظه وسياقاته : 361.

(4) من بلاغة القرآن : 201.

(5) ينظر : نهاية الإعجاز : 103 ، والإيضاح : 193 ، والبرهان : 420/3 ، والإتقان : 372 ، وفن التشبيه :

94-95 ، وأصول البيان العربي في ضوء القرآن الكريم ، د.محمد حسين علي الصغير ، دار المؤرخ

العربي، بيروت ، لبنان ، ط1، 1420 هـ -1999م : 86-95 ، وأساليب البيان في القرآن : 250.

(6) سورة هود : 42.

(7) مجمع البيان : 210/5.

كالجبال وذلك مما يثير الخوف في النفوس خاصة وإنه أخبر عن هذا الحدث بالفعل المضارع ((استحضاراً لصورته في ذهن كأنه مشاهدٌ حالٌ لإخبار فصورة السفينة وهي تجري بين أمواج عظيمة لا قبل للمرء على تصورهما ولكن التعبير بالفعل المضارع (تجري) جعل حركتها ماثلة أمام عين السامع فيشعر بهول ذلك الموقف)) (1)، وفي الوقت نفسه يصور هذا التشبيه ((ما كان يحس به ركاب هذه السفينة وهم يشاهدون هذه الأمواج فينتابهم شعورٌ مكوّنٌ من رهبة وجلال معاً)) (2).
فمع أنّ ميدان التصوير هو المحسوس بكل أبعاده ، فالقرآن تجاوز الوقوف عنده بأساليبه الرائعة إلى جعل الصورة أكثر ارتباطاً بالحالات النفسية ، فهو يرسم الصورة كما تحس بها النفس (3).

ب - تشبيه المعقول بالمحسوس

هو أن يكون المشبه مما يُعقل والمشبه به مما يُحس كما في قوله تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكْذِبْ رَأَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ (4).
فالله عز وجل شبه أعمال الذين كفروا بالظلمات المتراكمة في بحر لحي عميق مترددة أمواجه وهو تصوير تشبيهي مؤثر في النفوس . ومعنى الخوف يبرز من خلال سياق التشبيه الذي ترددت فيه ألفاظ الظلمة والموج والغشيان ، فالجو مخيف رهيب تتراكم فيه الظلمات (ظلمة البحر وظلمة الأمواج وظلمة السحاب) وينعدم فيه النور ف ((الكافر يعمل في حيرة ولا يهتدي لرشده فهو من جهله وحيرته كمن هو في الظلمات ، لأنه من عمله وكلامه واعتقاده متقلب في ظلمات)) (5).

والقرآن بهذا التشبيه يثير الخوف والرهبة في نفوس الكافرين ، فهو يصور لهم أعمالهم بأنها ظلمات في ظلمات ، ليس فيها نور الحق وهذا الخوف هو دافع لهم ليخرجوا من ظلمات الكفر إلى نور الهداية والحق والعدل .

فالصورة هنا أدت وظيفتها في تحريك النفوس وتوضيح المعنى بعد نقله إلى العيان حياً، قال عبد القاهر الجرجاني : ((إن أنس النفوس موقوف على أن تخرجها من خفي إلى جلي ، وتأتيها بصريح بعد مكنى أو أن تردها في الشيء تُعلمها إياه إلى شيء آخر هي بشأنه أعلم وثقتها به في المعرفة أحكم ، نحو أن تنقلها من العقل إلى الإحساس)) (6) فتشبيه المعقول (أعمال الذين كفروا) بالمحسوس (الظلمات) يجعل النفس على بيّنة من أمر هؤلاء الكافرين ؛ لأنّ النفس أعلم بالمحسوسات فإذا شُبّهت بها المعقولات ازدادت بياناً واتضاحاً .

- وينقسم التشبيه بلحاظ أداته إلى :

(1) الخوف في القرآن الكريم ألفاظه وسياقاته : 361.

(2) من بلاغة القرآن : 192.

(3) ينظر : م.ن 192.

(4) سورة النور : 40.

(5) مجمع البيان : 193/7.

(6) أسرار البلاغة : 93.

مorce - التشبيه المرسل

هو التشبيه الذي تُذكر فيه الأداة ، كالكاف ومثل وما شابههما من أسماءٍ وأفعالٍ وحروف تدل على المشابهة بين المشبه والمشبه به⁽¹⁾ ، ومنه ما جاء في قوله تعالى وهو يخبرنا عن علامات قيام الساعة وما يحدث من تغيرات في عناصر الطبيعة تدل على وقوعها : ﴿ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ ﴾⁽²⁾.

وهذه صورة حسية تشبيهية تدل على عظمة الخالق وقدرته في تفتيت الجبال الضخمة المتماسكة وجعلها كالعهن المنفوش أي ((كالصوف المندوف المتفرق المنتشر))⁽³⁾، أي كالصوف المتفرق في هشاشته وخفته .

ولهذا التشبيه أثره البالغ في نفس السامع لما يبعثه فيها من خوف ورعب فيدفعه ذلك إلى ما يقبه من هول ذلك اليوم .

مorce - التشبيه المؤكد

هو ما لم تُذكر فيه الأداة⁽⁴⁾. وهو أوجز وأبلغ وأشد وقعاً في النفس أما أوجز فلحذف أدواته ، وأما إنه أبلغ فلا يهاهم أن المشبه عين المشبه به ، ووقعه الشديد في النفس يرجع إلى صيغته الموجزة وربطه الوثيق بين طرفي التشبيه⁽⁵⁾. وبهذا يحقق هذا التشبيه أغراضاً فنية ولغوية وشعورية⁽⁶⁾.

ومنه ما جاء في القرآن في بيان ما يحدث في يوم القيامة من أهوال وحوادث قال تعالى : ﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ .. ﴾⁽⁷⁾.

فالخوف يظهر من تشبيه سير الجبال كما تسير السحاب سيراً حثيثاً ، فإنك لا ترى سيرها لبعدها أطرافها كما لا ترى سير السحاب المنبسط لبعده أطرافه وذلك إذا أزيلت الجبال عن أماكنها لتلاشيها⁽⁸⁾. وكما أن السحاب تحركه الرياح فالجبال حركتها مرتبطة بالأرض مما يثير الخوف والفرع في قلوب الناس وهم يشاهدون أهوال ذلك اليوم ، وهذا الخوف يكون باعثاً لهم لعمل الصالحات وتجنب المعاصي ورجوع المنحرفين إلى الصراط المستقيم وبذلك يكونون بأمان من فزع ذلك اليوم⁽⁹⁾.

ومنه ما جاء في قوله تعالى : ﴿ .. وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى .. ﴾⁽¹⁰⁾.

الآية جاءت لتصف ما يحدث في يوم القيامة وما يملك الناس فيه من الرعب والخوف عندما يشاهدون العذاب .

فقد شبه تعالى الناس في ذلك اليوم العصيب بالسكارى الذين فقدوا التمييز وأضاعوا الرشد

(1) ينظر : الإيضاح 225 ، والإتقان 373 ، وجواهر البلاغة : 234 .

(2) سورة القارعة : 5.

(3) مفردات ألفاظ القرآن : مادة عهن .

(4) ينظر : الإيضاح 225 ، والإتقان 373 ، وأساليب البيان : 251.

(5) ينظر : جواهر البلاغة : 234.

(6) ينظر : البلاغة والتطبيق : 289.

(7) سورة النمل : 88.

(8) ينظر : مجمع البيان : 306/7-307.

(9) قال تعالى : ﴿ ... وَهُمْ مِنْ فَرْعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ ﴾ سورة النمل : من الآية ٢٥٨ مكيان.

(10) سورة الحج : 2.

(1). وما هم بسكارى ولكنه الخوف والرعب الذي ملأ قلوبهم من العذاب الشديد. وكذلك في وصف هذه الأهوال في الآخرة ومخاوف الناس فيها ما يثير الخوف والرعبة في قلوب الناس فيدفعها إلى الإيمان الصادق وتقوى الله والعمل الصالح وبذلك لا تخيفهم هذه الأهوال ولا يحزنوا في يوم الفرع الأكبر (2).
- ويقسم التشبيه بلحاظ وجه الشبه إلى :

١- التشبيه المفرد

والمراد به المفرد بمعناه البياني الذي يدل على الصورة البسيطة التي تتكون من أمر واحد ، أو ما كان التشبيه فيه حاصلًا بلحاظ صورة بصورة أو معنى بمعنى ، من دون أن تكون هناك ثمة صفات مركبة يمكن أن تتحد بمجموعها لتمثل حالة واحدة (3). والنظر إلى قوله تعالى: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ * تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ ﴾ (4).

والخوف يبرز من خلال سياق التشبيه فقد شبهت هاتان الآيتان من أتت عليهما الریح الصرصر من قوم عاد بأعجاز النخل المنقعر ، فقد أرسل الله عز وجل عليهما ريحاً باردة شديدة الهبوب في يوم دائم الشؤم ، وتقتلع هذه الریح الناس ثم ترمي بهم على رؤوسهم فتدق رقابهم فيصيرون كأثم أعجاز نخل منقعر عن مغارسه وقيل : شبهوا بأعجاز النخل ؛ لأن الریح - لشدتها - كانت تقطع رؤوسهم فتبقى أجساداً بلا رؤوس، فتبدو للناظر وكأن أجسادهم أصول نخل بلا فروع وقد اقتلع عن مغارسه (5).

وهذا التصوير المخيف يهزُّ العاطفة ويأخذ من الأفئدة والألباب مأخذه ، فيثير فيها الخوف والرعب مما فعلته هذه الریح بقوم عاد وما يمكن أن تفعله فيمن يقتفي أثرهم من الكفر بالله تعالى والتكذيب بدعوة الأنبياء (عليهم السلام) الصادقة ، لذا فقد أعقب هذا التشبيه استفهام خرج لتعظيم هذا العذاب النازل بهم ؛ لتخويف كفار مكة (6). قال تعالى : ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ ﴾ (7).

٢- التشبيه المركب أو التمثيلي

هو ما كان وجه الشبه فيه منتزع أو متولد من أمور متعددة مجموعة بعضها ببعض بحيث لو سقط منها شيء لاختل التشبيه ، ويحتاج إلى حد الذهن في فهمه لاستخراج الصورة المنتزعة من عدة أمور ، سواء أكانت حسية أم عقلية (8). ومثال ذلك في آيات الخوف ما جاء في قوله تعالى : ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا

(1) ينظر : أساليب البيان : 258.

(2) قال تعالى : ﴿ لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَرَعُ الْأَكْبَرُ ... ﴾ سورة الأنبياء : من الآية ١٠١.

(3) ينظر : الطراز : 333/3 ، وأصول البيان العربي : 89 ، وأساليب البيان : 319 .

(4) سورة القمر : 19-20.

(5) ينظر : الجمان في تشبيهات القرآن ، ابن نايقا البغدادي ، تح : د. احمد مطلوب و د. خديجة الحديثي ، دار الجمهورية ، بغداد ، 1387هـ - 1968م : 302 ، والكشاف : 1066 ، و مجمع البيان : 242/9 .

(6) ينظر : مجمع البيان : 242/9.

(7) سورة القمر : 21.

(8) ينظر : أسرار البلاغة : 76 ، والإتقان : 372 ، وجواهر البلاغة : 230 .

أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١﴾ .
فقد صور الله جل وعلا حال المنافقين في نفاقهم وإبطانهم الكفر وإظهارهم الإيمان بحال ((الذي طلب الضياء بإيقاد النار في ليلة مظلمة فاستضاء بها واستدفاً ورأى ما حوله فاتقى ما يحذر ويخاف وأمن فبينما هو كذلك إذ أطفأت ناره فبقي مظلماً خائفاً متحيراً ، كذلك المنافقون لما أظهروا كلمة الإيمان واستناروا بنورها واعتزوا بعزها فناكحوا المسلمين ووارثوهم وأمنوا على أموالهم وأولادهم فلما ماتوا عادوا إلى الظلمة والخوف وبقوا بالعذاب)) (2). وقد حققت هذه الصورة القرآنية الغرض المقصود هو بيان ارتباكهم ومخاوفهم بتمثيل حسي بارع، يلي هذا التشبيه التمثيلي تشبيه تمثيلي آخر يكشف عن مدى التوتر والصراع والاضطراب الذي يعاني منه المنافقون في غمرة مكاسبهم الدنيوية التي مارسوا من أجلها عملية النفاق قال تعالى: ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ * يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (3).

وقد شبههم النص القرآني بمن يسير في الليل يواجه مطراً فيه ظلمات متراكمة ورعد ذو صوت صارخ يصلك الأذان وصواعق تضطرهم إلى جعل أصابعهم في آذانهم ، أما البرق فيكاد يخطف أبصارهم وهي صورة استعارية رائعة تصور البرق وهو هاجم على أعينهم فجأة من حيث السرعة والشدة الضوئية لذلك فهو يخطف أبصارهم في غمرة الظلام الذي يواجهونه في مسيرهم تحت المطر (4).

وبذلك تتداخل الفنون البيانية لترسم صورة فنية تمثيلية رائعة تكشف عن حيرة المنافقين واضطرابهم ومخاوفهم .

ثم إن في هذه الظواهر الطبيعية من ظلام ورعد وبرق وأمطار وصواعق وما تثيره من رعب وفزع في المثل القرآني ((لمسات تشخيصية للتشبيه القرآني في أمثال متجانسة كل التجانس بما يحقق العمق الفني للتمثيل بأروع نماذجه وأرقى مشبهاته كمدرجات حسية متجسدة تقرب المعنى العقلي البعيد فتجعله في متناول الفهم والتخيل عند الإنسان)) (5). وإلى هذا المعنى أشار الدكتور محمود البستاني بأن لهذه الظواهر من مطر ورعد وبرق وظلمات وصواعق - وسماها (رموزاً فنية) - علاقة بسلوك المنافقين ، فقال : ((يمكنك أن تربط بين المطر وبين المكاسب الدنيوية التي يخطط لها المنافق ولكن هذا المطر قد واكبه ظلام الليل مضافاً إلى الظلام الذي تسببه السحب التي تحجز الضوء الذي يمكن أن يتأتى من الكواكب ، حينئذ يمكنك أن تربط بين الظلام وبين المخاوف التي يتحسسها المنافق بالنسبة لإمكان أن يفشل في تمرير مخططه ، ثم إن كلاً من (البرق والرعد) يصاحب هذه العملية ، وعندها يمكنك أن تربط بين البرق الذي هو بمثابة الأمل

(1) سورة البقرة : 17.

(2) مجمع البيان : 67/1.

(3) سورة البقرة : 19-20.

(4) ينظر : دراسات فنية في صور القرآن : 16.

(5) الصورة الفنية في المثل القرآني : 208.

في إمكان نجاح المنافق في تحقيق طموحاته ، إلا أن هذا الأمر تحاصره الخيبة من جديد ، عندما يواجه المنافق رعداً يصك أذنيه .

إذن فالمنافق يحيا بين الأمل والخيبة وبين المطر والبرق من جانب ، وبين الظلام والرعد من جانب آخر ، إلا أنه في نهاية المطاف يتغلب عليه عنصر الخوف أو خيبة الأمل ، بحيث يواجه (صواعق) تنذر بالموت مما تضطره إلى أن يضع أصابعه في أذنيه ، أي أنه يخشى أن يفتضح أمره أمام الآخرين ويكتشفون نفاقه (((1).

ففي استعمالها في المثل القرآني كونها صدى للعمليات النفسية التي يمرّ بها المنافق ، ومدرجات حسية (سمعية وبصرية) تخرج التمثيل في التشبيه ((من قالب الإدراك العقلي إلى مجال الرؤية الملموسة)) (2).

فللتمثيل القرآني أثر في كشف خصائص المنافقين وتصويرهم بأكثر من صورة تثبيتاً للفكرة في النفس أو لمحاها من عدة زوايا (3).

وقد قدم لنا هذا التشبيه التمثيلي المعنوي المجرد مثلاً حياً دائب الحركة وهذا المعنى أشار إليه ابن سنان الخفاجي بقوله: ((إنَّ تمثيل المعنى يوضحه ويخرجه إلى الحس والمشاهدة ، وهذه فائدة التمثيل في جميع العلوم ؛ لأنَّ المثل لا بد أن يكون أظهر في التمثيل ، فالغرض من إيراد إيضاح المعنى وبيانه)) (4).

وهذا التوضيح له أثر بالغ في النفس ف ((إنَّ المشاهدة تؤثر في النفوس مع العلم بصدق الخبر)) (5).

ومن التشبيه التمثيلي تصوير نفور الكفار عن الدعوة الإسلامية بالحرر المستنفرة قال تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ * كَانَتْهُمْ حُمْرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ * فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾ (6).

فالتشبيه صوّر وقع الدعوة على نفوس المشركين وما كانوا يقابلون به تلك الدعوة بالنفور والإعراض ، فهم لا يريدون أعمال عقولهم في خلق السموات والأرض ، كلما غرّضت عليهم دعوة الحق وذكروا بمواعظ القرآن ابتعدوا عنها مسرعين إسراعاً يمضون فيه على غير هدى ، خوفاً من أن تؤثر فيهم .

والقرآن لم يكتف بتصويرهم بالحرر بسبب جهلهم ، وإنما قيده بقيدين : الأول : كونها مستنفرة ، والآخر : أنها فرت من قسورة ، والمستنفرة الشديدة النفار كأنها تطلب النفار من نفوسها تفر من أسدٍ هصور يطلبها طعاماً له ، وقيل : القسورة هم الرماة ورجال القنص (7).

فتتفرق في كل مكان هائمة على وجهها مع الخوف الشديد الذي يملأ صدورها ... وفي ذلك أبلغ التصوير لإعراض الكافرين عن الدعوة وهو في الوقت نفسه بعث للنفوس العاقلة

(1) دراسات فنية في صور القرآن : 15.

(2) الصورة الفنية في المثل القرآني : 202.

(3) ينظر : من بلاغة القرآن : 202.

(4) سر الفصاحة : 223.

(5) أسرار البلاغة : 96.

(6) سورة المدثر : 49-51.

(7) ينظر : الكشاف : 1159 ، ومجمع البيان : 498/10.

على السخرية منهم⁽¹⁾. وللموسيقى دور مميز في هذه الصورة ، فالإيقاع الموسيقي لصوت الرءاء المكرر أضاف إلى الصورة بعداً آخر ولوناً متميزاً ، إذ قوّى من شأن التصوير والإيحاء، وجاء متنسقاً مع الحالة التي عليها الآية ((فالراء المكررة ذات تردد عالٍ وهو من الأصوات المجهورة التي تتطلب جهداً ووقتاً أقل في إنتاجها))⁽²⁾. وهذا يتناسب مع حالة الخوف والتوتر التي تصورها الآية في نفوس الكفار في حال عرض الدعوة عليهم .

هكذا نجد الظواهر الطبيعية من الأمطار والرعد والبرق والصواعق والكائنات الحية مثل الحمر المستنفرة ، وقد برز ((عملها متناسقاً مع التصوير الفني لحقائق الأشياء وطبيعة الموصوفات وأوجه الشبه المناسبة))⁽³⁾.

وفي آيات الخوف نجد أنّ بعض التشبيهات القرآنية قد ربطت إلى جانب الحس العاطفي تخيل الصورة في النفس ، وإثارة الانفعالات الوجدانية حولها فتثير بذلك التنفير والتخويف فتزداد النفس عزوفاً وتتوارى عن تلك الصورة المتخيلة أو المتجسدة ، وقد شُبّهت بما هو أقرب منها ، حتى بدا الاشمئزاز منها واضحاً مضافاً إلى الخوف والهلع الذي توجده هذه الصورة الشديدة لدى المتلقي ولننظر إلى قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعاً مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾⁽⁴⁾.

يعني لما دهمهم من الرعب والجزع ما دهمهم سدرت أعينهم فما يرون إلا ظلمة⁽⁵⁾. وهذا الخوف من أهوال القيامة قد تجسد في هذه الصورة ((التي رسمتها (كأنما) بربط الألفاظ التي جاءت بعدها بعلاقات الإسناد والمفعولية والحالية . وحالة الظلام التي تسود في جو السياق كله بدلالة (أغشيت) (من الليل) (مظلماً) ثم تخصيص الوجوه بالإغشاء في وقت الليل في حال كونه مظلماً))⁽⁶⁾.

فسمة السواد تعبّر عن أقصى درجات الشدة النفسية التي يكابدها هؤلاء، وقد سبق هذا التشبيه صورة استعارية مهّدت لهذا المعنى . قال تعالى: ﴿ ..مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ... ﴾ أي ليس لأصحاب السيئات من أحد يعصمهم من الله تعالى وهم يواجهون الموقف الرهيب في يوم القيامة فلا يبرق لهم أي أمل للتخلص من الشدة التي يعانون منها على خلاف الأشخاص الآخرين ممن خلط عملاً سيئاً بعملٍ حسن مثلاً إذ إنّ للشفاعة أثراً كبيراً في إنقاذهم ، لذا فقد خُذ أصحاب السيئات في النار وقد عبّر عن ذلك تعالى بقوله: ﴿ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ .

(1) ينظر: الصور البيانية بين النظرية والتطبيق، د. حفني محمد شرف، دار نهضة مصر، الفجالة ، مصر، ط1 ، 1385هـ-1965م: 181 .

(2) الخوف في القرآن الكريم ألفاظه وسياقاته: 392 نقلاً عن شعر لقيط بن يعمر الأيادي (دراسة صوتية) : 30-18.

(3) الصورة الفنية في المثل القرآني : 201.

(4) سورة يونس : 27.

(5) ينظر: الجمان في تشبيهات القرآن : 118.

(6) الخوف في القرآن الكريم ألفاظه وسياقاته : 390.

فهم الذين قدّموا لأنفسهم هذه العاقبة بكثرة اقترافهم السيئات حتى صاروا من أصحابها فليس لهم من عاصم وحاجز يحجزهم من عذاب الله . وماداموا كذلك فمن الطبيعي أن تغشى وجوههم قطع من الليل المظلم من شدة اليأس والخوف .

فالصورة البيانية قد صوّرت مدى الخوف والرعب في نفوس أصحاب السيئات في اليوم الآخر . وفي نفس الوقت تثير الخوف والاشمئزاز لدى المتلقي مما يلاقيه هؤلاء فيدعوه ذلك إلى أن لا يكون واحداً منهم . ومن التصوير التشبيهي البديع في آيات الخوف ما جاء في قوله تعالى: ﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ جِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ۝ (1) .

الآية تحدثت عن موقف المنافقين من معركة الخندق فالصورة القرآنية قد تحدثت عن الخوف وانعكاساته على شخوصهم من المضي إلى القتال والأخذ بنصيب من أعباء الجهاد . فقد شبه النص دوران عيون المنافقين بحالة من يُغشى عليه من الموت ((وهو الذي قرب من حال الموت وغشيته أسبابه فيذهل ويذهب عقله ويشخص بصره فلا يطرف ، كذلك هؤلاء تشخص أبصارهم وتحار أعينهم من شدة خوفهم)) (2) .

والصورة في النص هي صورة مزدوجة من صورتين ، صورة (دوران العين) وهي صورة رمزية وصورة الغشاوة وهي صورة تشبيهية وإحداها مكمل وموضحة للأخرى ، وقد اعتمدت هذه الصورة الفنية المزدوجة على العنصر النفسي في تركيبها (3) . وطبيعة الموقف تستدعي مثل هذه الصورة المزدوجة بالنسبة إلى من يناق من أجل حياته .

فالخوف هنا ليس من موت مؤكد بل إنّه خاضع للاحتمال إذ إنّ نشوب المعركة لا يعني استتباعه للموت بقدر ما يتأرجح بين الموت والحياة ، لكن بما أنّ المنافقين حريصون كل الحرص على الحياة التي نافقوا من أجلها فإنّ شبح الموت يلاحقهم ، ولهذا ما أن يسمعوا بالمعركة أو يشاهدونها حتى يغشاهم الخوف فينعكس ذلك على أعينهم ، فالنص اعتمد التشبيه دون غيره لرسم سلوك المنافقين الذين يحتملون الموت عند سماعهم بالمعركة خوفاً على حياتهم (4) .

وهكذا نلاحظ أنّ التشبيه في آيات الخوف فن تصويري يكسب النص إبداعاً ويزيد الحدث وضوحاً .

فهو يعبر بالصورة المحسوسة المتخيلة عن المعنى الذهني والحالة النفسية وعن المشهد المحسوس والنماذج الإنسانية تؤدي وظيفتها في التأثير في النفوس وتوضيح المعنى بعد نقله إلى العيان حياً وما ينتج عن ذلك من متعة فنية حية ونابضة .

ونلاحظ في التشبيه أيضاً كثرة استعمال الطبيعة ؛ لأنّها أول ما يراه الإنسان ويتعرفه واستعمالها في التشبيه يقربه إلى المتلقي ويبرز صورته واضحة أمامه .

(1) سورة الأحزاب : 19 .

(2) مجمع البيان : 452/8 .

(3) ينظر : دراسات فنية في صور القرآن: 519 .

(4) ينظر : م . ن 520 .

وكذلك نلاحظ فيه اختيار الألفاظ المناسبة للمقام التي ((تجعل الكلام وحيّاً مشعّاً لا يكاد ينقر حبات القلوب حتى تؤثر فيها بطريقة فنية ونفسية عجيبة))⁽¹⁾.
وتميز التشبيه في آيات الخوف إضافة إلى ما ذكر ببراعة النظم وبلاغة المعاني وفخامة السياق.

المبحث الثاني

المجاز والاستعارة

المجاز لغة من جوز تقول: ((جزت الطريق ، وجاز الموضع جوازاً ومجازاً ، أي سار فيه وسلكه ، وجاوزت الموضع بمعنى جزته ، والمجاز والمجازة الموضع))⁽²⁾.
والتحديد الاصطلاحي نابع من الأصل اللغوي له ، الذي يدل على الاجتياز والانتقال من موضع إلى موضع آخر ، وهذا يوحي بالعلاقة الوثيقة بين المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي للمجاز وإلى هذا أشار عبد القاهر الجرجاني بقوله: ((المجاز مفعّل من جاز الشيء يجوزه إذا تعدّاه . وإذا غُدل باللفظ عما يوجب الأصل اللغوي وصف بأنّه مجاز على معنى أنهم جازوا به موضعه الأصلي ، أو جاز هو مكانه الذي وضع فيه أولاً))⁽³⁾.
وفي موضع آخر يحدد لنا الجرجاني مفهوم المجاز بأنّه ((كل كلمة أريد بها غير ما وقعت له في وضع واضعها لملاحظة بين الثاني والأول ... ومعنى الملاحظة هو أنّها

(1) الصور البيانية بين النظرية والتطبيق : 181.

(2) لسان العرب : مادة جوز .

(3) أسرار البلاغة : 278.

تستند في الجملة إلى غير هذا الذي تريده بها الآن ، إلا أنّ هذا الإستناد يقوى ويضعف بيانه ما مضى من أنك إذا قلت : (رأيت أسداً) ، تريد رجلاً شبيهاً بالأسد ، لم يشتبه عليك الأمر في حاجة الثاني إلى الأول)) (1) أي لابد من وجود قرينة تصرف الذهن عن أرادة المعنى الحقيقي للكلمة .

والبلاغيون العرب لم يخرجوا عن الدائرة التي اختطها الجرجاني في بيان معنى المجاز لغةً واصطلاحاً .

فهذا السكاكي يُعرّف المجاز بقوله : ((المجاز هو الكلمة المستعملة في غير ما هي موضوعة له بالتحقيق استعمالاً في الغير بالنسبة إلى نوع حقيقتها مع قرينة مانعة عن إرادة معناه في ذلك النوع)) (2).

والمجاز لون من ألوان التعبير وأسلوب من أساليب التقنن في القول له أثر واضح في رسم الصورة الفنية في آيات الخوف فهو ((ينتقل بذهن السامع إلى آفاق جديدة وصور رائعة ومشاهد متناسقة لا تتأني بالاستعمال الحقيقي)) (3) إذ يستهدف الفائدة المتوخاة من الكلام ومتى ما فقدت هذه الفائدة كانت الحقيقة أحق بالذكر ؛ ((لأنها هي الأصل والمجاز هو الفرع ، ولا يعدل من الأصل إلى الفرع إلا لفائدة)) (4).

فخصائص المجاز الفنية تنطلق من مهمته الإبداعية من خلال رسمه صوراً مبتكرة تتجاوز حدود الحقيقة فتشيع الحس في الكائنات والحياة في الجماد والبهجة في الأحياء. وتتطلق أيضاً من مهمته الإضافية للتراث ، ومن مهمته التهذيبية للنفس ومن مهمته التنزيهية للباري عز وجل عن الأنداد وصيانة ذاته عن الجوارح وعلوه عن الحركة والمجيء والانتقال والتشبيه ، ومن هنا يقترن الغرض الفني بالغرض الديني (5). وقد قسم علماء البلاغة المجاز على نوعين : عقلي ولغوي (6).

مخبر - المجاز العقلي (7) :

هو أن يكون التجوز في حكم يجري على الكلمة متروكة على ظاهرها ، ويكون معناها مقصوداً في نفسه ومراداً من غير تورية ولا تعريض (8). فهو المجاز ((الذي نتوصل إليه بحكم العقل وضرورة الفطرة وسلامة الذائقة .. فالألفاظ فيه لم تنقل عن أصلها اللغوي ... فليس في المفردات ما يدل على مجازية الاستعمال ، وإنما يستشعر ذلك حسياً وعقلياً

(1) م.ن : 249.

(2) مفتاح العلوم: 170.

(3) الصورة الفنية في المثل القرآني : 164.

(4) المثل السائر : 87 .

(5) ينظر : مجاز القرآن وخصائصه الفنية وبلاغته العربية ، د . محمد حسين علي الصغير ، دار الشؤون الثقافية ، بغداد ، ط1 ، 1994م ، 85.

(6) ينظر : أسرار البلاغة : 286 ، ومفتاح العلوم 172 ، والمجاز في البلاغة العربية ، د.مهدي صالح

السامرائي ، دار الدعوة ، سوريا ، ط1 ، 1974م : 111 ، وينظر : جواهر البلاغة : 254.

(7) ويسميه الجرجاني بالمجاز الحكمي أيضاً ينظر دلائل الإعجاز : 273.

(8) دلائل الإعجاز : 281.

معاً عن طريق التركيب في العبارة والإسناد في الجملة ((⁽¹⁾). وينبغي أن يتوفر في هذا المجاز ركنان أساسيان هما : القرينة الدالة على أن في الجملة مجازاً والعلاقة التي تسوغ ذلك المجاز في العقل والذوق . والقرينة قد تكون لفظية أو غير لفظية تدرك بالعقل⁽²⁾.

فمثال القرينة غير اللفظية ما جاء في قوله تعالى: ﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ ﴾⁽³⁾. ففي النص نلمس مجازاً عقلياً بقرينة معنوية أدركها العقل من سياق الإسناد في التركيب . فالله عز وجل لا يُغنيه شأن عن شأن، ولا يشغله أمر عن أمر، فهو دائم لا يلهو، وقائم لا يسهو ، وإنما أراد بهذا التفرغ هو القصد لحساب الثقلين ((أي سنقصد لحسابكم أيها الجن والإنس))⁽⁴⁾ على طريقة العرب في سنن الكلام عند التعبير في التهيوء والجد ، فهو قاصد إليهم بعد تركهم في فسحة الحياة ويحيط بهم الإمهال قبل الموت ، لا أنه كان مشغولاً عنهم ففرغ إليهم ، أو هو في كائنة وانتهى منها⁽⁵⁾.

وهذا - كما عبّر عنه سيد قطب - هول مرعب مزلزل ، فالله جل وعلا هو القوي القادر القهار الجبار سيفرغ لحساب هذين المخلوقين الضعيفين⁽⁶⁾ . وهو هول رسمه المجاز العقلي الذي ((أشاع روح الرهبة في الوعيد ، وانتهى بأجراس النعمة في المجازاة دون شغل أو عمل صارفين))⁽⁷⁾.

ومن المجاز العقلي ما جاء في قوله تعالى: ﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴾⁽⁸⁾.

والقرينة هنا لفظية فليس اليوم الذي يجعل الولدان شيباً وإنما هو ما في ذلك اليوم من أهوال ، فقد نسب الحدث إلى وقت حدوثه ، يقول الدكتور أحمد بدوي معللاً هذه النسبة: ((ولما كان يوم القيامة تملؤه أحداث مرعبة تملأ النفوس هولاً يتسبب عنها لشدها الشيب ، وكان هذا اليوم ظرفاً لتلك الأحداث ، صح أن يسند الشيب إليه))⁽⁹⁾ فتكون علاقة المجاز هنا زمانية .

ومن علاقات المجاز العلاقة المكانية وهي ما بُني للفاعل وأُسند إلى المكان مجازاً كما في قوله تعالى: ﴿ جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴾⁽¹⁰⁾.

فنحس من هذه الصورة الفنية حركة جريان المياه في جنات الخلود التي وعدها الله تعالى للذي يخشاه ويخافه ، والذي يجري هو الماء وليس النهر ، إذ إن النهر هو مكان جريان

(1) مجاز القرآن وخصائصه الفنية وبلاغته العربية : 113.

(2) ينظر : البلاغة والتطبيق 340.

(3) سورة الرحمن : 31.

(4) مجمع البيان : 260/9.

(5) ينظر : مجاز القرآن وخصائصه الفنية وبلاغته العربية : 126.

(6) ينظر : في ظلال القرآن : 7 / 123.

(7) مجاز القرآن وخصائصه الفنية وبلاغته العربية : 126.

(8) سورة المزمل : 17.

(9) من بلاغة القرآن : 223.

(10) سورة البينة : 8.

المياه ولكنه المجاز العقلي الذي أسند الفاعلية للجoadات فجعلها متحركة بعد سكون .

وفي ذلك ترغيب في خشية الله جل وعلا ؛ لأنّ المجاز صوّر جزاء هذه الخشية بصورة الجنات التي تجري من تحتها الأنهار وليس ماء الأنهار تعظيماً لهذا الجزاء وترغيباً في نيله .

ومن الإسناد إلى المكان مجازاً ما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ (1)

حيث وصف القرية بأنّها آمنة مطمئنة لا يزعجها خوف، والحقيقة إنّ الذي يوصف بالأمن والاطمئنان هم أهلها وسكانها . ولكن الأمن والاطمئنان في أهلها قد شاع حتى وصفت القرية بكل ما فيها بأنّها آمنة مطمئنة من الخوف .

فنلاحظ من ذلك جمالية التعبير المجازي وتوضيحه للمعنى ، ورسمه صورة الأمن والاطمئنان لهذه القرية بأبلغ الألفاظ و أوجزها .

وفي الآية مجاز فني آخر يزيد في توضيح المعنى قال تعالى: ﴿ .. يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ .. ﴾ (2).

والرزق ((ليست له حركة ولا إرادة في التنقل والقصد ، وإنّما الله تعالى هو الذي يسخر من يجلب الأرزاق إليها ، ويأتي بها - وهو الرزاق ذو القوة المتين - من كل مكان إلى هذه القرية تعبيراً عن تنعمها وعيشها الرغيد ، فكان الرزق دون عناء يقصدها سائراً عامداً متوافراً)) (3).

ولكن أهل هذه القرية لم يقابلوا هذه النعم بالشكر والإيمان بل بالكفران والجحود ((فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون)) فعوقبوا بسبب ذنوبهم ، وما الله بظلام للعبيد .

ومن علاقات المجاز العقلي علاقة السببية وهي فيما بني للفاعل وأسند إلى السبب كما في قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا... ﴾ (4)

أي فزادهم قول الناس إيماناً (5)، يعني تصديقاً ويقيناً في دينهم وقوة وجرأة واستعداداً . فالمجاز صوّر لنا الثبات على الدين وقوة العقيدة واللامبالاة بقول الناس وتخويفهم . ولو أسند زيادة الإيمان إلى الله لكان ذلك أمراً طبيعياً فالله عز وجل هو الذي يثبت الإيمان في نفوس المؤمنين لكنه أسنده إلى قول الناس لبيان ثباتهم على دينهم وصلابة عقيدتهم وإقامتهم على نصرته نبيهم ويدل على ذلك قولهم : ((حسبنا الله ونعم الوكيل)).

ومن إسناد الزيادة إلى السبب ما في قوله تعالى: ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ

(1) سورة النحل : 112.

(2) سورة النحل : 112.

(3) مجاز القرآن وخصائصه الفنية وبلاغته العربية : 97.

(4) سورة آل عمران : 173.

(5) ينظر : الجامع لإحكام القرآن : 4 / 280 .

خُشُّوعاً⁽¹⁾ .

فأسند زيادة الخشوع فيهم إلى السبب وهو القرآن وما فيه من المواعظ والمشهد في النص مشهد موح يلمس الوجدان ، مشهد الذين أوتوا العلم من قبل القرآن ، أي أعطوا علم التوراة من قبل نزول القرآن كعبد الله بن سلام وغيره فعلموا صفة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قبل مبعثه وقيل: إنهم أهل العلم من أهل الكتاب وغيرهم ، إذا يتلى عليهم القرآن يسجدون باكين إشفاقاً من التقصير في العبادة وشوقاً إلى الثواب وخوفاً من العقاب ((ويزيدهم خشوعاً)) أي يزيدهم القرآن وما فيه من المواعظ تواضعاً لله تعالى واستسلاماً لأمره وطاعته⁽²⁾.

فالمجاز صور ما يثيره القرآن في هذه القلوب المتفتحة لاستقبال فيضه التي تعرف بطبيعته وقيمه بسبب ما أوتيت من العلم⁽³⁾.

ومن صور المجاز العقلي ما جاء في سياق الآيات التي تحدثت عن كفار مكة وكفرهم بدعوة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) واستهزائهم به ، قال تعالى : ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ﴾⁽⁴⁾

والبطش واقع من قبل الله تعالى ، وهو تناول الشيء بصولة⁽⁵⁾. والبطش في الحقيقة يقع في اليد ذات الطول والقوة ، أما في النص المبارك فإنه لا يصدر عن يد ولا يخرج عن جارحة ؛ لأن الله سبحانه منزّه عن أن تكون له جوارح ((فهو بطش لا كالبطش المعتاد ، وانتقام لا كالانتقام المتعارف ... وقد أسند للبطشة الكبرى ليشمل جميع أصناف البطش ويستوعب أشد نماذجه وأقساها ، فهو كبير من كبير ، وليس مما اعتاده البشر ، ولا سمع به الناس ، ويكفي في الدلالة على ذلك نسبته إلى ذاته القدسية (إِنَّا مُنْتَقِمُونَ) لتأكيد صرامة هذا البطش ، وقوة هذه الإرادة ، دون استعمال الوسائل المعتادة في البطش البشري ، بل فوق تصور الإنسان))⁽⁶⁾.

ويكون هذا البطش في يوم القيامة فإن بطشه وعذابه تعالى أكبر العذاب قال تعالى : ﴿فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ﴾⁽⁷⁾.

فالصورة المجازية تهدف إلى إثارة الخوف والفرع في نفس كفار مكة كل من يُعرض عن دعوة ربه ولم يذعن للحق ، ليدفعه هذا الخوف إلى الإيمان بالله تعالى والتسليم له.

٣- المجاز اللغوي

هو ما أستخدم فهمه عن طريق اللغة ؛ لأن الكلمات فيه استعملت في غير ما وضع لها (8) لعلاقة بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي مع قرينة تدل على المعنى الجديد.

(1) سورة الإسراء : 109

(2) ينظر : مجمع البيان : 576/6.

(3) ينظر : في ظلال القرآن : 364/5.

(4) سورة الدخان : 16.

(5) المفردات : مادة بطش.

(6) مجاز القرآن وخصائصه الفنية وبلاغته العربية : 118.

(7) سورة الغاشية : 24.

(8) ينظر : دلالات الإعجاز 339 ، والإتيان 362 .

فإذا كانت العلاقة بين الحقيقي والمجازي علاقة المشابهة فالمجاز يسمى استعارة وإذا كانت العلاقة غير المشابهة فهو المجاز المرسل .

المجاز المرسل

هو ((ما كانت العلاقة بين ما استعمل فيه وما وضع له ملابسة غير التشبيه))⁽¹⁾ ويسمى هذا النوع من المجاز بالمرسل ؛ ((لخلوه من القيود وسلامته من الحدود فالإرسال لغة: الإطلاق، وأرسله بمعنى أطلقه))⁽²⁾. فإنه لم يتقيد بعلاقة واحدة بل له علاقات عديدة . ولهذا المجاز أثر بارز في رسم الصور الفنية ولاسيما في القرآن الكريم وفي آيات الخوف خصوصاً ؛ لأن ((المجاز المرسل هو وسيلة العربية في إضافة المعاني الجديدة، وهو وسيلة اللغة في الإضاءة والتنوير))⁽³⁾.

حيث ينتقل بالأذهان إلى آفاق جديدة متميزة بالابتكار والإبداع . ولننظر إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾⁽⁴⁾.

فهنا مجاز المرسل علاقته السببية ، فقد عبّر عن أكل أموال اليتامى ظلماً بأكل النار حيث إن ((الوصي في عمله هذا لا يأكل المال وإنما يأكل النار وفي هذا تعجيل القرآن لصور العذاب .. فأضمر سبباً وأظهر مسبباً في موضع السبب ليستحضر دفعة واحدة ، ويقرن بين العمل والجزاء على جهة لا ينفك أحدهما عن الآخر))⁽⁵⁾.

يا لها من صورة مفزعة رسمها القرآن الكريم عن أكلي أموال اليتامى ظلماً ، صورة النار في البطون وصورة السعير في نهاية المطاف فهي تنفّر وتخوف كل من كان في عهده يتيماً يرعاه ويكفله من أن يأخذ ماله ظلماً وعدواناً ، ولهذا التخويف أثره في النفوس يقول سيد قطب : ((لقد فعلت هذه النصوص بإيحاءاتها العنيفة العميقة فعلها في نفوس المسلمين .. فهزتها هزة عنيفة فألقت عنها رواسب الجاهلية وأشاعت فيها الخوف والتحرج والتقوى والحذر من المساس بأموال اليتامى التي كانوا يرون فيها النار التي حدثهم الله عنها))⁽⁶⁾.

ومنه ما جاء في قوله تعالى: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ..﴾⁽⁷⁾.

فالآية جاءت في سياق التمثيل لحال المنافقين في جهلهم وشدة حيرتهم وخوفهم ، فالمجاز هنا بعلاقته الكلية رسم صورة لحالهم تبعث على تأمل الخوف والرعب التي يعيشونها فهم يحاولون إدخال أصابعهم في آذانهم في حين

(1) الإيضاح : 233

(2) مجاز القرآن وخصائصها الفنية و بلاغته العربية : 139.

(3) م.ن : 141.

(4) سورة النساء : 10.

(5) البيان في ضوء أساليب القرآن ، د. عبد الفتاح لاشين ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، 1420هـ - 2000م

143:

(6) في ظلال القرآن : 260/2.

(7) سورة البقرة : 19.

أنها لا تستوعب غير الأنامل اتقاءً من الصواعق التي تنذر بالموت . وهذا تجسيد لحالتهم النفسية وما يقاسونه من خوف وذكر . ومنه التجوز بلفظ الماضي عن المستقبل كما في قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ ﴾ (1) . وقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزَعُوا فَلَا قُوَّةَ وَأُخْذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ (2) . وقوله تعالى: ﴿ أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (3) . فالأفعال (فزع)، (فزعوا)، (أخذوا) ، (أتى) أفعال ماضية استعملت للمستقبل . للفعل الماضي وقع مؤثر في النفوس وخاصة بعد عرضه بهذه الطريقة الفنية الرائعة في القرآن الكريم وهي استعماله بدلاً من المضارع ، وفي ذلك إشارة إلى أن الفعل قد تم وقد تحقق ما ذكر وأنزل منزلة الواقع ولا يخفى ما في ذلك من إيقاع الرهبة والخوف في النفوس .

ويكثر هذا الاستعمال ((في الأمور الهائلة المهددة المتوَعَد بها فيعدل فيه إلى لفظ الماضي تقريراً وتحقيقاً لوقوعه)) (4) . وكما في قوله تعالى: ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ * وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ * وَإِذَا الْعُشَارُ عُطِّلَتْ * وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ * وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ * وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ * وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴾ (5) . فالأفعال جاءت ماضية وهي تدل على ما سيقع في المستقبل ؛ لأنها من الحوادث التي لا ريب في وقوعها .

ومن المجاز المرسل ما في قوله تعالى: ﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ * عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ﴾ (6) . وعلاقة المجاز هنا (الجزئية) فقد ذكر الوجوه تجوزاً والمراد به أجساد هؤلاء بقرينة ((عاملة ناصبة)) .

فالعمل والنصب تؤدي ضريبتيه الأجساد بتمامها لا الوجوه وحدها (7) . وإنما خصص الوجوه بالذكر ؛ ((لأن الذل والخضوع يظهر عليها)) (8) . وهذه صورة من الذل والهوان والخوف يرسمها المجاز المرسل لحال هؤلاء في يوم القيامة .

وهناك صورة إبداعية أخرى يكونها التجوز بإطلاق اللفظ وإرادة ضده قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (9) .

(1) سورة النمل: 87.

(2) سورة سبأ : 51.

(3) سورة النحل : 1.

(4) البرهان في علوم القرآن : 372/3.

(5) سورة التكوير : 1-9.

(6) سورة الغاشية : 2-3.

(7) ينظر : مجاز القرآن وخصائصه الفنية وبلاغته العربية : 150.

(8) مجمع البيان : 610/10.

(9) سورة آل عمران : 21.

والبشارة تكون في مواطن الخير والكرامة والسرور وليس العذاب من مواطن الخير حتى يُبشّر به هؤلاء وإنّما يُتّوعد ويُنذر به بيد أنّ القرآن استعمل لفظ (بشرهم) تهكماً واستهزاءً وسخرية⁽¹⁾ أو للنكاية والتشفي وكلاهما يأتيان هنا لتأكيد وقوع العذاب⁽²⁾ ففي النص صورة مجازية مؤكدة للعذاب تثير الخوف والرغبة في نفوس الكافرين والطغاة والساعين في الأرض بالفساد بقتل النفوس المؤمنة من الأنبياء وغيرهم ، وكذلك تخوّف كل من ناصرهم وأيدهم ورضي بأفعالهم بأنّ له مثل عذابهم .

الاستعارة

الاستعارة لغةً من قولهم: ((تعوّر واستعار طلب العارية ، واستعارة الشيء واستعاره منه طلبه منه أن يعيره إياه))⁽³⁾ . أما في الاصطلاح فهي ((أن تريد تشبيه الشيء بالشيء فتدع أن تفصح بالتشبيه وتظهره وتجيء إلى اسم المشبه به فتعيّره المشبه وتجرّيه عليه))⁽⁴⁾ . فهي مجاز علاقته المشابهة وقيمة هذه العلاقة تتحدد من خلال ما تنتج من صور جديدة خارج إطار اللغة قال الجرجاني: ((إنّها تُبرز هذا البيان أبداً في صورة مستجدة تزيد نبلاً وتوجب له بعد الفضل فضلاً .. فإنّك لترى بها الجماد حياً ناطقاً ، والأعجم فصيحاً ، والأجسام الخرس مبيّنة ، والمعاني الخفية بادية جليلة .. إن شئت أرتك المعاني اللطيفة التي هي من خبايا العقل كأنها قد جُسمت حتى رأتها العيون وإن شئت لطفّت الأوصاف الجسمانية حتى تعود روحانية لا تنالها إلا الظنون))⁽⁵⁾ .

(1) ينظر : الطراز: 162/3.

(2) ينظر : مجاز القرآن وخصائصه الفنية وبلاغته العربية: 147.

(3) لسان العرب : مادة عور .

(4) دلائل الإعجاز : 105-106.

(5) أسرار البلاغة : 39-40.

فهي تشارك في رسم صورٍ فنية تنبض بالحركة والحيوية من خلال تجسيم الحدث وتشخيصه .

على أنّ جمالية هذه الصور لا تتمظهر بمدى قدرتها على الانتقال بذهن المتلقي إلى آفاق جديدة برسم مشاهد حية ومتناسقة موحية بالمعنى فحسب، وإنما بقدرتها على تعميق الوحي لديه بالحدث المعروض .

ولنتأمل الصور الاستعارية في قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (1) .

إذ إنّ لازم الخشوع والتصدع من الخشية ، هو الإدراك والمعرفة والسماع، والجبل لا يعي ولا يسمع (2) .

وهذا على سبيل المجاز قال الشريف الرضي: ((والمعنى أنّ الجبل لو كان مما يعي القرآن ويعرف البيان لخشع في سماعه ولتصدع من عظم شأنه ، على غلظ إجرامه ، وخشونة أكنافه، فالإنسان أحق بذلك منه ، إذا كان واعياً لقوارعه وعالماً بصواعده)) (3) .

فالصورة الاستعارية أشاعت الحس في هذا الكائن الصامت - وهو الجبل - فلو أنزل عليه القرآن الكريم لبدأ يسمع ويتدبر فيما أنزل إليه فيخشع لله جل وعلا ويتصدع كيانه من خشيته تعظيماً له سبحانه وتعالى ، وهذا على سبيل الافتراض بالصورة صُدّرت بـ (لو) وهي أداة شرطية يتوقف تحقق جزائها على تحقق الشرط ، وهذا ما دفع الدكتور محمود البستاني إلى أن يسميها بـ ((الصورة الافتراضية)) فيرى أنّ النص قد استعمل هذه الأداة ليحدث علاقة خاصة بين النزول والجبل وهي افتراض نزول القرآن على جبل، وليس نزوله فعلاً ، والمهم أنّ المسوغ الفني لمثل هذا التركيب الصوري هو أن يوضح أهمية القرآن الكريم وما ينبغي أن يتركه من تأثير على البشر ، بحيث إنّ الجبل وهو لا يحمل الوعي والإدراك البشري سوف يخشع فعلاً لو نُزل القرآن عليه فلماذا إذن لا يخشع الإنسان؟ (4) .

فالصورة الفنية تمنح التأمل وإعادة النظر بما توحى من المعنى ، فهي تحت الإنسان على الاستماع الخاشع لآيات القرآن الكريم والتدبر فيها والعمل بها لينال بذلك رضوان الله تعالى وخير الدنيا والآخرة .

(1) سورة الحشر : 21.

(2) ينظر : الصورة الفنية في المثل القرآني : 171.

(3) تلخيص البيان في مجازات القرآن، تح : محمد عبد الغني حسن ، دار الأضواء، بيروت ، ط2، 1406هـ.

1986م : 330.

(4) ينظر : أدب الشريعة الإسلامية : 94 .

أقسام الاستعارة

مقدمة- الاستعارة المفردة

هي ((أن تذكر أحد طرفي التشبيه وتريد به الطرف الآخر مدعياً دخول المشبه في جنس المشبه به دالاً على ذلك بإثباتك للمشبه ما يخص المشبه به))⁽¹⁾. وهذا التعريف جامع لنوعين من الاستعارة التصريحية والمكنية ، وهما العمدة في دراسة الاستعارة سواء في التعبير القرآني أم في غيره من فنون القول ، وتقسم على قسمين:

أ - الاستعارة التصريحية

هي التي يُذكر فيها لفظ المشبه به ⁽²⁾

كاستعارة الشهيق لصوت نار جهنم ، والغيط لشدة غليانها؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبُئْسَ الْمَصِيرُ * إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ * تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾⁽³⁾.

نحن أمام صورتين مخيفتين رسمهما النص القرآني لنار جهنم . الصورة الاستعارية الأولى هي استعارة الشهيق لصوت النار والشهيق : ((هو الصوت الفظيع الذي يشبه صوت القدر عند فورانها وغليانها فيعظم بسماع ذلك عذابهم لما يرد على قلوبهم من هوله))⁽⁴⁾.

وفي اللسان ((الشهيق : أقبح الأصوات ... وشهق : ردّد البكاء في صدره ... وشهيق الحمار : آخر صوته ، وزفيره أوله ، وقيل : شهيق الحمار نهيقه ، ويقال: الشهيق ردّ النفس والزفير إخراج))⁽⁵⁾.

والمعنى الجامع لهذه المعاني هو الفظاعة والقبح وقد استعير لفظ الشهيق في هذه الصورة ليؤدي هذا المعنى.

ولهذه الصورة دلالاتها الفنية الموحية والمؤثرة فالشهيق هو عملية إرسال الهواء إلى الداخل مقروناً بالصوت وحين ننقل ذلك المعنى إلى جهنم نكون أمام استعارة فنية موحية تتمثل في إدخال الكافرين إلى جهنم أي أنّ النص القرآني انتخب الشهيق دون الزفير؛ لأنّ جهنم تستقبل الكافر وتدخله إلى جوفها ولا تزفره إلى الخارج ⁽⁶⁾.

أما الفوران فيرمز إلى شدة الحرارة التي تقترب بالصوت ، وفي ذلك دلالة على غضب جهنم على هؤلاء الكفار الذين سيُلْقَوْنَ فيها .

أما الصورة الاستعارية الثانية فهي تصف جهنم أيضاً ؛ ولكن ليس صوتها بل شدة غليانها .

فقد عبّر القرآن بالغيط عن شدة غليان نار جهنم ، وقد ((ذكر الغيط ؛ لأنّ مقدار شدته على النفس مدرك محسوس ، ولأنّ الانتقام منها يقع على قدر ففيه بيان عجيب وزجر شديد لا

(1) مفتاح العلوم : 174.

(2) ينظر : جواهر البلاغة : 265.

(3) سورة الملك : 6- 8 .

(4) مجمع البيان : 410/10 .

(5) لسان العرب : مادة شهق .

(6) ينظر : دراسات فنية في صور القرآن : 657 .

تقوم مقامه الحقيقة البتة ((⁽¹⁾). وهذا التشخيص لنار جهنم تأكيد لشدة غليانها حيث خلع النص القرآني عليها أشد الحالات الانفعالية عند الإنسان وهي تميزه أو تقطعه من الغضب . ومن اللافت للنظر أن النص القرآني قد استعمل الفعل (تكاد) مع (التميز من الغيظ) ولم يستعمله مع (الشهيق) أي لم يقل مثلاً : (تكاد تشهيق) أو (تكاد تسمع لها شهيقاً) باعتبار أن الشهيق عملية مادية تتواءم مع جهنم وما يحدث فيها في حين أن (التميز من الغيظ) أو التقطع من الغضب سمة نفسية ، أي أن الكائنات يمكن أن تنفعل كالإنسان ، بيد أن الفارق بينهما وبين الإنسان يبقى قائماً فمثل هذه الاستعارات تقريبية وليست محضة⁽²⁾. وهكذا فقد تضافرت الاستعارتان لتكون صورة رهيبية عن نار جهنم فتنخلع لها القلوب من الخوف والفرع وهي ((صورة مخلوق ضخم بطاش جبار وعابس الوجه يغلي صدره من قوة الغيظ وشدة الحقد وكل ذلك يبعث في النفوس من التأثير ما لا يبعثه التعبير المجرد))⁽³⁾.

ومن الاستعارة التصريحية ما جاء في قوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ ﴾⁽⁴⁾.

والآية جاءت في سياق الحديث عن منازل اليهود ، واستعمال القذف هنا أبلغ وأنسب من غيره من الألفاظ ؛ ((لأن في القذف دليلاً على القهر))⁽⁵⁾. وهذا يتناسب مع قسوة قلوب هؤلاء اليهود .

وقسوة قلوبهم نابعة من عدم إيمانهم بالنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وهم أصحاب كتاب فيه ما يدل على صدق دعوة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) إلا أنهم لم يقرؤا ولم يعترفوا بالنبي ودعوته .

واستعارة المحسوس- وهو القذف- للأمر المعنوي- وهو الرعب -من التجسيم ، ولكن هنا يجتمع معه التخيل ؛ ليُخِيل حركة لهذا الجسم فكأن الرعب قذيفة تسقط على هذه القلوب المتحجرة القاسية فتزلزلها فلا تبقى فيها ذرة من ثبات وقوة. ب - الاستعارة المكنية

وهي التي يُذكر فيها المشبه ويحذف المشبه به مع الاكتفاء بذكر شيء من لوازمه دليلاً عليه⁽⁶⁾.

منها ما جاء في قوله تعالى: ﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يُنْظَرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغَسِّى مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَفُوكُمْ بِالسِّنَةِ جَدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى

(1) كتاب الصناعتين : 272 .

(2) ينظر : دراسات فنية في صور القرآن: 658.

(3) البيان في ضوء أساليب القرآن : 195.

(4) سورة الحشر : 2.

(5) النكت في إعجاز القرآن: 82 .

(6) ينظر : فنون بلاغية البيان والبدیع ، د. أحمد مطلوب ، دار البحوث العلمية، ط1395، 1هـ-1975م:

الْخَيْرَ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ۝ (1).

نلمس هنا لمسة فنية تشخيصية ، فقد خلعت الاستعارة الحياة على هذا الانفعال الوجداني وهو الخوف ، فصورته وكأنه كائن حي يتحرك يجيء ويذهب ، وما في ذلك من وقع على نفوس المنافقين فعند مجيئه تراهم ((تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت)) وعند ذهابه وإحلال الأمن يؤذون المسلمين ((بالسنة حداد أشحة على الخير)) فالنص القرآني عبّر عن خوف المنافقين من القتل بتصوير فني موح .

ومنها ما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَا حَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ۝ (2).

فالاستعارة خلعت على الغضب وهو حالة نفسية صفة بشرية ، فصورته وكأنه إنسان يمارس عملية كلام وصمت .

ولهذه الاستعارة دلالة مهمة وهي ((أن نتبين هوية ودرجة الغضب عند موسى عليه السلام فمادام الغضب من أجل الله تعالى حينئذ يكتسب أهمية ضخمة)) (3).

فموسى عليه السلام قد غضب على قومه بعبادتهم العجل وترك عبادة الله عز وجل.

وعندما تقترن بالغضب حقائق كالصبر وترك المعاتبة عندها نتبين أهمية هذه الاستعارة التي استعارت صفة السكوت بدلاً من التعبير عن ذلك بصفة السكون.

ف ((السكوت في هذا الموضع أحسن من السكون لتضمنه معنى سكوته عن المعاتبة مع سكون غضبه)) (4).

ثم إن الغضب حينما (يسكت) بعد أن كان متكلماً يعني أن الغضب قد حقق مهمته من خلال الكلام ، ثم بدأ موسى (عليه السلام) وظيفة جديدة وهي أخذ الألواح وتوصيلها للناس ((وفي نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون)) وهو أمرٌ يتطلب كلاماً جديداً ، فكان لا مناص من (السكوت) عن الكلام الأول وهو الغضب (5).

ومن الاستعارة المكنية ما ورد في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيرًا ۝ (6) فقد أضفت هذه الاستعارة صفة بشرية وهي العبوس على يوم القيامة فأفادت تشخيص ذلك اليوم ، والمراد بعبوسه ((ظهوره على المجرمين بكمال شدته)) (7). والقمطرير يعني الشديد (8).

الأمر الذي يدل على عظم العقاب الإلهي وشدته فيثير ذلك الخوف والرعب لدى المتلقي من ذلك اليوم ، فيدعوه هذا الخوف إلى أن يقي نفسه شر ذلك اليوم ، بأن يقصر عمله لوجه الله تعالى إخلاصاً في العبودية .

والخائفون الذين جاء النص حكاية عنهم كانوا مصداق لذلك ، فهم لم يكتفوا بنسبة المخافة

(1) سورة الأحزاب : 19.

(2) سورة الأعراف : 154.

(3) دراسات فنية في صور القرآن : 193-194.

(4) مجمع البيان : 4 / 598.

(5) ينظر : دراسات فنية في صور القرآن: 194.

(6) سورة الإنسان : 10.

(7) الميزان في تفسير القرآن : 20 / 128.

(8) ينظر: مفردات ألفاظ القرآن : مادة قمطر .

إلى اليوم بل نسبوها إلى ربهم فقالوا ((نخاف من ربنا ..)) ذلك ؛ لأنهم ((لم يريدوا إلا وجه ربهم فهم لا يخافون غيره كما لا يرجون غيره وإنما يخافون ويرجون ربهم ، فلا يخافون يوم القيامة إلا لأنه من ربهم يحاسب فيه عباده على أعمالهم فيجزئهم بها)) (1).

٣٠٠- الاستعارة المركبة أو التمثيلية

وهي التي تجري في التركيب وليس في اللفظ المفرد كما هو الحال في الاستعارة المفردة والمجاز المرسل .

ويسمى القزويني بـ (المجاز المركب) ويعرفه بأنه ((اللفظ المركب المستعمل فيما شبه بمعناه الأصلي تشبيه التمثيل للمبالغة في التشبيه أي تشبيه إحدى صورتين منتزعتين من أمرين أو أمور أخرى ثم تدخل المشبهة في جنس المشبه بها مبالغة في التشبيه فتذكر بلفظها من غير تغيير بوجه من الوجوه)) (2).

فالاستعارة التمثيلية إذن تشبيه صورة بصورة لما بينهما من صلة من حيث المعنى ثم تحذف الصورة الأولى وهي المشبه ويبقى المشبه به .

كما في قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَرَوْنها تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ (3) .

فالقيامة وما فيها من أهوال ومخاوف وشدائد تُنسى الإنسان أعز ما عنده ويود لو ينجو منها بمفرده ، فالنص القرآني شبه حال الإنسان هذه بهيأة المرضعة التي تذهل عن رضيعها وذات الحمل التي تضع حملها ثم استعير هيئة المشبه به للمشبه (4) على سبيل الاستعارة التمثيلية .

وفي آيات الخوف توجد استعارات مركبة ولكنها من نوع آخر إذ تتكون من استعارتين تعتمد إحداها على الأخرى .

كما في قوله تعالى: ﴿ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴾ (5) .

هذه الصورة الاستعارية خلعت على اللغة دلالات جديدة ذات طرافة .

يقال : ((صب الماء إراقته من أعلى)) (6) .

فتعطي في اللغة معنى الجريان غير المنقطع ، والنص خلع هذه الصفة على السوط المستعار للعذاب ، فنكون أمام استعارة مركبة متألفة من استعارتين ، استعارة الصب للسوط ، واستعارة السوط للعذاب .

بيد أن الصورة التي تتميز بالجمالية والطفافة هي استعارة الصب لسوط العذاب وللمتلقي ((أن يتبين مدى جمالية الصورة حينما يستحضر في ذهنه أن السوط ينصب وليس يقع أو يهوي ، حيث إن عملية الصب تتم ليس من خلال التتابع الذي يفصل جزءاً من آخر كما لو

(1) الميزان في تفسير القرآن : 128/20.

(2) الإيضاح : 260.

(3) سورة الحج : 2.

(4) ينظر : البيان في ضوء أساليب القرآن : 187.

(5) سورة الفجر : 13.

(6) المفردات : مادة صبب .

كان حداً شرعياً أو تعزيزاً حيث يفصل كل عدد من الآخر ، بل تتم عملية الصب من خلال الجريان غير المنقطع ، الجريان السريع الكاسح ((⁽¹⁾ . فتجعله يحس بمدى ضخامة هذا العذاب الدائم غير المنقطع والمؤلم لهذه الأمم المنحرفة الطاغية والساعية في الأرض بالفساد .

ففي استعارة الصب لسوط العذاب إيماء بالشدة والقوة معاً . وهذا ما يثير الخوف والرغبة في نفس المتلقي ويدعوه إلى أن لا يقع في ما وقعت به تلك الأمم الغابرة من الطغيان والفساد في الأرض وتكذيب الرسل (عليهم السلام) ف ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾ ((⁽²⁾ .

ومن هذا النوع صورة استعارية أخرى تميزت بالإبداع الفني والإمتاع لجمالي فضلاً عن تأثيرها البالغ في النفوس وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ ((⁽³⁾ .

فالنص خلع على ظاهرتي الجوع والخوف طابع اللباس فجعل لهما لباساً وقد علّق الشريف الرضي على هذه الاستعارة بقوله : ((المراد بذلك – والله اعلم – وصف تلك الحال بالشمول لهم ، والاشتغال عليهم ، كاشتغال الملابس على الجلود ؛ لأنّ ما يظهر منهم من مضيض الجوع وأليم الخوف ، من سوء الأحوال ، وشحوب الألوان وضالة الأجسام كاللباس الشامل لهم ، والظاهر عليهم))(⁽⁴⁾ .

وهذا من التجسيم الفني ، فآثر الجوع والخوف قد اشتمل عليهم حتى أصبح كاللباس لهم. ثم خلع النص على هذه الاستعارة صفة استعارية أخرى وهي التذوق فجعلت هذه الاستعارة اللباس يتذوق كما يتذوق الطعام وهذا ما يضيف صفة الطرافة ، فالنص قد جعل للباس صفة تبادلية ممتعة هي (تذوقه) وليس الارتداء ولا شك أنّ أحد أنماط الصورة الفنية هو اعتماده على تبادل الحواس ، كما لو خلعنا على الألوان - وهي مرتبطة بحاسة البصر - صفة الرائحة ، وذلك نظراً للحقيقة القائلة بأنّ حواس الإنسان تتبادل التأثيرات فيما بينها ولكن هذا التبادل يخضع لحقيقة هي انتسابها جميعاً لسمات بشرية تتصل باستجابة الإنسان حيال ما يواجهه من المثيرات والمنبهات ، وعملية التبادل هنا تمت بين ما هو ملبوس وما هو مطعوم وهذا أحد أشكال الطرافة المذهلة فالمطعوم والملبوس ونحو ذلك تظل ظواهر متجانسة فيما بينها (⁽⁵⁾ .

فهم قد وجدوا مرارة هذا اللباس – لباس الجوع والخوف – ((كما يجد الذائق مرارة الشيء المر ، ووخامة الطعم الكريه))(⁽⁶⁾ .

وفي ذلك ((تعبير دقيق عن شدة مماسة الجوع والخوف للإنسان حتى كأنه قد تلبس فيه

(1) دراسات فنية في صور القرآن : 691.

(2) سورة الفجر : 14.

(3) سورة النحل : 112.

(4) تلخيص البيان في مجازات القرآن : 196.

(5) ينظر: دراسات فنية في صور القرآن : 307 .

(6) تلخيص البيان في مجازات القرآن : 196.

لبوساً ومسّه مساً فعلياً لاذعاً أكثر مما يمس اللباس الجلد ((⁽¹⁾). وهذا العقاب الإلهي بسبب ما قدّموا لأنفسهم من الكفران والحدود بنعم الله جل وعلا فهم الذين ظلموا أنفسهم وما الله بظلام للعبيد . وهكذا فالاستعارة فن قولي يكشف عن إيحائية جديدة في التعبير لا تتأتى بالاستعمال الحقيقي ، وهي أسلوب من أساليب التصوير الرائعة ، حيث نجد فيها روعة الخيال وألفاظاً تحمل إيحائية ((تجعل القارئ يحس بالمعنى أكمل إحساس وأوفاه ، وتصوّر المنظر للعين وتثقل الصوت للأذن وتجعل الأمر المعنوي ملموساً محسناً))⁽²⁾. إذن فالمجاز له قيمة فنية رائعة في آيات الخوف فهو يقوم بتوضيح المعنى المراد مع الإيجاز ، أي أنه يعتمد على الاختزال في التركيب مع تحقيق التكثيف الدلالي . والمجاز بنوعيه (العقلي واللغوي) لون من ألوان التصوير يتميز بجماله وعذوبته في التعبير ، إذ يقوم برسم صور فنية نابضة بالحركة ويجسم المعنويات أو يخلع عليها الحياة فتكتسي حُللاً أدمية . وذلك مما يطبع هذه الصور بطابع الإبداع الفني والإمتاع الجمالي ، فتؤثر تأثيرها الحساس في المتلقي فتعمق الوعي لديه من خلال إثارة الخوف عنده من حدث ما أو إنها تصور له حالة خوف معينة .

المبحث الثالث الكناية

الكناية في اللغة تعني أن تتكلم بشيء وتريد غيره ⁽³⁾. و في الاصطلاح هي ((أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود فيومئ به إليه ويجعله دليلاً عليه ، مثال ذلك قولهم : ((هو طويل النجاد)) يريدون طويل القامة ، ((وكثير رمد القدر)) يعنون كثير القرى ، وفي المرأة ((نؤوم الضحى)) والمراد أنها مترفة مخدومة لها من يكفيها أمرها . فقد أرادوا في هذا كله كما ترى معنى ثم لم يذكروه بلفظه الخاص به ولكنهم توصلوا إليه بذكر معنى آخر من شأنه أن يردفه في الوجود . وأن يكون إذا كان . أفلا ترى أن القامة إذا طالت طال النجاد ، وإذا كثر القرى كثر رمد القدر ؟ وإذا كانت المرأة مترفة لها من يكفيها ردف ذلك أن تنام إلى الضحى ؟))⁽⁴⁾. وكأن الجرجاني يريد بالكناية المعنى الثانوي الذي يستفاد من المعنى الأول للفظ لا اللفظ نفسه وهذا ما يسمى ((معنى المعنى)) . والكناية من البراعة والبلاغة عُدّت أبلغ من التصريح فعندما تكني عن المعنى ليس ذلك أنك تزيد في ذاته ((بل المعنى أنك زدت في إثباته فجعلته أبلغ وأشد . فليست المزية في قولهم : جُم الرمد أنه دلّ على قرى أكثر ، بل أنك أثبت له القرى الكثير من

(1) الصورة الفنية في المثل القرآني : 221 .

(2) من بلاغة القرآن : 217 .

(3) ينظر : لسان العرب : مادة كني .

(4) دلائل الإعجاز : 105 .

وجه وهو أبلغ ، وأوجبته إيجاباً هو أشدّ ، وادّعيته دعوى أنت بها أنطق ، وبصحتها أوثق⁽¹⁾.

واختلف في الكناية حقيقة هي أم مجاز ؟

ذكر العلوي صاحب الطراز أنّ أكثر علماء البيان عدّوا الكناية من أنواع المجاز وأنكر على الرازي ما ذهب إليه من أنّها ليست مجازاً وهي مجاز⁽²⁾. وقد جاء رأي الرازي صريحاً في نهاية الإيجاز وذلك عندما قال : ((الكناية ليست من المجاز ، وبيانه أنّ الكناية عبارة عن أن تذكر لفظة وتفيد بمعناها معنى ثانياً هو المقصود))⁽³⁾.

ومن البلاغيين من يرى أنّها بين الحقيقة والمجاز كالقزويني الذي عرّف الكناية قائلاً ((الكناية لفظ أريد به لازم معناه مع جواز إرادة معناه))⁽⁴⁾. فهي ليست حقيقة ؛ لأنّ اللفظ لم يرد منه المعنى الحقيقي بل أريد لازمه وليست مجازاً ؛ لأنّ المجاز لا بد له من قرينة مانعة من إرادة المعنى الحقيقي .

فهي كما عبر عنها أحد الباحثين :- ((بنية محايدة بين الحقيقة والمجاز))⁽⁵⁾ وليست كل كناية يجوز فيها إرادة المعنى الحقيقي ، فقد يمتنع لخصوص المادة ، أو لأنّه غير متحقق في الواقع كما في قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾⁽⁶⁾. فالاستواء كناية عن السيطرة ، فالمعنى الحقيقي هنا يمتنع إذ يستحيل أن يُنسب إلى الله تعالى الاستواء بمعناه الحقيقي وهو الجلوس⁽⁷⁾.

والكناية مظهر من مظاهر البلاغة ، وأسلوب من أساليب التصوير البيانيّة ، وفن من فنون القول لما تميزت بها من جمالية أخاذة ، فهي ((ترك اللفظ إلى ما هو أجمل منه))⁽⁸⁾. وإيجاز واختصار في الألفاظ مع زخم دلالي .

وكذلك البعد الإيحائي الذي تميزت به الكناية ، والتعبير الإيحائي أعمق تأثيراً في النفوس وأشدّ تعلقاً بها من التعبير التقريري المباشر ؛ لأنّه يثير الذهن ويدفعه إلى التفكير والتأمل والتدبر فيحصل بذلك على المتعة الفنية التي يظل أثرها باقياً في النفوس . والكناية لا تهدف إلى التأثير في المتلقي فحسب وإنّما تهدف إلى إقناعه بالحدث المعروض وذلك ما نجده واضحاً في الكناية القرآنية .

وقد تميزت الصور الكنائية في آيات الخوف بالإبداع الجمالي والتأثير والإقناع والإيجاز .

فهي مثلاً عندما تعبّر عن الأمور المعنوية في صور حسية عن طريق التمثيل أو التجسيم

(1) م . ن : 108

(2) ينظر : الطراز : 376/1.

(3) نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز : 161-162.

(4) الإيضاح : 273.

(5) البلاغة العربية قراءة أخرى ، د. محمد عبد المطلب ، الشركة المصرية العالمية للنشر ، القاهرة ، ط 1 ،

1997م : 186.

(6) سورة طه : 5 .

(7) ينظر : البيان في ضوء أساليب القرآن : 266.

(8) البرهان في علوم القرآن : 302/2.

وغيره تؤثر تأثيراً كبيراً في النفوس ؛ لأنّ النفوس أكثر تأثراً بالمحسوسات منها في المعنويات فيدفعهم ذلك في الكثير من الأحيان إلى الاقتناع بالفكرة التي عرضها النص . ولنتأمل في قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بََعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ .. ﴾ (1).

فقد عدل التعبير عن ذكر ما يتصل بالاغتياب صراحة ، وكثّر عنه بأكل لحم الأخ الميت ، وفي ذلك صورة تمثيلية كنائية والتمثيل هنا تشبيهه على سبيل الكناية (2) وهي صورة تدعو إلى التأمل والخوف .

صورة مقززة تشمئز منها النفوس وتكرب منها القلوب ؛ ((لأنّ الاغتياب إنّما هو ذكر مثالب الناس وتمزيق أعراضهم وتمزيق العرض مماثل لأكل الإنسان لحم من يغتابه ؛ لأنّ أكل اللحم فيه تمزيق لا محالة ، وأما قوله : (لحم أخيه) فلما في الاغتياب من الكراهة ؛ لأنّ العقل والشرع معاً قد أجمعا على استكراهه ، وأمرنا بتركه والبعد عنه ، ولما كان كذلك جعل بمنزلة لحم الأخ في كراهته وأما قوله : (ميتاً) ، فلأجل أنّ المغتاب لا يشعر بغيبته ولا يحس ، وأما جعله ما هو الغاية من الكراهة موصولاً بالمحبة ، فلما جلبت عليه النفوس من الميل إلى الغيبة والشهوة لها)) (3).

فالقرآن نهى عن الاغتياب بتلك الصورة الكنائية المؤثرة ، التي صوّرت أروع تصوير ف ((كأنها برهان مادي يقنع به)) (4) فتتهذب النفوس بذلك عن هذه الآفة وترتفع إلى مستوى المسؤولية .

أقسام الكناية :

قسم البلاغيون الكناية على ثلاثة أقسام : (5)

كناية عن الموصوف ، كناية عن الصفة ، و كناية النسبة .

أولاً – الكناية عن الموصوف

وهي التي يُطلب بها الموصوف نفسه أو تلك التي تختص بالمكنى عنه .
منها ما جاء في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحَقِّقَ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴾ (6).
وردت الآية في سياق ملاقة العير والنفير فاستشار النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أصحابه من المهاجرين والأنصار فوافقوه على القتال النفير وكره بعضهم ذلك لشدة القتال عليهم فقالوا : هلا قلت لنا لنستعد ونتأهب . (7)

(1) سورة الحجرات : 12.

(2) ويعني أن تراد الإشارة إلى معنى فتوضع ألفاظ تدل على معنى آخر ، وتكون تلك الألفاظ وذلك المعنى مثلاً للمعنى الذي قصدت الإشارة إليه والعبارة عنه كقولنا : فلان نقي الثوب أي منزّه عن العيوب ينظر: علم البيان : 190.

(3) علم البيان : 190.

(4) أساليب البيان في القرآن : 746.

(5) ينظر : مفتاح العلوم : 190 ، والإيضاح : 274.

(6) سورة الأنفال : 7 .

(7) ينظر : الكشف : 404.

فالسباق الكنائي سياق الخوف من القتال ، فهم يودون أن تكون لهم العير ولا يريدون ذات الشوكة خوفاً منها وذات الشوكة ((كناية عن الحرب لما في الحرب من الشدة))⁽¹⁾

ثانياً – الكناية عن الصفة

وهي التي يُطلب بها الصفة نفسها ، والمراد بالصفة – هنا- الصفة المعنوية ، كالعفة والشجاعة والجود لا الصفة النحوية .⁽²⁾

كما في قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً ﴾⁽³⁾.

وعض اليدين كناية عن الندم والحسرة .

قال الزمخشري : ((عضّ اليدين والأنامل والسقوط في اليد وأكل البنان وحرق الأسنان والأرم وقرعها كنايةات عن الغيظ والحسرة))⁽⁴⁾.

ففي النص تصويرٌ لحال هذا الظالم الخائف ، والفاقد للشعور بالثقة بالنفس، والذاهل الذي يَعَضُّ على يديه حسرةً على ما فاتته من التوبة والانصياع لأوامر الله ورسوله والانتهاز عما نهوا عنه .

وتصوير الظالم بهذا المشهد المخيف له وقع مؤثر في نفوس الناس ولاسيما الكافرين منهم والضالين على سبيل الهدى .

ومنها ما جاء في قوله تعالى: ﴿ خُشِعَا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ * مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾⁽⁵⁾.

خشعاً أبصارهم كناية عن الذلة التي تطبع وجوه هؤلاء المكذبين بتلك الساعة ؛ لأنّ ذلة الدليل وعزة العزيز تظهران في عيونهما⁽⁶⁾ وخشوع البصر يدل على الذلة والهوان والخوف .⁽⁷⁾

فمشهد انبعاثهم من القبور خاشعة أبصارهم وانتشارهم كالجراد المنتشر وما يصاحب ذلك من الذهول والدهشة والخوف مسرعين إلى الداعي مشهد رهيب وخاتمته تكمل صورته حيث وصف اليوم الذي يحدث فيه ذلك بـ ((يوم عسر)) أي صعبٌ شديد وبذلك يتحقق ((عنصر الإثارة الفنية عند المتلقي، بحيث ينقله إلى التجربة التي يحياها الذهن في تجسيد الهول المصاحب لعملية الانبعاث، وهو (هول) يستهدفه النص، بغية نقلنا إلى صعيد الممارسة العبادية التي أوكلتها السماء إلى آدميين، ومحاولة تعديل سلوكنا..))⁽⁸⁾

ثالثاً – كناية النسبة

(1) مجمع البيان : 645/4.

(2) ينظر : أصول البيان العربي : 148.

(3) سورة الفرقان : 27.

(4) الكشف : 744.

(5) سورة القمر : 7-8.

(6) ينظر : الكشف : 1065.

(7) التفسير البياني : 107/1.

(8) التفسير البنائي للقرآن الكريم ، د.محمود البستاني، مؤسسة الطبع في الإستانة الرضوية، مشهد،

ط1424، 407/4هـ.

هي الكناية المطلوب بها تخصيص الصفة أو نسبة أمر إلى أمر أو نفيه عنه⁽¹⁾.
منها ما جاء في قوله تعالى: ﴿ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤَصَّدَةٌ ﴾⁽²⁾.
أي مطبقة أبوابها كناية عن جسمهم المخلد فيها وسد سبل الخلاص منها فهي كناية عن نسبة⁽³⁾.
وهذا ما يثير الخوف والفرع في قلوب الكافرين بآيات الله تعالى والمكذابين لأنبيائه (عليهم السلام) بأنهم سيلقون في نار جهنم العميقة والتي لا يعرف لها قرار فتطبق أبوابها عليهم فلا يعرفون الخلاص منها .
فالكناية وحرف الجر (عليهم) قد صوّرا المشهد أروع تصوير وأفخمه .
ومن أقسام الكناية في آيات الخوف التي تفهم بحسب السياق والوسائط التي توصل القارئ إليها ما يأتي :

أ - التعريض

هو في اللغة خلاف التصريح⁽⁴⁾.
واصطلاحاً يعني أن يطلق الكلام ويشار به إلى معنى آخر يفهم من السياق أو من طبيعة المقام نحو قولنا للمؤذي : (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده) تعريضاً بنفي صفة الإسلام عن المؤذي⁽⁵⁾.
وهناك فروق بين الكناية والتعريض منها :
أن الكناية تقع في المفرد والمركب بينما يختص التعريض في المركب فحسب ، ومن ذلك أن التعريض أخفى من الكناية ؛ لأن دلالة الكناية تعرف عن طريق اللفظ ، والتعريض يفهم عن طريق الإشارة ، وما دلّ عليه اللفظ يكون أوضح مما لا يدل عليه اللفظ وإن غُلب بدلالة أخرى⁽⁶⁾.
ومن التعريض ما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْجِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾⁽⁷⁾.
جاءت الآية في سياق بيان الآيات الدالة على توحيد الله وتنبيه العباد عليها ليتفكروا بها وليعقلوها ، فالله عز وجل يرينا البرق خوفاً من الصاعقة أو من الإخلاف وطمعاً في الغيث وقيل : خوفاً للمسافر وطمعاً للحاضر⁽⁸⁾.
وينزل من السماء فيحيي به الأرض بعد جدوبها ((إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)) وهذا تعريض بطريقة فنية مؤثرة ((تدفع السامعين إلى التفكير العميق ، حتى لا يكونوا ممن لا يعقلون))⁽⁹⁾.

(1) ينظر : أصول البيان العربي : 150.

(2) سورة البلد : 20.

(3) ينظر : أساليب البيان في القرآن : 738.

(4) ينظر : لسان العرب : مادة عرض .

(5) ينظر : جواهر البلاغة : 299 .

(6) ينظر : المثل السائر : 91 .

(7) سورة الروم : 24 .

(8) ينظر : الكشاف : 828 .

(9) من بلاغة القرآن : 228 .

ب - الرمز

هو ((فن من فنون القول وفرع في دوحة الكناية يدلّ على المكنى عنه دلالة خفية تكشف عنها اللوازم والوسائط ويدلّ عليها السياق))⁽¹⁾.

فالتعبير الرمزي بما فيه من إيحائية يجعل الكلام ((ألطف وأجمل ويكسب المتأمل متعة أعمق))⁽²⁾.

ومع ذلك فقد استخدم القرآن الرمز ((في مواقع خاصة يتطلبها السياق دون أن يضخم نسبة الاستخدام له نظراً ؛ لأنّ الرمز أشدّ أشكال الصور اختزالاً ، بسبب كونه إشارة لشيء محذوف ، مما لا يُتاح للقارئ اكتشافه بسهولة))⁽³⁾.

ومع ذلك فقد استخدمه القرآن في سياقات خاصة مقرونة بالوضوح بعكس ما نلاحظه في التعبيرات الأدبية الأخرى فقد تستخدم فيها رموزاً تُرهق القارئ بما تتضمنه من غموض وضبابية بحيث يتحول النص إلى غابة كثيفة من الرموز التي تستعصي على القارئ وتكلفه إرهاقاً عصبياً هو في غنى عنه⁽⁴⁾.

ومن الصور الرمزية في سياق الخوف ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ * مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُؤُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾⁽⁵⁾.

فحركات الرؤوس والعيون مظاهر خارجية تعبر عن حالات نفسية داخلية ولذلك من المناسب لها أن تصاغ رموزاً لتشير إلى دلالات داخلية .

فشخص الأبصار معناه أنّها ((لا تغمض لهول ما ترى في ذلك اليوم ولا تطرف))⁽⁶⁾ وهذا ملمح خارجي يظل كما هو واضح مرتبط بملمح داخلي أي الحالة النفسية التي يحيا فيها الشاخص والتي تكون في أشد توتراتها وتمزقاتها ، فالموقف الذي يواجهه هذا الظالم بما فيه من أهوال تشل فاعلية الشخص وتفقده توازنه يستلزم مثل هذه الملامح⁽⁷⁾.

ومن الملامح الخارجية التي تشير إلى ملامح داخلية ما في قوله تعالى: ﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُؤُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾⁽⁸⁾. الاضطراب له عدة دلالات منه الإسراع إلى الشيء مقرون بالخوف وقيل : إنّ الاضطراب مد العنق ، و المهطع الذي ينظر في ذل وخشوع لا يقلع بصره وكذلك من دلالاتها النظر الشاخص .

ولو اخترنا نسقنا أي دلالة للحظنا جمالياتها واتساقها مع طبيعة الموقف ، أما الإسراع إلى الشيء مع الخوف ، فنجد أنّ المنحرفين يسرعون إلى عرصة القيامة انتظاراً لمحاسبتهم وقد ورد هذا المعنى بوضوح في سورة القمر من قوله تعالى: ﴿مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ﴾

(1) البلاغة والتطبيق : 381 .

(2) أساليب البيان : 750.

(3) أدب الشريعة : 88.

(4) ينظر : أدب الشريعة 88-89.

(5) سورة إبراهيم : 42-43.

(6) مجمع البيان : 415/6.

(7) ينظر : دراسات فنية في صور القرآن : 279.

(8) سورة إبراهيم : 43.

(1)

ولو قلنا : إنّ الهطوع يعني النظر بخضوع وذل فالدلالة تتسق مع الموقف حيث أنّ الذل والخضوع يظل سمة رئيسة تطبع المنحرفين يوم القيامة ، وأما لو قلنا بأنّ الهطوع هو النظر الشاخص فهو أمر يأتلف مع السمة الرئيسة التي جاءت في البداية ((ليوم تشخص فيه الأبصار)) ، ولا شك في أنّ ترشح هذه الصورة الرمزية بهذه الإمكانيات الإيحائية المتنوعة إنما يهبها مزيداً من الجمالية والإمتاع والتأثير في المتلقي (2).

أما الصورة الرمزية الأخرى التي تعبر عما في نفوسهم من خوف وصراع وهي ((مقتعي رؤوسهم لا يرتد إليهم طرفهم)) والإقناع (رفع الرأس) (3). فهؤلاء ((يرفعون رؤوسهم إلى السماء حتى لا يرى الرجل مكان قدمه من شدة رفع الرأس وذلك من هول يوم القيامة)) (4). أما طرفهم فلا يرتد إليهم ؛ لأنّ أبصارهم شاخصة فهم ((لا يطبقونها ولا يغمضونها وإنّما هو نظر دائم)) (5).

وهذه صورة رمزية عبرت عما في أعماقهم من خوف وصراع وتمزق بسبب ما يواجهونه من هول رهيب . وهذه الصور تثير الخوف والرعب في نفس المتلقي فيما يلاقيه الظالمون في يوم القيامة . و من ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿ إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ.. ﴾ (6). الآية تحدثت عن الخائفين يوم الخندق في جيش النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) من الأحزاب وجموعهم .

فالخوف أثار فيهم الذهول والدهشة مما افقدهم التوازن ف ((زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ)) وما يواكب ذلك من يأس وانطفاء لأمل الحياة . زيغ البصر مظهر خارجي عبّر عما في ذواتهم من خوف وفزع ورعب ، وزيغ الأبصار مَيلانها عن سننها ومستوى نظرها حيرةً وشخوصاً وقيل : عدلت عن كل شيء فلم تلتفت إلا إلى عدوها لشدة الروع (7).

وليس الرمز التعبير بالمظهر الخارجي عما هو داخلي فقط وإنّما هناك صوراً رمزية رسمت الملامح الداخلية لهؤلاء الخائفين .

فقد عبرت هذه الصورة عن حالة الخوف وشدتها بـ ((وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ)) أي أنّ القلوب انخلعت من الخوف واليأس من مكانها وصعدت إلى الحناجر حتى لتكاد تخرج (8).

ولا نحسب أنّ هناك مظهراً تعبيرياً أشد كثافة وجمالية وصدقاً من هاتين الصورتين

(1) سورة القمر : 8 .

(2) ينظر : دراسات فنية في صور القرآن : 280 .

(3) مفردات ألفاظ القرآن : مادة قنع .

(4) مجمع البيان : 415/6 .

(5) م.ن : 415/6 .

(6) سورة الأحزاب 10 .

(7) ينظر : الكشف : 85 .

(8) ينظر : مجمع البيان : 8 / 439 .

الرمزيتين صورة زيف البصر وصورة انخلاع القلوب وصعودها إلى الحناجر. وفضلاً عما في هذه الصور من دقة لرسم عمليات حالات الانفعال الصادرة عن الخائف واليأس فقد انطوت على نمط خاص من التركيب الفني ، إذ لم يكتفَ بالتعبير عن حالة الخوف الداخلية بزيف البصر - وهو مظهر خارجي - وإنما عبر عن الخوف بمظهر داخلي وهو انخلاع القلوب وصعودها إلى الحنجرة . وهذا التنوع في تركيب الرمز وخضوعه لوحدة انفعالية واحدة - وهو الخوف - يُفصح عن جمالية المبنى الهندسي للصورة من حيث خضوعها لمصطلح (التنوع من خلال الوحدة) أو الوحدة من خلال التنوع .⁽¹⁾ وهكذا جاءت الكناية في آيات موحية موجزة مصورة للمعنى خير تصوير تحتوي على عناصر الإبداع الفني والتأثير في المتلقي وإقناعه . فضلاً عن فخامة الأسلوب وروعة النظم .

المبحث الرابع

الطباق

الطباق لغة ((من تطابق لشيئان أي تساويا والمطابقة الموافقة ، والتطابق يعني الاتفاق ، وطابق بين الشيئين إذا جعلهما على حذو واحد))⁽²⁾. وليس بين الدلالة الاصطلاحية واللغوية أدنى مناسبة ذلك أن ((المطابقة في الكلام هي الجمع بين الشيء وضده في جزء من أجزاء الرسالة أو الخطبة أو البيت من بيوت القصيدة ، مثل الجمع بين البياض والسواد والليل والنهار والحر والبرد))⁽³⁾. وهو أسلوب من أساليب البلاغة وحلية من الحلى البديعة ، فهو ((يضيف على الكلام رونقاً وبهجة ، ويقوي الصلة بين الألفاظ والمعاني ، ويجلو الأفكار ويوضحها))⁽⁴⁾ للمتلقي لغرض إفهامه وإقناعه بأسلوب بليغ فهو ((يجمع بين الأضداد فيخلق صوراً ذهنية متعاكسة ونفسية ، يوازن فيما بينها عقل القارئ ووجدانه فيتبين ما هو حسن منها ويفصله عن ضده))⁽⁵⁾.

(1) ينظر : دراسات فنية في صور القرآن : 516-517 .

(2) لسان العرب : مادة طبق .

(3) كتاب الصناعتين : 316 ، وينظر : نهاية الإيجاز : 170 .

(4) علم البديع ، د. عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية ، بيروت ، ط2 ، 1970م : 81 .

(5) البلاغة والتطبيق : 443.

وكذلك بالجمع بين الأضداد إتمام للغرض المقصود وإيفاء بالمعنى المراد .⁽¹⁾
إذن فالطباق تميز بالجمالية والتأثير في النفوس لذا يُعد من العناصر البلاغية المكونة للصورة الفنية في القرآن عموماً وآيات الخوف على وجه الخصوص .

أقسام الطباق

لقد قسّم البلاغيون الطباق على تقسيمين رئيسيين⁽²⁾ .
أولاً – تقسيمه على أساس الإثبات والنفي

طباق الإيجاب

هو الجمع بين لفظين مثبتين متضادين كما في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرّاً وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾⁽³⁾ .
فقد طباق بين (الليل) و(النهار) و(سراً) و(علانية) والمسوغ الفني لهذا الجمع بين الأضداد هو أداء للمعنى المراد في الآية وإتماماً للغرض المقصود .
فالجزاء الإلهي للمنفيين في طاعة الله بنفي الخوف والحزن من أهوال القيامة وأفزاعها أو من فوت الأجر ونقصانه عليهم ، ليس فقط للمنفيين في الليل أو في السر أو المنفيين فقط في النهار أو في العلانية ، بل في هذه الأوقات جميعها مادام ينفقها في سبيل الله وطاعته ، وهذه الأوقات المعينة للصدقات ولا وقت لها سواها .
وفي تقديم الليل على النهار والسر على العلانية نكتة فنية ، فذلك يعبر عن أهمية الإنفاق في السر ؛ لأنه أبعد عن الرياء والله العالم .
ومن الجدير بالذكر أنّ هذه الآية نزلت في حق الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) وكانت معه أربعة دراهم فتصدق بواحد نهاراً وبواحد ليلاً وبواحد سراً وبواحد علانية عن ابن عباس وهو المروي عن الصادقين عليهما السلام وحكمها – أي الآية – سائر في كل من فعل مثل فعله – الإمام علي – وله فضل السبق في ذلك .⁽⁴⁾

طباق السلب

هو الجمع بين فعلي مصدر واحد مثبت ومنفي أو أمر ونهي .
كما في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيباً﴾⁽⁵⁾ .
فالذين يبلغون رسالات الله ولا يكتُمونها - ألا وهم الأنبياء - يخشون ويخافون

(1) ينظر : البديع في ضوء أساليب القرآن ، د. عبد الفتاح لاشين ، دار المعارف ، القاهرة، ط1، 1979، م: 33.

(2) ينظر : الإيضاح 287-289، وعلم البديع 67 ، وفنون بلاغية 270 .

(3) سورة البقرة : 274 .

(4) ينظر : مجمع البيان : 500/2 .

(5) سورة الأحزاب : 39.

الله عز وجل في ترك ما أوجب عليهم ولا يخافون من غير الله سبحانه فيما يتعلق بالأداء والتبليغ ، وفي هذا دلالة على أن الأنبياء لا يجوز عليهم التقية في تبليغ الرسالة⁽¹⁾. فبمجيء الضدين – إثبات الخشية ونفيها – في صورة طباق السلب تكتمل الصورة ويتضح الغرض المقصود .

ومنه قوله تعالى: ﴿.. الْيَوْمَ يَنسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ۖ﴾⁽²⁾.

فبمجيء المعنى وضده في صورة الأمر والنهي ، النهي عن خشية غيره تعالى والأمر بخشيته ، يتم المعنى المراد من الآية وهو (إخلاص الخشية لله) فالخشية يجب أن تكون من الله لا من غيره ، لذا خاطب الله المؤمنين بالنهي عن خشية الكفار بعد إظهار الدين وانقلابهم مغلوبين مقهورين ، وأمرهم بأن يخافوه ويخشوه إن خالفوا أوامرهم وارتكبوا المعاصي فيحل عليهم عقابه⁽³⁾.

فهو صاحب النعمة عليهم ومن أعظمها إكرامهم بالإسلام .
ويُقَسَّم الطباق تقسيماً آخر ويكون باعتبار نوع اللفظين المتضادين :

- إذا كان اللفظان المتضادان اسميين

كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا ۖ﴾⁽⁴⁾.

والمطابقة بين (الأمن) و(الخوف)

وباجتماعهما في النص يتم المعنى ويكتمل عرض الحدث القرآني . فهؤلاء المنافقين أو ضعفاء النفوس من المسلمين يذيعون ما كان يُرَجَف في المدينة من أخبار ، ليس فقط أخبار الأمن من ظهور المؤمنين على عدوهم وإنما أخبار الخوف أيضاً من قبل عدو يقصدهم وقد كرهه الله ذلك ؛ لأن من فعل هذا لا يخلو كلامه من كذب ، ولما يدخل على المؤمنين بسببه من الخوف فإذا عتيم بما كانوا يعرفونه مفسدة⁽⁵⁾.

﴿.. وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا ۖ﴾⁽⁶⁾.

وفي هذه الآية تهذيب للنفوس لكي لا تُحَدِّث بكل ما تسمع ، فذلك مكروه عند الله ، لما في هذا العمل من آثار سيئة في المجتمع .

- إذا كان اللفظان المتضادان فعلين

ونجده في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِي تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ

(1) ينظر : مجمع البيان : 468 / 8.

(2) سورة المائدة : 3 .

(3) ينظر : الكشف : 278 ، ومجمع البيان : 199/3 .

(4) سورة النساء : 83.

(5) ينظر : الكشف : 249 ، ومجمع البيان : 104/3.

(6) سورة النساء : 83 .

الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلَيْنُ جُلُودَهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكِ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿١﴾

فقد عرض النص صورة فنية طباقية رائعة .

وهي صورة الهداية والضلال من خلال مجيء الفعلين الضدين (يهدي) و (يضل) صورة المطيع لله والمهتدي بهداه ، وصورة الذي ضلَّ فأضله الله فلا هادي له . فالإنسان هو الذي قدّم لنفسه هذه النتيجة وهذه العاقبة – الهداية أو الضلال – من خلال عمله .

ولنعد إلى النص ، نجد نعت الله عز وجل لأوليائه وأهل طاعته بأنهم إذا سمعوا القرآن وآيات وعيده أصابتهم خشية تقشعر منها جلودهم ثم إذا سمعوا ما فيه من الوعد بالثواب والرحمة والمغفرة لانت جلودهم وقلوبهم وزال ما كان بها من الخشية والقشعريرة فسكنت واطمأنت إلى ذكر الله ، فتعدية الفعل (لأن) بـ (إلى) جعله متضمن هذا المعنى (2)

((.. ذَلِكِ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ ..)) إذا هيا لنفسه الاستعداد لذلك من العبودية والإيمان والطاعات ، فيجود له الله عز وجل حياة طيبة نورانية مفعمة بالهداية والألطف الإلهية وجنة ورضوان في الآخرة .

((وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ))

أي من أضله الله عن طريق الجنة بكفره ومعاصيه لا يقدر على هدايته أحد وقيل : من ضلَّ عن الله ورحمته فلا هادي له يُقال : أضللت بعيري إذا ضل عنه ، فالضلال هو سبب الإضلال (3).

والقارئ عندما يوازن ويقارن بين هذين الضدين يتبين له أهمية الهداية من خلال مقارنتها بضدها وهو الضلال .

المقابلة

لقد ادخل بعض البلاغيين في الطباق المقابلة ومن هؤلاء القزويني الذي قال: ((ودخل في المطابقة ما يخص باسم المقابلة وهو أن يؤتى بمعنيين متوافقين أو معانٍ متوافقة ثم يقابلها أو يقابلها على الترتيب . والمراد بالتوافق خلاف التقابل)) (4).

فهو يُدخل المقابلة في الطباق ؛ لأنهما متشابهين في حصول التضاد .

ثم يقول : وقد تتركب المقابلة من طباق وملحق به كمقابلة اثنين باثنين في قوله تعالى: ﴿

فَلْيُضْحِكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا .. ﴾ (5) أو مقابلة أربعة بأربعة (6) كما في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ *

(1) سورة الزمر : 23 .

(2) ينظر : الكشف : 939 ومجمع البيان : 638/8 .

(3) ينظر : مجمع البيان : 638/8 ، والمفردات : مادة ضل .

(4) الإيضاح : 291.

(5) سورة التوبة : 82 .

(6) ينظر : الإيضاح : 291 .

وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى ﴿١﴾.

وعلى هذا اعترض بعض البلاغيين من إدخال المقابلة في الطباق مقررين أنّ المقابلة أعم من الطباق ؛ لأنّ المطابقة لا تكون إلا بالجمع بين الضدين أمّا المقابلة فتكون بين اثنين واثنين أو بين ثلاثة وثلاثة أو بين أربعة وأربعة وقد تصل إلى الجمع بين عشرة وعشرة واعتبروه فرقاً بين الطباق والمقابلة . أمّا الفرق الآخر فإنّ المطابقة لا تكون إلا بالأضداد والمقابلة تكون بالأضداد وغير الأضداد ولكنها بالأضداد أعلى رتبة وأعظم موقعاً⁽²⁾. ولكن هذه الفروق بين الطباق والمقابلة لا تستقيم حدوداً فاصلة تقطع ما يصل بينهما ، وآية ذلك أن هؤلاء أنفسهم أقروا بأنّ المقابلة أعم من الطباق ومعنى هذا أنّهما متلازمان تلازم العام والخاص ، كما أنّ في جمع الطباق بين ضدين وإطلاق هذا العدد للمقابلة إلى العشرة أمر شكلي لا يغيّر من وحدة طبيعة الفنين .

ونزيد على هذا أنّهم حين رأوا المقابلة تكون بالأضداد وغير الأضداد ، عادوا فأكدوا أنّ ما يكون بالأضداد أعلى رتبة ، وهذا يدل على أنّ المقابلة إذا كانت أعلى رتبة فينبغي أن تكون بالأضداد مثل الطباق فلا ضير أن نوحّد مصطلح المقابلة والطباق ونُدخل الفنين في نوع واحد نسّميه الطباق⁽³⁾.

لذلك أدخلت المقابلة ضمن مبحث الطباق فهي مثله تجمع بين المعاني المتضادة وترسم صوراً فنية تمتاز بالجمالية والحيوية ، ف ((التقابل طريقة من طرق التصوير وطريقة من طرق التلحين ، والتعبير القرآني يُكثر من استخدامها في تنسيق صورته التي يرسمها بالألفاظ على نحو دقيق))⁽⁴⁾.

منها ما جاء في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾⁽⁵⁾.

و التّأذّن كما في المجمع هو الإعلام يقال : أذّن تأذّن ومثله أوعد توعد ، أي إذ أعلم ربكم وقيل : وإذ قال ربكم⁽⁶⁾.

والخطاب من النبي موسى عليه السلام لبني إسرائيل عندما دعاهم إلى شكر الله على النجاة والنصر والنعم الكثيرة التي أغدقها عليهم ، وقيل : الخطاب للمسلمين وعلى أي حال فالنتيجة واحدة .

فإن يشكروا الله بالإيمان الخالص والعمل الصالح ، يُفيض الله عليهم من فيوضاته ويُزيد من نعمته عليهم ، إذ بالشكر تدوم النعم ، وإذا يجحد الإنسان بالنعم ولم يؤدّ شكرها ((فإن

(1) سورة الليل : 5-10 .

(2) ينظر : أنوار الربيع في أنواع البديع، السيد علي صدر الدين بن معصوم المدني، تح: شاعر هادي شكر ، مطبعة النعمان، النجف ، ط1، 1388هـ-1968م : 298 ، وعلم البديع : 77 .

(3) ينظر : البلاغة والتطبيق : 441-442.

(4) التصوير الفني في القرآن : 79.

(5) سورة إبراهيم : 7.

(6) ينظر : مجمع البيان : 394/6 .

عذابي لشديد))⁽¹⁾ وقد أكدّه بمؤكدین (إنّ واللام) وهو تهديد وتخويف لمن يكفر بنعم الله ، ولكنّه محاط باللفظ الإلهي ف ((من لطيف كرمه تعالى اللانح من الآية اشتمالها على التصريح بالوعد والتعريض بالوعيد حيث قال : ((لأزيدنكم)) . وقال: ((إنّ عذابي لشديد)) ولم يقل: لأعذبنكم وذلك من دأب الكرام في وعدهم ووعدهم ((⁽²⁾ .

والمتلقي أن يتفكّر ويتدبّر في الصورتين ، صورة الشكر وزيادة النعم وصورة الكفران والعذاب الشديد الذي يوجب زوال النعم .

فينظر كيف يضع نفسه أفي مقام الطاعة أم في مقام المعصية ؟ قال تعالى: ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾⁽³⁾ .

وقوله تعالى: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا * قَيِّمًا لِّيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّنْ لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴾⁽⁴⁾ . والإنذار إخبار فيه تخويف ، كما أنّ التبشير إخبار فيه سرور⁽⁵⁾ .

وهما من مهمة العبد الذي أنزل عليه الكتاب القيم الذي لا عوج له ألا وهو رسول الله محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) فهو يخوّف الناس عذاباً شديداً ونكراً وسطوة من عند الله إن لم يؤمنوا به ، ويُبشّر المصدقين بالله ورسوله الذين يعملون الطاعات بعد الإيمان أن لهم ثواباً حسناً في الآخرة وهو الجنة⁽⁶⁾ .

فالمقابلة عرضت لصورة الإنذار وما يستتبعه من العقاب والتبشير وما يستتبعه من الثواب في حال الإيمان بالله وعدمه .

والمتلقي يقارن ويوازن بين الصورتين ليتبين له حسن الإيمان بالله من عدمه . إذ به يُبشّر بالثواب وبعدمه يُخوّف بالعقاب الشديد .

وهكذا اتضح لنا جلياً أن للطباق دوراً بارزاً في السياق القرآني في آيات الخوف لجماليته وتأثيره في النفوس .

فالجمع بين الضدين يُكسب الكلام حُسناً وطرافة لذلك يُعدّ من المحسنات المعنوية في علم البديع . والطباق يرسم صوراً فنية فيها من الحيوية ما يجعل المتلقي يتخيل المشهد شاخصاً أمامه يحسه بمشاعره وأحاسيسه فيتحرك نحو الحسن من الضدين وينفر عن الآخر. وكذلك للطباق مهمة فنية أخرى وهي أداء المعنى كاملاً وإتمام الغرض المقصود في النص وذلك ما وجدناه على أكمل وجه .

(1) سورة إبراهيم : 7 .

(2) الميزان في تفسير القرآن : 22/12 ، وينظر الأمثل : 488 / 6 .

(3) سورة الإنسان : 3 .

(4) سورة الكهف : 1-2 .

(5) المفردات : مادة نذر .

(6) ينظر : مجمع البيان : 581/6 .

المصادر و المراجع

أولاً : الكتب

 القرآن الكريم .

الإتقان في علوم القرآن ، جلال الدين السيوطي (ت 911 هـ) ، دار الكتب العلمية ، بيروت، الطبعة الثانية ، 1428 هـ - 2007م.

📖 أدب الشريعة الإسلامية ، د.محمود البستاني ، مؤسسة السبطين العالمية ، قم ، إيران ، الطبعة الأولى ، 1424 هـ ق - 1382 هـ ش .

إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم (المعروف بتفسير أبي السعود) ، أبو السعود محمد بن محمد العمادي (ت 951هـ) ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان، الطبعة الرابعة، 1414هـ-1994م.

أساس البلاغة ، جار الله الزمخشري (ت 538هـ) ، دار صادر ، بيروت ، 1385هـ-1965م.

أساليب البيان في القرآن ، سيد جعفر الحسيني ، مؤسسة الطبع والنشر ، وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي ، طهران ، الطبعة الأولى ، 1413هـ.

أساليب الطلب عند النحويين والبلاغيين ، د.قيس إسماعيل الأوسي، بغداد ، د.ط
 ، شُعْبان شُعْبان رَمَضَان مُحَرَّم.

أسرار البلاغة ،أبو بكر عبد القاهر الجرجاني (ت ٥٠٤هـ)، تحقيق: عبد الحميد الهنداوي ، دار الكتب العلمية ، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

إشراق من القرآن الكريم ، آية الله السيد محمود الطالقاني ، ترجمة: د. عباس
الترجمان ، مؤسسة الهدى للنشر والتوزيع ، طهران، الطبعة الأولى، 1421هـ-
2000م.

الأصوات اللغوية ، د. إبراهيم أنيس ، مكتبة الإنجلو المصرية ، الطبعة الخامسة، 1975م.

أصول البيان العربي في ضوء القرآن الكريم، د. محمد حسين الصغير، دار المؤرخ العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، شوال سنة ١٤٢٨ هـ - رمضان رمضان ١٤٢٩ م.


أصول الكافي ، أبو جعفر محمد بن يعقوب الكليني الرازي (ت 329هـ) ، ضبطه وصححه وعلق عليه : محمد جعفر شمس الدين ، دار المعارف للمطبوعات ، بيروت ، 1411هـ-1990م.

الإعجاز الصرفي في القرآن الكريم، د. عبد الحميد الهنداوي ، المكتبة العصرية، صيدا، لبنان، الطبعة الأولى، 1422هـ - 2001م.

📖 إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، مصطفى صادق الرافعي، مطبعة الاستقامة ، القاهرة، الطبعة السادسة، 1375هـ - 1956م.

الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل ، آية الله الشيخ ناصر مكارم الشيرازي ، مؤسسة الأعلمی للمطبوعات، بیروت، لبنان ، الطبعة الأولى، 1428هـ-2007م.

📖 أنوار الربيع في أنواع البديع ، السيد علي صدر الدين بن معصوم المدني، تحقيق

- شاكر هادي شكر ، مطبعة النعمان ، النجف الأشرف ، العراق ، الطبعة الأولى ،
 رَجَبُ رَمَضَانَ مَحَرَّمُ هـ - رَجَبُ رَمَضَانَ مَحَرَّمُ م.
- الإيضاح في علوم البلاغة ، الخطيب القزويني (ت739 هـ) ، دار ومكتبة الهلال ،
 بيروت، لبنان، 2000م.
- البدیع فی ضوء أساليب القرآن ، د. عبد الفتاح لاشين، دار المعارف، القاهرة ،
 الطبعة الأولى ، رَجَبُ رَمَضَانَ مَحَرَّمُ م.
- البرهان في علوم القرآن ، بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي (ت735 هـ) ،
 تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركائه، الطبعة
 الأولى، 1376 هـ- 1957م.
- البلاغة العربية قراءة أخرى، د. محمد عبد المطلب ، الشركة المصرية العالمية
 للنشر ، القاهرة ، الطبعة الأولى، رَجَبُ رَمَضَانَ مَحَرَّمُ م.
- بلاغة الكلمة في التعبير القرآني ، د. فاضل السامرائي، دار الشؤون الثقافية العامة ،
 بغداد، الطبعة الأولى، 2000 م .
- البلاغة الواضحة ، علي الجارم ومصطفى أمين ، مكتبة الأسد ، دمشق، د. ط.
 رَجَبُ رَمَضَانَ مَحَرَّمُ م.
- البلاغة والتطبيق، د. أحمد مطلوب ود. حسن كامل البصير ، مديرية دار الكتب
 للطباعة والنشر ، جامعة الموصل ، العراق ، رَجَبُ رَمَضَانَ مَحَرَّمُ هـ - رَجَبُ رَمَضَانَ مَحَرَّمُ م.
- بناء الصورة الفنية في البيان العربي ، د. كامل حسن البصير ، مطبعة المجمع
 العلمي العراقي، بغداد ، رَجَبُ رَمَضَانَ مَحَرَّمُ هـ - رَجَبُ رَمَضَانَ مَحَرَّمُ م.
- البيان في ضوء أساليب القرآن ، د. عبد الفتاح لاشين، دار الفكر العربي ، القاهرة ،
 رَجَبُ رَمَضَانَ مَحَرَّمُ هـ - رَجَبُ رَمَضَانَ مَحَرَّمُ م.
- البيان والتبيين، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت255 هـ) ، تحقيق : حسن
 السندوبي، المطبعة الرحمانية، القاهرة ، الطبعة الثانية ، 1932م.
- تحف العقول عن آل الرسول، الشيخ الثقة أبو محمد الحسن بن علي الحراني،
 مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت الطبعة السادسة ، 1417 هـ - 1996م .
- التصوير الفني في القرآن ، سيد قطب ، دار المعارف ، مصر ، د. ط. ، د. ت .
- التعابير القرآنية والبيئة العربية في مشاهد القيامة ، ابتسام مرهون الصفار ،
 مطبعة الآداب ، النجف الأشرف ، العراق، الطبعة الأولى، رَجَبُ رَمَضَانَ مَحَرَّمُ هـ -
 رَجَبُ رَمَضَانَ مَحَرَّمُ م.
- التعبير الفني في القرآن ، د. بكري الشيخ أمين ، دار الشروق للطباعة ، القاهرة ،
 الطبعة الأولى ، 1393 هـ- 1973م.
- التعبير القرآني ، د. فاضل السامرائي ، دار الكتب للطباعة والنشر ، جامعة
 الموصل ، العراق ، د. ت.
- تغلب على الخوف ، د. مصطفى غالب ، دار ومكتبة الهلال ، بيروت، 2000م.
- التفسير البنائي للقرآن الكريم ، د. محمود البستاني ، مؤسسة الطبع التابعة للأستانة
 الرضوية المقدسة ، مشهد، الطبعة الأولى ، رَجَبُ رَمَضَانَ مَحَرَّمُ هـ - رَجَبُ رَمَضَانَ مَحَرَّمُ م.

- 📖 التفسير البياني للقرآن الكريم ، د. عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ) ، دار المعارف بمصر ، الطبعة الثانية ، 1966م.
- 📖 تفسير الجلالين ، جلال الدين المحلي و جلال الدين السيوطي ، مكتبة النهضة ، بغداد ، الطبعة الخامسة ، 1988م.
- 📖 تفسير العياشي ، المحدث محمد بن مسعود ابن عياش السمرقندي ، تصحيح وتعليق : العلامة السيد هاشم الرسولي المحلاتي ، الطبعة الأولى ، 1411هـ - 1991م.
- 📖 تفسير غريب القرآن ، عبد الله بن مسلم بن قتيبة (ت 276هـ) ، تحقيق : أحمد صقر ، دار إحياء الكتب العربية ، د. ط ، 1958م.
- 📖 التفسير الكبير أو البحر المحيط ، محمد بن يوسف أبو حيان الأندلسي (ت 745هـ) ، تحقيق : الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمود معوض ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، 1422هـ ، 1 - 2001م.
- 📖 التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب ، فخر الدين الرازي (ت 606هـ) ، دار الفكر للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان ، د. ط ، 1423هـ - 2002م .
- 📖 التفسير المبين ، الشيخ محمد جواد مغنية ، مؤسسة دار الكتاب الإسلامي ، قم المقدسة ، الطبعة الثانية ، 1423هـ - 2002م .
- 📖 تلخيص البيان في مجازات القرآن ، الشريف الرضي (ت 410هـ) ، تحقيق : محمد عبد الغني حسن ، دار الأضواء ، بيروت ، الطبعة الثانية ، 1423هـ - 2002م .
- 📖 ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ، الخطابي والرماني والجرجاني ، تحقيق : د. محمد خلف ومحمد زغلول ، دار المعارف ، مصر ، د. ط ، د. ت .
- 📖 جامع البيان من تأويل آي القرآن ، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت 310هـ) دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، الطبعة الأولى ، 1421هـ - 2001م.
- 📖 جامع السعادات ، الشيخ محمد مهدي النراقي ، دار التفسير ، قم ، الطبعة الأولى ، 1417هـ ق - 1376هـ ش .
- 📖 الجامع لأحكام القرآن ، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي (ت 671هـ) ، تحقيق : عماد زكي البارودي و خيرى سعيد ، المكتبة التوفيقية ، القاهرة ، د. ط ، د. ت .
- 📖 جَرَسُ الألفاظ ودلالاتها في البحث البلاغي والنقدي ، د. ماهر مهدي هلال ، دار الرشيد للنشر ، بغداد ، د. ط ، 1980.
- 📖 الجمان في تشبيهات القرآن ، ابن ناquia البغدادي (ت 485هـ) ، تحقيق : د. أحمد مطلوب ود. خديجة الحديثي ، دار الجمهورية ، بغداد ، د. ط ، 1387هـ - 1968م.
- 📖 جواهر البلاغة ، أحمد الهاشمي ، مؤسسة الصادق عليه السلام للطباعة والنشر ، طهران ، الطبعة الثانية ، 1423هـ - 2002م .
- 📖 الحوار في القرآن ، آية الله السيد محمد حسين فضل الله ، دار الملاك للطباعة

- والنشر ، بيروت، الطبعة السادسة ، محرّم صفر ربيع ثانٍ محرّم هـ محرّم صفر ربيع ثانٍ محرّم هـ ، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ، مصر ، ط1385، 2هـ 1965م.
- ت رجب ربيع أول محرّم هـ ، خزنة الأدب وغاية الأرب ، أبو بكر علي بن عبد الله الحموي (ت رجب ربيع أول محرّم هـ) ، تحقيق: د.كوكب دياب ، دار صادر بيروت، الطبعة الأولى ، محرّم صفر ربيع ثانٍ محرّم هـ محرّم صفر ربيع ثانٍ محرّم هـ .
- ت رجب ربيع أول محرّم هـ ، الخصائص ، أبو الفتح عثمان بن جني (ت392هـ) ، تحقيق: د.عبد الحميد الهنداوي ، دار الكتب العلمية ، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، 2002م-1424هـ.
- ت رجب ربيع أول محرّم هـ ، خواتري عن القرآن الكريم ، آية الله السيد حسن الشيرازي ، دار العلوم ، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى ، 1414هـ-1994م .
- ت رجب ربيع أول محرّم هـ ، الخوف والرجاء ، مؤسسة البلاغ ، د.ط ، د.ب .
- ت رجب ربيع أول محرّم هـ ، دراسات فنية في صور القرآن ، د.محمود البستاني ، مؤسسة الطبع التابعة للأستانة الرضوية المقدسة ، مشهد ، إيران ، د.ط ، 1421هـ-ق- 1379هـ.ش.
- ت رجب ربيع أول محرّم هـ ، درة التنزيل و غرّة التأويل ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله الخطيب الإسكافي (ت رجب ربيع ثانٍ محرّم هـ)، دار الكتب العلمية ، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ت رجب ربيع أول محرّم هـ ت رجب ربيع أول محرّم هـ .
- ت رجب ربيع أول محرّم هـ ، دروس في التصريف ، محمد محي الدين عبد الحميد ، مطبعة السعادة، مصر، الطبعة الثالثة ، 1378هـ - 1958م.
- ت رجب ربيع أول محرّم هـ ، دلائل الإعجاز ، الشيخ عبد القاهر الجرجاني ، تحقيق : محمد رضوان الداية ود.فايز الداية ، مكتبة سعد الدين ، دمشق، الطبعة الثانية، 1407هـ 1987م.
- ت رجب ربيع أول محرّم هـ ، ديوان أمراء القيس ، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، الطبعة الرابعة، د.ب.
- ت رجب ربيع أول محرّم هـ ، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، السيد محمود الألوسي البغدادي ، دار الكتب العلمية ، بيروت، د.ط ، 1422هـ - 2002م .
- ت رجب ربيع أول محرّم هـ ، الصاحب في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها ، أحمد بن فارس (ت رجب ربيع أول محرّم هـ)، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ت رجب ربيع أول محرّم هـ ت رجب ربيع أول محرّم هـ .
- ت رجب ربيع أول محرّم هـ ، الصوت اللغوي في القرآن ، د. محمد حسين علي الصغير ، دار المؤرخ العربي ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، 1420هـ-2000م.
- ت رجب ربيع أول محرّم هـ ، الصور البيانية بين النظرية والتطبيق ، د.حفني محمد شرف، دار نهضة مصر، مصر، الطبعة الأولى ، ت رجب ربيع أول محرّم هـ ت رجب ربيع أول محرّم هـ .
- ت رجب ربيع أول محرّم هـ ، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي ، د.جابر عصفور ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، القاهرة ، د.ط ، ربيع ثانٍ رجب ربيع أول محرّم هـ .
- ت رجب ربيع أول محرّم هـ ، الصورة الفنية في المثل القرآني ، د.محمد حسين علي الصغير ، دار الهادي، بيروت، الطبعة الأولى ، ت رجب ربيع أول محرّم هـ ت رجب ربيع أول محرّم هـ .

-  الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ، يحيى بن حمزة العلوي (ت رَمَضَانُ رَجَبِ رَحْمَةُ هـ)، مطبعة المقتطف، مصر، د.ط. ، صَدْرَ رَجَبِ أَوَّلِ رَمَضَانَ مَحَرَّمَهُ رَمَضَانَ مَحَرَّمَهُ م.
-  علم البديع ، د. عبد العزيز عتيق ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت، الطبعة الثانية ، شَوَّالُ رَجَبِ رَمَضَانَ مَحَرَّمَهُ .
-  علم البيان دراسة تاريخية فنية في أصول البلاغة العربية ، د. بدوي طبانة ، مكتبة الأنجلو المصرية ، د.ط. ، د.ت.
-  علم المعاني ، د. عبد العزيز عتيق ، دار الأفاق العربية ، القاهرة ، رَمَضَانَ مَحَرَّمَهُ رَمَضَانَ مَحَرَّمَهُ رَمَضَانَ مَحَرَّمَهُ .
-  العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني (ت 456هـ) ، دار صادر ، بيروت، الطبعة الأولى ، 1424هـ-2003م.
-  عيار الشعر ، ابن طباطبا العلوي (ت 322هـ) ، تحقيق : عبد العزيز بن ناصر المناع ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، د.ط. ، 2005م .
-  فن التشبيه ، د. علي الجندي ، مكتبة نهضة مصر ، الطبعة الأولى، صَدْرَ رَجَبِ أَوَّلِ رَمَضَانَ مَحَرَّمَهُ .
-  الفن والأدب ، د. ميشال عاصي ، المكتب التجاري للطباعة والنشر ، بيروت، الطبعة الثانية ، 1970م .
-  فنون بلاغية - البيان والبديع ، د. أحمد مطلوب، دار البحوث العلمية ، الطبعة الأولى ، جُمَادَى رَمَضَانَ رَجَبِ أَوَّلِ مَحَرَّمَهُ هـ- جُمَادَى رَجَبِ رَمَضَانَ مَحَرَّمَهُ .
-  في ظلال القرآن ، سيد قطب ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت، لبنان، الطبعة الخامسة ، 1967م.
-  الكتاب ، أبو بشر عثمان بن قنبر الملقب بسبيويه (ت 180هـ) ، تحقيق : عبد السلام محمد هارون ، نشر مكتبة الخانجي ، القاهرة، مصر، الطبعة الثالثة ، 1408هـ-1988م .
-  كتاب الصنائع والكتابة والشعر ، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري (ت 395هـ) ، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة عيسى البابي الحلبي ، القاهرة، الطبعة الثانية ، 1971م.
-  كتاب العين ، خليل بن أحمد الفراهيدي (ت 175هـ) ، تحقيق: د. مهدي المخزومي و د. إبراهيم السامرائي ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت ، الطبعة الأولى ، 1988م.
-  الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ، جار الله الزمخشري (ت 538 هـ) ، تحقيق: خليل مأمون شيحا ، دار المعرفة ، بيروت، الطبعة الأولى ، 1423هـ-2002م .
-  الكشف والبيان (تفسير الثعلبي) ، الإمام الثعلبي ، تحقيق: أبو محمد بن عاشور، دار إحياء التراث العربي ، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، صَدْرَ رَجَبِ أَوَّلِ رَمَضَانَ مَحَرَّمَهُ هـ- صَدْرَ رَجَبِ رَمَضَانَ مَحَرَّمَهُ .
-  لسان العرب ، ابن منظور الأنصاري (ت 711هـ) تحقيق: عامر أحمد حيدر ، دار الكنب العلمية ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى، 1424هـ-2003م .

- 📖 لمسات بيانية في نصوص من التنزيل ، د.فاضل السامرائي ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، الطبعة الأولى ، 1999م.
- 📖 المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، ضياء الدين ابن الأثير (ت 637هـ) ، المطبعة البهية، مصر، د.ط ، 1312هـ.
- 📖 مجاز القرآن ، أبو عبيدة معمر بن المثنى التيمي (ت 210هـ)، تحقيق وتعليق : احمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ، 1427 هـ – 2006م .
- 📖 مجاز القرآن وخصائصه الفنية وبلاغته العربية، د.محمد حسين علي الصغير ، دار الشؤون الثقافية ، بغداد، الطبعة الأولى ، ربيع ثانٍ رمضان محرم .
- 📖 المجاز في البلاغة العربية ، د.مهدي السامرائي ، دار الدعوة ، سوريا، الطبعة الأولى ، ربيع ثانٍ رجب رمضان محرم .
- 📖 مجمع البيان في تفسير القرآن ، الشيخ أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي (ت 548هـ) ، تحقيق: السيد هاشم الرسولي المحلاتي ، مؤسسة التاريخ العربي ، بيروت ، لبنان، الطبعة الأولى ، 1412هـ-1992م .
- 📖 معاني الأبنية العربية ، د.فاضل السامرائي ، جامعة الكويت، كلية الآداب، الطبعة الأولى ، 1401هـ-1981م.
- 📖 معاني القرآن ، أبو زكريا الفراء (ت 207هـ)، الجزء الأول تحقيق :أحمد يوسف نجاتي ومحمد علي النجار ، والجزء الثالث تحقيق : د.عبد الفتاح إسماعيل شلبي، علي النجدي ناصف ، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية ، القاهرة ، الطبعة الثالثة ، 1422هـ-2002م.
- 📖 معاني النحو، د.فاضل السامرائي، دار الفكر للطباعة والنشر ، عمان ،الأردن، الطبعة الثانية ، 1423هـ-2003م.
- 📖 المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، محمد فؤاد عبد الباقي ، منشورات ذوي القربى ، الطبعة الثالثة ، 1384 هـ .ش .
- 📖 مغني اللبيب عن كتب الأعراب ، ابن هشام الأنصاري (ت محرم ربيع ثانٍ رجب هـ)، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد ، مطبعة المدني ، القاهرة ، د.ط ، د.ت.
- 📖 مفتاح العلوم، أبو يعقوب محمد بن علي السكاكي (ت ربيع ثانٍ صفر ربيع ثانٍ هـ)، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وشركائه، القاهرة ، ربيع أول رمضان محرم .
- 📖 مفردات ألفاظ القرآن الكريم ، الراغب الأصفهاني (ت 502هـ)، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، نشر طليعة النور ، قم ، الطبعة الثانية ، 1427هـ .
- 📖 من بلاغة القرآن ، د.أحمد أحمد بدوي ، مطبعة نهضة مصر ، د.ط ، 1952م.
- 📖 منهاج البلغاء وسراج الأدباء ،أبي الحسن حازم القرطاجني (ت ربيع ثانٍ شعبان ربيع ثانٍ هـ)، تحقيق : محمد الحبيب بن خوجة ، دار الكتب الشرقية ، تونس ، ربيع ثانٍ رمضان محرم .
- 📖 من هدى القرآن ، العلامة السيد محمد تقي المدرسي ، مكتبة العلامة المدرسي، الطبعة الأولى، 1410هـ.

- 📖 مواهب الرحمن في تفسير القرآن ، آية الله العظمى السيد عبد الأعلى السبزواري ، مؤسسة التاريخ العربي ، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1424هـ-2003م.
- 📖 موسيقى الشعر ، د.إبراهيم أنيس ، المطبعة الفنية الحديثة ، القاهرة ، الطبعة الثانية، 1972م.
- 📖 الميزان في تفسير القرآن ، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت، الطبعة الثانية، 1393هـ-1973م.
- 📖 نظرات حديثة في التفسير ، محمد عبد الرحمن الجديلي ، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، الطبعة الأولى، ربيع الأول ١٤٢٠ هـ / رمضان ١٤٢٠ م.
- 📖 النقد الأدبي ، د.داود سلوم ، بغداد ، د.ط ، رجب ١٤٢٠ هـ / رمضان ١٤٢٠ م.
- 📖 النقد الأدبي أصوله ومناهجه، سيد قطب، دار الفكر العربي ، الطبعة الثانية، 1954م.
- 📖 نقد الشعر ، قدامة بن جعفر (ت337هـ)، ضبط وشرح: محمد عيسى منون ، المطبعة الملية ، مصر ، د.ط ، 1934م .
- 📖 نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز ، فخر الدين الرازي، تحقيق: د.نصر الله حاجي، دار صادر ، بيروت، الطبعة الأولى، 1424هـ -2004م.
- 📖 نواذر الأصول في أحاديث الرسول، محمد بن علي الحكيم الترمذي (ت320هـ)، تحقيق: د.عبد الرحمن عميرة ، دار الجيل ، بيروت ، الطبعة الأولى، 1412هـ - 1992م .
- 📖 الوساطة بين المتنبي وخصومه ، القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني(ت366هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي ، دار إحياء الكتب العربية، الطبعة الثانية، 1370هـ - 1951م.

ثانياً : الرسائل والأطاريح الجامعية

- 📖 آيات الإيمان في القرآن الكريم – دراسة فنية ، خولة صالح صيهود الكناني (رسالة ماجستير)، كلية الآداب ، جامعة القادسية ، 2001م.
- 📖 الأداء البياني في السور القصار ، عقيل عبد الزهرة مبدر (أطروحة دكتوراه)، كلية الآداب ، جامعة الكوفة، 2006م
- 📖 الترغيب والترهيب في القرآن الكريم – دراسة بلاغية ، موسى سلوم الربيعي (رسالة ماجستير) ، كلية الآداب، الجامعة المستنصرية ، 1998م
- 📖 الخوف في القرآن الكريم ألفاظه وسياقاته– دراسة لغوية ، أحمد جواد العتابي (أطروحة دكتوراه) ، كلية التربية ، الجامعة المستنصرية ، 2001م.
- 📖 الدلالة الصوتية في القرآن الكريم ، كريم مزعل محمد اللامي (رسالة ماجستير)، كلية التربية ، الجامعة المستنصرية ، رَجَبُ رَمَضَانَ مُحَرَّمُ
- 📖 الصورة السمعية ودلالاتها البلاغية في القرآن الكريم ، عباس حميد السامرائي، (أطروحة دكتوراه)، كلية الآداب ، جامعة بغداد ، 2001م.

ثالثاً : البحوث

- 📖 ألوان من التخيل في القرآن الكريم ، جنان منصور الجبوري ، مجلة كلية التربية ، جامعة كربلاء ، العدد الأول ، 1424هـ - 2003م .
- 📖 البناء الفني في سورة مريم ، د.حامد عبد الهادي حسين ، مجلة قبس العربية، العدد الأول، 2005م .
- 📖 البناء اللغوي في الفاصلة القرآنية عند الفراء في كتابه (معاني القرآن) ، د.علي عبد الله العنبيكي ، مجلة جامعة ديالى، العدد الخامس عشر ، 2003م .
- 📖 دلالة التثنية في سورة الرحمن ، د.عبود جودي الحلي ، مجلة جامعة بابل ، العدد الأول ، 2002م .
- 📖 السياق الموسيقي للجملة العربية وأثره في بنائها، د.أحمد نصيف الجنابي، مجلة آداب المستنصرية ، العدد الرابع ، 1399هـ - 1979م .

الخاتمة

- حمدتُ الله في الأولى ، وليس لي غير حمده في الثانية حمد الشاكرين وشكر الحامدين .
فمن مننه ونعمه تعالى عليّ أن وفقتني لإتمام هذا البحث ، وقد تبين من خلاله ما يأتي :
- ❖ إنّ الخوف من الله تعالى هو عملٌ ، يعني ترك المعاصي واختيار الطاعات ، وليس هو انفعال كما هو مفهوم الخوف من الناحية النفسية ، ولكن وظيفة الخوف كباعث ومحرك نفسي هي التي تجمعهما .
 - ❖ إنّ الخوف من الله يشمل الخوف من كبريائه تعالى وعظمته وقوته ، والخوف من تقصير النفس في حق الله ، ومن الذنوب والأعمال السيئة المفضية إلى عذاب الله ، ولكلٍّ من الخائفين درجته ومقامه .
 - ❖ يغلب ورود الخوف من الله من بين أنواع الخوف في القرآن ، وذلك يرجع إلى ما في هذا الخوف من آثار طيبة يتركها على شخصية الإنسان وسلوكه ، فهو – أي الخوف – يبعثه على السعي بكل إمكاناته من فكر وشعور وعمل من أجل تحصيل مرضاة الله ونيل ثوابه وإخلاص العبودية له .
 - ❖ ذُكر البحث أنّ الخوف من الله في القرآن الكريم ليس فقط من الإنسان وإن كان هو الأغلب والأعم ، بل قد يصدر من الطبيعة والملائكة والشيطان ، ولكن مقام الملائكة أرفع وخوفهم من الله أعظم لما يشاهدون ويعرفون من مقام ربهم .
 - ❖ التعبير عن الخوف في القرآن الكريم جاء إما صراحةً وذلك بالألفاظ الخاصة بمعنى الخوف في بعضها يكون الخوف واضحاً وفي بعضها الآخر يكون مشوباً بمعانٍ كثيرة تختلط بمعنى الخوف كالرجاء الذي فيه معنى الأمل والطمع والتوقع والخوف والخشية خوف يشوبه تعظيم والإشفاق عناية مشوبة بخوف والوجل والفرع والرعب والروع والخشوع كلها تعبّر عن الخوف ولكن بدرجات تبرز واضحة عند دخولها في التركيب والسياق . وقد يكون التعبير عن الخوف ضمناً كما في الألفاظ والتراكيب التي تصوّر الخوف أو تثيره في نفس المتلقي وهذا ما بيّنه البحث وجاء بالأمثلة على ذلك كله .
 - ❖ أغلب آيات الخوف آيات مكية ، وقد تميّز أسلوبها باللهجة الخطابية والنبوة الثائرة والوقع الشديد والجرس العنيف والتهديد والوعيد وتصوير جهنم وأهوالها والقيامة وكروبها ، وذلك لبيان معنى الخوف .
 - والخوف يتبيّن ويتّضح أكثر من خلال ما تحمله آيات الخوف من ملامح فنية و ومعانٍ بلاغية .
 - ❖ بيّن البحث أنّ جرس الألفاظ في آيات الخوف جاء عنيفاً وقوياً ليُظهر معنى الخوف أو يثيره في النفوس ، وكذلك بيّن أنّ الموسيقى المخيفة في آيات الخوف لا تتكون من إيقاع وجرس اللفظة الواحدة فقط وإنما من اجتماع الألفاظ ضمن السياق ، ومن تجانس الأصوات داخل العبارة القرآنية وقد صوّرت هذه الموسيقى الحدث القرآني في آيات الخوف أبلغ تصوير .
 - ❖ تبين من خلال البحث أنّ الألفاظ في آيات الخوف جاءت مناسبة لمعناها وللسياق

- الذي وردت فيه ، فكل لفظة وُضعت لتؤدي معناها على أتم وجه لذلك لا يوجد في القرآن ترادفاً ، فنجد أن كل لفظة تحمل إلينا معنىً جديداً .
- ❖ وللفاصلة القرآنية في آيات الخوف أثرٌ واضح في إبراز جمالية التعبير القرآني وفنيته ، فهي تحمل الوقع الموسيقي المؤثر حيث انتهاء أكثر الفواصل بحروف المد واللين بالإضافة إلى المعنى المتمم لمعنى الآية وأثر ذلك كله في إظهار معنى الخوف . ومعنى الخوف يظهر أيضاً من خلال ظاهرة الانسجام الصوتي والموسيقي بين الفواصل ومن مظاهر ذلك التقديم والتأخير وزيادة حرف فيها أو نقصانه . وقد ذكر البحث أنواع الفواصل التي وردت في آيات الخوف من متماثلة ومتقاربة ومتوازنة ومتوازنة ومنفردة ولكن المهم في الفاصلة ليس مجرد توافق الأوزان والألفاظ وحروف الروي بل لما توجده من تأثير كبير في النفوس بما تحمله من موسيقى ومعنى ، وهذا ما بيّنه البحث وساق الأمثلة على ذلك .
- ❖ اتّضح أنّ للبنى الصرفية في آيات الخوف من اسمية وفعلية والمفرد والجمع والثلاثي المزيد ... وبما تحمله من فنية وجمالية أثرٌ في إبراز معنى الخوف ، وقد ذكر البحث الأمثلة على ذلك .
- ❖ بيّن البحث أنّ دلالة الخبر بنوعيه – الحقيقي والمجازي – في آيات الخوف ليس فقط تخوّف المتلقي، وإنّما ترغبه أيضاً بما عند الله للمؤمنين والخائفين منه.
- ❖ تبين من خلال البحث أنّ للإنشاء الطلبي نصيباً وافراً في آيات الخوف التي اعتمدت اللهجة الخطابية في الكثير من مواضعها . وإنّ لهذا الأسلوب الخطابي المباشر بخصائصه الفنية آثار نفسية عظيمة في المتلقي ، فهو يُحدث لديه الإقناع بالحدث المعروض عن طريق التعبير المباشر الذي يعتمد الاستدلال وسرد الحجج والبراهين .
- ومن أنواع الإنشاء الطلبي التي ذكرها البحث ومثّل لها النداء والأمر والنهي والاستفهام والتمني .
- ❖ وضّح البحث دلالة التركيب على الخوف من خلال التقديم والتأخير والفصل والوصل ولا يخفى ما لهذين الأسلوبين من مكانة متميزة في البيان القرآني ولما لهما من وقع مؤثر في المتلقي .
- ❖ تبين من خلال البحث مشاركة الإيجاز بنوعيه والإطناب بأنواعه المختلفة في إبراز معنى الخوف . وذلك بعد عرضهما في آيات الخوف بطريقة فنية مؤثرة تميزت بجمالية وإحكام .
- ❖ استعمل القرآن الكريم الصورة الفنية في آيات الخوف وسيلة لعرض الفكرة أو الحدث القرآني بالاعتماد على التجسيم والتخييل الحسي اللذين يكسبانها – أي الصورة – الحيوية والحركة .
- ❖ تميّزت الصورة الفنية في آيات الخوف بالإبداع الفني والإقناع والتأثير في المتلقي وهذا ما بيّنه البحث .
- ❖ كثرة الصور التشبيهية من بين أنواع الصور الفنية في آيات الخوف ، وذلك لما تميز به التشبيه من كشف الحقائق وإيضاح المعاني والتأثير في المتلقي . وتبين

من خلال البحث كثرة الصور التشبيهية الحسية البسيطة أو المفردة وقلة الصور المركبة أو التمثيلية في آيات الخوف، ولكن كلا الصورتين تستمدان عناصرهما من الطبيعة بشكل ملفت للنظر، ففي استعمالها – أي الطبيعة – يكون التشبيه أقرب إلى المتلقي وتبرز صورته واضحة أمامه ، وقد بيّن البحث أثر ذلك كله في تصوير معنى الخوف أو إثارته في النفوس.

❖ إنّ المجاز بنوعيه – العقلي واللغوي – في آيات الخوف يرسم صوراً فنية موحية نابضة بالحركة والحيوية ففيها تتجسم المعنويات وتكتسب الحياة وهذا ما يطبعها بطابع الإبداع الفني ، وقد بيّن البحث ما لذلك من تأثير في نفس المتلقي حيث يتعمق الوعي لديه بالفكرة التي يريد القرآن عرضها .

❖ اتضح من خلال البحث ، أنّ الصور الكنائية لها أثر في تصوير معنى الخوف بما تحمله من إحياء وتأثير وإقناع ، ولا سيما الصور الرمزية ، فعلى الرغم من أنّ الرمز أشد أشكال الصور اختزالاً ولكن استخدمه القرآن في سياقات خاصة مقرونة بالوضوح ليتسنى للقارئ أن يفهمه.

❖ بيّن البحث أهمية الطباق في رسم الصور الفنية ، ففي اجتماع الضدين تتكون صورة فنية موحية يقف عندها القارئ متأملاً فيتبين الحسن منهما ويفصله عن ضده، وكان لذلك الأثر الكبير في إظهار معنى الخوف . وقد توصل البحث إلى جعل المقابلة تحت عنوان الطباق ؛ لأنّهما يشتركان في اجتماع الأضداد وكذلك في إتمام المعنى وعرض الفكرة كاملة وقد ساق البحث الأمثلة على ذلك . وإجمالاً نقول إنّ الألفاظ والتراكيب والصور في آيات الخوف تميزت بفنية عالية وجمالية ساعدت على إبراز معنى الخوف .

فليت الله يرضى هذا الجهد القليل منا ويجعله في أعمالنا الصالحات ، ويكتبه لنا في صفحة الحسنات وأستغفر الله ربي من كل زلل وخطئ إنّهُ تَوَّاب رؤوف رحيم .

والحمد لله رب العالمين